

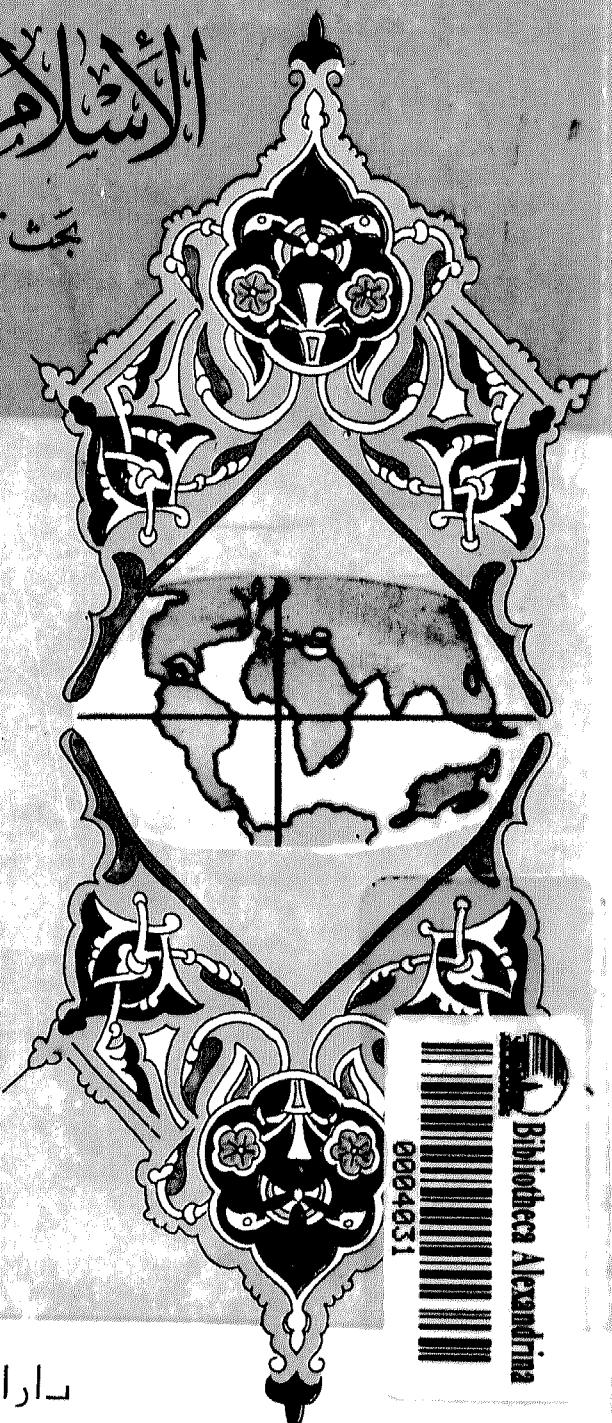
١

المفہوم عنہما الاسلامیۃ العربیۃ

# الاسلام والعلم المعاصر

بحث تاریخی "حضارتی"

بستم  
أنور الجندی



0004031



Biblioteca Alexandria

دار الكتاب اللبناني - بيروت



الاسلام والعالم المعاصر



المَوْسِعُ عَنِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ

١

الْإِسْلَامُ وَالْعِلْمُ الْمُعَصَّلُ

بحث تاريخي «حضاري»

بتسلیم  
أنور الجندري

دار الكتاب اللبناني - بيروت

جستجوی مجموعه کتب ایشان  
دارالکتبات البتایف  
برقیّا، حکایت‌بان، بیروت  
ص. ب: ۲۱۷۶  
بیروت، لبنان

الطبعة الثانية ١٩٨٠

# آفاق البحث

## صفحة

٩	مدخل الى البحث . . . . .
٢٥	الباب الأول : العالم والاسلام . . . . . اليهودية - الموسوية - البرهنية والبودية - الميلينية - الامبراطورية الرومانية - المسيحية والغرب - الفرعونية - الوثنية العربية
١٠١	الباب الثاني : الاسلام والعالم . . . . . الفتح الاسلامي - القرون الوسطى المضيئة - المسلمون والمتوسط - التاريخ الاسلامي - القرآن والأديان .
٢٠٣	الباب الثالث : الاسلام والأديان . . . . . معالم الاسلام - التوحيد - تدين البشرية وتحرير الانسان من العبودية - بناء المجتمع والانسان - الاسلام والأديان .
٣٥٧	الباب الرابع : الاسلام والعالم المعاصر . . . . . الاسلام والعالم المعاصر - أزمة الغرب الدينية - اليهودية في محاولة احتواء الاسلام - الماركسية في مواجهة الاسلام - الاسلام والبشرية .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل منهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم evidences بغياناً بينهم فهذا الله الدين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ». « قرأت كريم »



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١

## مَدْخَلٌ إِلَى الْبَحْثِ

علم مقارنة الأديان علم قديم : كان المسلمون أول من تناولوه في انصاف ووضعوا قواعده في أمانة ، وكشفوا به حقائق الأمور في سماحة بالغة . فقد تناول ابو الريحان البيروني . وابن حزم . والشهرستاني وغيرهم مقارنات الأديان وفق منهج علمي قائم على العدل والانصاف ، وعرض أقوال الخالفين بكل حرية ، وعرضوا للنحل على نحو متميز من الوضوح والسماعة ، دون تجاوز الحق . وان أي مراجعة لكتاب الأطباء لابن ابي أصياغة - وطبقات الحكماء لابن القسطي . وطبقات الأدباء لياقوت - والوافي بالوفيات للصفدي - وتاريخ حكماء الاسلام للبيهقي . تجد نادج لهذا التسامح . فقد ترجم المؤلفون المسلمين للنصارى . واليهود والمجوس . وكأنهم ابناء ملة واحدة - وكتب البيروني عن اديان الهند في القرن الخامس من الهجرة . فلم يمس عاطفة أحد من أهلها .

(٢)

وليس ذلك موضع غرابة من أحد ، إنما الغريب هو أن يحدث عكس ذلك ، ذلك ان الاسلام قد أقام عقيدته على اساس الإيمان بالله وكتبه ورسله جمِيعاً ، وأعطى مضمون التسامح والإنصاف لكل النحل والاجناس والاديان. بل وللمخالفين عن الاديان ما لم يحدثوا في الامة شبهة او شكوكا . ولقد كانت نزعة الدين من طبائع البشرية ، ومن فطرتها الاصيلة التي لا تختلف إلا في طائفة قليلة من الذين انحرفت فيهم الفطرة ، او أصول العقل والإدراك . غير أن السنوات الاخيرة حملت دراسات جديدة في مقارنات الاديان ، كتب بعضها من وجهة نظر تقوم على التمتع بدين الباحث . او من وجهة نظر مادية بحثة تقوم على النظر الى الاديان من نظرة الانتقاد ، وتحاول ان تفسرها تفسيراً يقوم على الهوى والازدراء .

وقد أليس بعض هذه الابحاث طوابع زائفة من العلم لتخفي ما وراءها من أهداف وغايات . وهي في الأغلب تخضع لاتجاه الصهيونية التامودية . التي تحاول ان تهاجم المسيحية والإسلام معًا باعتبارهما متآخرتين عنها تاريخياً . ولو كانت اليهودية التي تحاول ان تعرض لتحمل محل الاديان التالية لها . هي ما أنزل على موسى عليه السلام لكان الخلاف قليلاً ، او ربما لم يكن هناك خلاف قط ، ذلك أن مصدر الاديان واحد وهو الله ، وأصولها الكبرى واحدة وهي التوحيد والمعدل والأخلاق . غير ان الابحاث العلمية كلها ، وخاصة ما قام بها أصحاب الاديان أنفسهم تؤكد ان هناك تفسيرات قد أولت حقائق ، وأن هناك تفسيرات اخرى قد غيرت حقائق بالإضافة والهدف . وأن النصوص الاولى المنزلة من السماء للتوراة والإنجيل . ليست موجودة قطعاً . ذلك ما يقرره البحث العلمي قبل ان يقرره القرآن الكريم الذي سجل ذلك . والذي جاء خاتماً للكتب . ومهماً عليها .

هذا فضلاً عن ان اصحاب البحث المقارن للأديان . انا يصادمون معتقداتهم » ويختلفون معها حين يبحثون الاسلام فيجدونه إما مشابهاً لما جاء في اليهودية وال المسيحية . فعندئذ يقولون ان الاسلام ليس الا تكراراً لها ، او يجدونه مختلفاً لما عندهم من تفسيرات اليهودية وال المسيحية . فيرون ان الاسلام قد صادم مفاهيمهم ومعتقداتهم .

ولقد عجز الباحثون في مقارنات الاديان ان يتخلصوا من مفاهيمهم او أهوائهم . لأنهم يقفون في الجانب الجزئي بينما كتاب مقارنات الاديان المسلمين يقفون في الجانب المتكامل .

ولقد يكون «التوحيد» وهو أُس الأساس في الاسلام بمحاجةً لمفاهيم بعض الباحثين في مقارنات الاديان . ولقد يبدو تكامل الاسلام بين الدين والمجتمع . والعقل القلب . والعلم والدين معارضًا لمفاهيمهم الاساسية التي قامت على أساس الفصل بين القيم والاتجاه بها وجهة واحدة . شاطرة او جزئية . ومن هنا يبدو تكامل الاسلام في نظر الانشطارية نقصاً او تجاوزاً ، فاذا كانت مقارنات الاديان قائمة على اساس الهوى او الغرض . او محاولة اقرار مفهوم خاطئ ، او محاربة دين ، او إثارة الشبهات في أمة من الأمم . فان هذه المقارنات لا تساوي الحبر الذي كتبت به لأنها لن تثبت طويلاً أمام الحقائق . وأمام المناهج العلمية الأصيلة .

والاسلام في مقارنات الاديان يختلف عن الاديان جميعاً : الأرضية والمزلة بأنه الدين الاخير . والدين الس الكامل . والدين الذي ظلت أصوله ومصادره ثابتة موثقة لم يتطرق اليها تحريف . او زيف . او تغيير ، وما تزال تهدي البشرية . وستظل تهديها أبداً الابدين .

(٣)

ومفهوم الدين كما يقرره الاسلام انه دين واحد منذ آدم الى محمد ، واحد المصدر ، لأنه من عند الله . وواحد الاصل لأنه قائم على التوحيد . وكل ما اختلفت فيه الاديان . اما كان نتيجة ان هذه الاديان كانت مترتبة بأسم بعینها . فلم يكن الدين عاماً كما جاء في الاسلام خاتم الاديان ، ولأنها كانت تتواتي ارتقاء البشرية حلقة بعد حلقة حق جاءت الموسوية لبني اسرائيل . وتبع موسى عدد من الرسل أرسلوا لبني اسرائيل ايضاً . كان خاتمه عيسى عليه السلام . ثم بعث محمد ﷺ في العرب . وأرسل الى العالمين . وكان العرب هم حلقة لوائد الى البشرية كلها . وكان بذلك ديناً عاماً خاتماً . ولقد بقىت في الساحة من الاديان السماوية : اليهودية . والمسيحية . والاسلام ، وما تزال الى اليوم . وكلها في الاصل تبدأ من ابراهيم عليه السلام ، وتنتهي الى محمد عليه السلام . وقد بدأت في آن ابراهيم وابنيه اسماعيل واسحاق ، فامتدت بالتوحيد فيها . ثم تحولت بinterpretations الاحبار من الخنفية الى العنصرية ، فلما جاءت رسالة عيسى عليه السلام تحولت من دين معدل لشريعة موسى ، ومكمل لرسالته الى دين عالمي يقوّم على مفهوم التثليث والخطيئة والصلب . وجاء الاسلام ليرد البشرية الى التوحيد الحق . وإلى الإله الواحد الواحد ، الذي لا شريك له .

(٤)

ولقد تعددت مذاهب تفسير الاديان . بين تفسير سيكولوجي ، وفلسفي ، وتاريجي ، وتعددت النظريات والمناهج بتعدد الاهواء والغایيات . وأصدق تفسير للإسلام ، وفهم له في مجال المقارنة هو أنه من عند الله ، وهو دين التوحيد الذي ثبتت نصوصه ؛ ولم تتطور في اصولها لأنها من منطلق الفطرة .

« فطرة الله التي فطر الناس عليها ولن تجد لسنة الله تبديلًا » ولن تجد لسنة الله تغييرًا .

جاء الاسلام مطابقًا للاديان السماوية في اصولها . و مكملاً لها و متممًا « ارتقاء او تقدماً على ما سبقه من رسالات إلهية . وإن اتفق معها في جوهر الرسالة » .

وأبرز ما أضافه الاسلام الاخوة العالمية وإتمام الأخلاق . وجعل اخوته العالمية قائمة على اساس القانون الأخلاقي العام الواحد .

وإذا كانت هناك مقارنة واضحة بين الاسلام والاديان . فان هناك مقارنة بين الاسلام والفكر البشري ، وقد كشف الاسلام عن ذاتيته الخاصة المستمدّة من القرآن والتي تحمل طابع التوحيد في مواجهة الاديان والفكر البشري . وأكد انه من الصعب الم sisir انصهار الاسلام وذوبانه في بوقعة أي فكر مستمد من مفاهيم وقيم تختلف اختلافاً واضحاً وعميقاً عن اصوله ومصادره .

وان الاسلام عمد الى بناء شخصية جديدة مختلفة تمام الاختلاف عن الشخصية التي عرفها العالم قبله من خلال مفهوم التفسيرات المنحرفة الى العنصرية . او التعدد او عزل الاخلاق عن الشريعة او المقيدة عن الاخلاق . وأبرز ما يتسم به الاسلام هو إلغاء الوساطة بين الله والانسان . واحكام الفوارق بين الالوهية والنبوة . وتكريم الانسان في وجه العبودية والوثنية والتبعية . ومن هنا يبدو الاسلام والفكر البشري كله عاجز عن تلقيحه او اخضاعه ، وتكتشف اصالة الاسلام في انه يرفض كل عنصر غريب عليه .

(٥)

ومن الحق ان يقال ان نقطة الارتفاع والاختلاف بين الاسلام والاديان

الآخرى ، انه دين كامل جامع بين شطري الحياة ، وأنه ليس ديناً لاهوتياً خالصاً او تعبدية فحسب بل هو دين ومنهج حياة ، وعبادة وشريعة وأخلاق.

من خلال هذه النقطة بالذات ينحرف موقف كتاب الغرب عن وجهة النظر الصحيحة في فهم الاديان ، ويختلف موقفنا عن موقف كتاب الغرب .

ذلك أن هذه النظرة المتكاملة للكون والحياة والمجتمع تؤثر تأثيراً بعيداً في مفاهيم الحضارة والنظم والمناهج . وتفترق افتراقاً بعيداً عن نظرية الاديان .

ولكن ما هو الاسلام الذي هو موضع المقارنة مع الاديان الأخرى ، وهي موضع التحدي والخطر في كل أوجه الصراع الذي تقوم به الثقافات الغربية ، ودعوات التغريب والغزو الثقافي في محاولة قصر الاسلام على أن يكون ديناً لاهوتياً تعبدية منفصلاً عن جانبه التشريعى والأخلاقي الذي يحتضن نظام المجتمع كله . ويضبطه بقواعد أساسية كاملة .

ولقد تشكل مزاج المسلمين وتشكلت وحدتهم منذ اربعه عشر قرناً على هذا المفهوم وهذه القيم ، وإن اختللت قومياتهم ووطنياتهم وارتباطاتهم بالأرض والامم . ومن العسير إخراجهم من هذا المفهوم المتكامل ، وكل المحاولات التي تجري لذلك هي بثابة تأويل باطل يويد ان يضرب الاسلام بما ضربت به الاديان الأخرى التي انحرفت عن أصولها الربانية المنزلة بالوحى بقىءة إرضاء هوى النفس البشرية المتسلطة الى التحرير بالزيادة او النقص لتحقيق مطامعها ولذاتها . والخروج عن الضوابط التي قررها الاسلام استكمالاً للشخصية . ورفعاً لها عن المبوط والانحدار في مهواه التحيط والانهيار .

وهذا الفارق الواضح هو سرّ ما يحاول بعض المتصلين بدراسات مقارنات الاديان إبرازه على أنه من مقامات الاسلام ، والواقع أن الاسلام ، هو صاحب الأفق الرحيب الذي يضم المادة والروح والدنيا والآخرين والدين والعلم والقلب

والعقل . فكيف يوصف بالنقص . بينما تلك الاديان والمذاهب هي التي تقوم على أساس الانشطار .

كذلك يمكن ان يوصف الاسلام في نفس دعوة التجزئة والانشطار القائين على مفهوم المادة والدين والعلم والعقل في كيان واحد منفصل عن جذور الطبيعة البشرية ، وفطرة الوجود الانساني المتكامل ، يمكن أن يوصف الاسلام على اختلافهم بالازدواجية ومن الحق أنها ليست ازدواجية ، لأن شرط الازدواجية هو التعارض والتصادم ولكن هذا المفهوم المتكامل ، انا يمثل التداخل الطبيعي بين شطري الانسان والالقاء الصريح بين عنصري التكوين البشري الذي أعطى الغرب أزمة التمزق والقلق والصراع النفسي الاجتماعي الذي يحتاج هذه المجتمعات اليوم ويتحققها بقوه .

ولقد حاولت بعض النظريات الوافدة ان تضرب في جدار الفكر الاسلامي القوي بغية إحداث صدع فيه تحقيقاً لأهدافها في تمزيق الوحدة . وإقامة مفهوم الانشطارية الذي يحقق للاستعمار والتغريب والغزو الثقافي غايتها من استواء الاسلام وإذابته في بريق المادية الوثنية العالمية . غير أن الاسلام بطبيعة تركيبه وعمق تجربته ومواجهته للأخطار . والفكر البشري كان قادرآً للمقاومة فلم يستسلم أبداً في الماضي . ولن يستسلم أبداً في مستقبله الطويل للنظريات الدخيلة . او الفلسفات الوافدة . وهو قادر على ان يأخذ ويعطي ويرد ما لا يتناسب مع طبيعته وتركيبه ومزاجه .

وقد ظل الفكر الاسلامي انطلاقاً من طبيعته ومضمونه القائم على التوحيد الحالص يواجه النظريات . ويدلي برأيه فيها ، ولا يتوقف عن النظر المنصف ولا يتقبل كل شيء وهو بسماحه وافتتاحه على الثقافات والفكر العالمي قادر على عملية الأخذ والعطاء على قاعده ، ودون ان يخرج عن مقوماته .

فالاسلام يلتقي مع الاديان في المعانى العليا الانسانية المشتركة . ويختلف في انفصالية نظام المجتمع عن العبادة ، وفي انفصال الشريعة عن العقيدة ، وفي انفصال الاخلاق عن المنهج الاجتماعي كله ، وهو مع أنه دين الفطرة . فهو دين العقل ، وهو بطبيعته دين واقعي ، يسابر تطور الأزمنة ، ويهدف الى تقدم الانسان .

وأبرز ممطيات الاسلام هي قدرته على علاج القضايا الكبرى ، والمضلات البشرية في يسر وبساطة . جامعاً بين الجوانب الروحية والمادية في حياة الانسان ، رابطاً بين العلم والعقيدة في حياة الفكر ، واصلاً بين المجتمع والاخلاق في مجال السلوك .

(٦)

إن كلمة الدين نفسها في الفهم الغربي . لا تعنى نفس المعنى في الفهم الاسلامي . فإن كلمة ( Religion ) تعني: نظام كهنوتى فيه الراہب والاعتراف . وسيطرة الانسان على أخيه . وتحكمه في غمران ذنبه ، وقبول توبته و( رليحوزنى ) تعنى استسلاماً كاملاً لهذا النوع من العبودية ، واشتراكاً في العبادة نفسها بالله عن طريق الامتثال لكل ما يأمر به رئيس الديانة أو ينهى<sup>(١)</sup> .

وان هذا الفهم الغربي لمدلول الدين . إنما جاء طبقاً للمحتويات التي كذبتها الظروف المسيحية الاولى . والتي كان الاسلام ثورة عليها ، وإصلاحاً لها . وقد كان لهذا المفهوم أثر متناقض في نفوس الغربيين . منذ بداية الاصلاح الديني البروتستانتي . ثم أثر خطيرٍ منذ أن طفى رجال الدين على أهل الدين ،

---

(١) علال الفاسي : دعوة الحق . يونيه سنة ١٩٦٨ .

وأصبحوا يمنعونهم من الدراسة ومن المعرفة . ونشأ عن ذلك أن أحس المجتمع بضرورة التحرر من الدين بالمعنى الغربي . أي بالثورة على الكنيسة وتحكم الرهبان ، والتحرر من الاستقراطية القطاعية .

أما عندنا فقد نسبينا مدلول الدين بالمعنى الاسلامي هو مجرد تشريع . ومألأنا الكلمة بما تدل عليه الرحمة الغربية . فأصبحنا بطبيعة الحال نفهم معنى الدين بما تحتويه كلمة رليجون . وأصبحنا نفكرون في أمر الدين بما يفكرون به الغرب . وما نقرأه من آدابه الموجهة قبل كل شيء لنقد مجتمع مبني على تحكم الكنيسة . وصعوبة الطلاق ولو في حالات تلبس أحد الزوجين بالزنا . وقيام ارستقراطية اقطاعية يحميها رجال الكنيسة وتستعبدها الشعوب . ونشأت من هذا مشكلة فصل الدين عن الدولة .

فالدين بالمعنى الغربي لا وجود له في بلادنا ولا فكرنا ، فالدولة والدين شيء واحد . ولا بد للدولة ان تقوم على عقيدة او خلق ، ولا بد أن تكون حامية لقانون . وهي المسؤولة عن إيمانه ان لم يكن موجوداً .

« والدولة الاسلامية ليست دولة اكابرية كهنوتية بالمعنى الذي يفهمه الغرب » ولا ريب أن عدم إدراك هذا الفرق بين مدلول الدين عند المسيحية وعند المسلمين كان عظيم الخطأ في تضليل الكثيرين من العرب الذين تعلموا تعليماً غريباً دون أن يحصلوا بمحابته على دراسة صحيحة تكتسبهم من معرفة الاسلام على حقيقته ، ولما كانت الكلمات اللغوية التي تلبس في المعانى الحية التي يلبسها الناس لها بالاستعمال كل يوم . فان كلمة الدين لم تعيش في ذهن هذه الطبقة من المثقفين إلا ببدلها الغربي ، وقد ضل الكثيرون في فهم الاسلام فسلكوه مسلك الدين المسيحي ، وأصدروا حكماً واحداً عليهم . وان الحلة التي يواجهها الاسلام من أعدائه . انا هي أثر من آثار الهجوم العنيف الذي وجه

ضد الأديان من طرف الماديين . ولقد كانت المسيحية هي السيف المباشر .  
والمهدى الأصيل الذى وجه اليه الهجوم .

ومن هنا وتأسیساً على ذلك يبدو واضحاً خطر الاتجاه الغربي الذي يحاول  
إخضاع نصوص القرآن والشريعة لأنماط الغرب . وتحويل كلمات اللغة العربية  
ومصطلحاتها من ملابساتها الفكرية التي ترمي إليها أصلاً إلى غيرها .

## تعريف بالاسلام

الإسلام منهج وليس نظرية : منهج متكامل يستهدف تحقيق بناء المجتمع الرباني في الأرض . ولذلك عني الاسلام بوضع تعاليم جامعية في السياسة والاقتصاد والمجتمع والتربية . أفرغت في صيغة كلية . وأصول عامة . وبذلك أتيح لها صفة الخلود والبقاء . وهي تعاليم لها صفة التكامل والشمول والترابط .

وقد عني الاسلام بأن يكون منهج حياة ونظام مجتمع ، ولذلك عمد الى :

أولاً : تحرير الفكر من الوثنيات والمادة .

ثانياً : تحرير الانسان من العبودية .

ثالثاً : تحرير البشرية من قيود العنصرية والمادية والاباحية .

والقيم الأساسية للإسلام واسعة الأفق ، مرنة الأبعاد ، قابلة لكل تجديد في سبيل الرقي والتقدم والبناء ، فضلاً عن ذلك . فان الجمود والتتعصب ليس من مظاهرها . أو شاراتها . والاسلام نظام يشبع النفس البشرية ، ويعطيها

حاجاتها الروحية والمادية . يلتقي فيه عالم الشهادة بعالم الغيب . وليس الاسلام نظرية فلسفية ، ولا مذهبًا صوفياً ، ولكنه نهج في الحياة يلتقي مع نواميس الطبيعة ، وأصول الفطرة التي فطر الله الناس عليها . ويلتقي الى ذلك الوجدان والعقل والعلم .

وقد طبع الاسلام حياة معتقديه . والعرب الذين حملوا لواءه . وما يزال يطبعها . وسيظل يطبعها ، ولذلك فان أي حركة فكرية . أو نهضة اجتماعية لا تستطيع ان تتجاهل هذه الحقيقة ، ولا تخرج عن هذا الواقع . ولا ريب أن الاسلام نهج اجتماعي يشمل الانسانية كلها ، وحركة اجتماعية كان الدين جانبياً من جوانبها ، وقد صنع الاسلام المجتمع الاسلامي منذ اللبنة الأولى ، وأقام الحضارة الاسلامية .منذ نقطة البداية .

والاسلام ليس عقيدة مادية تتطابق عليها المقايس المادية ، وليس عقيدة روحية تتصل بالرؤيا والمعجزات والخارق ، ولا صلة لها بالمادة والحياة . وإنما الاسلام عقيدة ترتكز على الروح والمادة معاً .

وقد أكد الباحثون أن الاسلام لا يسقط أمام الغزو التبشيري الغربي . لأن المسلم لا يمكن ان يكون نصرائياً او يهودياً ، والاسلام نصرانية وزيادة ، وإذا كانت المسيحية ديننا . فالاسلام دين وشرع ، وإذا كانت المسيحية تعطي ما لقيصر لقيصر . وما لله لله فان الاسلام يجعل الأمر كله لله . وفي الاسلام قدرة الامتصاص ومرنة التشكيل لتلقي كل منجزات العصر الحديث . ولا يقف عقبة في سبيل حرية الفكر . كما أثبتت صلاحيته منذ نشأته لم يحيط الشعوب والأجناس . فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات ودرجات المدنية ، وهو دين فطرة استطاع أن يمنح أهله تلك القوة التي هزمت كل القوى ، والتي حاولت تحطيمه فصهرها في بوتقة أو سحقها وأفناها . وقد حل الاسلام المشككين الذين تشغلا الفكر الغربي : الاخوة الانسانية والعدل الاجتماعي .

وقد حفظ الاسلام من الانهيار والتفكك ، بقاء القرآن الكريم بعيداً عن كل الأخطار سليماً لم يمسه سوء ، ولقد طبع الاسلام حياة العرب ، وسيظل يطبعها . وان العربي مسلماً كان أو مسيحيًّا تربطه بالاسلام والعروبة . اللغة والفكر المشترك الجامع والأخلاق ، فقد وحد الاسلام الثقافة التي تربط العناصر المختلفة التي استطلت بظله ، ولو كانوا غير مسلمين دينًا . والاسلام جعل من المسلم ذاتية لها كرامتها وعزتها ، فالمسلم لا يندفع مع التيار ، ولا يساير الركب . بل خلق متميزة بالربانية في الوحي والانسانية في الهدف وقد اتسم الاسلام بالبساطة والوضوح . وأعطى حلولاً لكل مشاكل الانسان والمجتمع وهي حلول ثابتة الجوهر والهدف متغيرة الصورة والوسيلة . والاسلام لم يفرض الحلول والقواعد مسبقاً ولم يطبقها بالقسر والإكراه .

وقد اكتملت أصول الاسلام في حياة الرسول . ولم تجر إضافة أي شيء اليها بعد ، وليس في الاسلام سرٌ ولا تناقض ولا ما يصدم الفكر أو يتعارض مع العقل .

ومن أبرز مظاهر الاسلام قدرته على التجدد من الداخل ومرؤنته في إعادة صياغة نفسه . وكشف الأغشية التي تحاول إخفاء جوهره .



وكان الاسلام وسيظل حركة تحرر في مواجهة الاستعمار . وحركة عدل اجتماعي في مواجهة الاقطاع ، وحركة شوري في مواجهة الاستبداد ، وحركة أخوة في مواجهة التفرقة العنصرية ، وجعل من أسسه مرونة التطور بتطور العصور والأزمنة . ومراعاة الملابسات . وظروف الجماعات المتغيرة . وذلك دون أن يخرج على أسسه الثابتة ، ويرد ذلك الى سعة أطروه ، ومرؤنة ابعاده القادرة على الاستيعاب .

وقد فرق الاسلام بين المعرفة والعقيدة ، وفرق بين العلم والفلسفة .

وجمع بين العقل والقلب ، كما جمع بين الدين والعلم ، واعتبر أن المعرفة الإنسانية عامة ، والمقائد خاصة لكل أمة عقيدتها ، كما فرق بين العلم النافع ، والعلم الذي لا ينفع ، والعقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد . جنبت المعارف الإسلامية الانقسام إلى دينية وعقلية . وليس الإسلام خادماً للمجتمعات والدعوات والمذاهب . بل هو حاكم له مقوماته المستقلة التي لا تخضع ، وهو ليس مبرراً للحضارات وله ذاتيته الخاصة ، ومقاييسه الذاتية ، وهو لا يقر التأويل في الأصول العامة . كالربا والزنا والخمر والقتل .

والإسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيداً للنظريات والأيديولوجيات . بل لأنه أول من دفع الإنسان إلى الأمام ، وحرره من العبودية والرق والوثنية واللادنية والشرك بالله .

ولا ريب أن رابطة المسلمين اليوم هي القرآن . فالمصحف وحده هو الدلالة الوحيدة الجامعة لوحدة المسلمين ، وأن مرشد المسلمين اليوم وإمامهم هو القرآن وحده .

وصدق ( بارتليبي سانهليير ) حيث يقول : ما تزال تعاليم القرآن التي رقت عقول الملايين من الناس ترقى كل يوم شعورياً متاخرة باشرابها الحقائق الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والأخلاقية .



ولقد كان الإسلام هو الدين الوحيدي - على حد تعبير برناردشو الذي لديه ملكة المضم لاطوار الحياة المختلفة . والذي يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس .

ويتبني رينان بعودة الإسلام فيقول : ما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي الولود والكثير المواهب إلى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة .

ولا ريب أن في عمق جذور الاسلام في البيئة والحضارة ما يجعله قادرًا على التحرك في مجال التقدم دون أن يفقد الصلة بأصوله . ودون ان يفقد أصحابه أصول عقيدتهم .

وقد أعطى الاسلام حقاً مزية «الوسطية» حق أَنْ باحثاً مثل (جب) يؤمن بأن الاسلام ما تزال له رسالة يؤديها الى الانسانية جماء حيث يقف وسطاً بين الشرق والغرب . وأنه أثبت اكثراً من أي نظام سواه مقدرة على التوفيق والتآليف بين الأجناس المختلفة ، فاذا لم يكن بد من وسيط يسوى بين الشرق والغرب من نزاع وخصام . فهذا الوسيط هو الاسلام .

ولا ريب أن الدين عند المسلمين عنصر جذري لا سبيل لانفصاله عن حياتهم ومجتمعاتهم . وهو حقيقة واقعة ، وجزء متكم لحياتهم اليومية ، وهو على حد تعبير العلامة (تريلتون) ليس رداء يرتديه العلماء . ومن ثم فهو يجعل المسلمين اذا وقعت الواقعة وادهم ليل الخطوب يجعلهم ثابقي الايان لا تزعزعهم العواصف والأنواء .

ولقد أكد الباحثون أن الفكر الاسلامي أشد إيفالاً في الواقع من الفكر الغربي . وأن الشريعة الاسلامية تتناول شؤون الحياة اليومية ، ولا تقتصر على مسائل العبادات والأخلاق كما في الشرائع الأخرى .

ومن هنا فإن علمية «علم الأديان» لا تستطيع أن تعالج الاسلام كبقية الأديان دون اعتبار أن هذا الدين هو دين الله ، أي فوق الحقائق الطبيعية والاجتماعية والعلمية ، فهو ليس من صنع البشر ، ولا شك أن الاسلام دين الله ، ولكنه ايضاً دين الفطرة والناظر يتوصل الانسان اليه ارتقاء اذا حكم عقله لا اذا أغفله<sup>(١)</sup> .

(١) من بحث للدكتور الفاروقى .

ولا ريب أن الاسلام كا وصفه المنصفون يصنع الرجل المثالي الذي لا يقهـر  
ولا يغلـب وسر" قوة هذا الرجل هو أنه يؤمن بالله واحداً لا شريك له ، وأن  
الأمر كله بيده ، ومن شأن هذا الإيمان أن هذا الرجل إذا نودي للقتال لا يهاب  
الموت لأنه يعتقد أنه يقاتل في سبيل الله . والحق أن الإسلام يربـأ بكرامة  
الإنسان من أن تخضع لسلطان غير الخالق ويأنف من أن يكون عبداً لإنسان.

ولقد حرص الاسلام على دعوة المسلم الى التمرد على كل عبودية لغير الله ،  
وأن يبدأ من الاحساس بأنه أقل مما سواه ، وأن يرتفع عن الخضوع لغير الله  
حيث لا فرق بين الغني والفقير . والكبير والصغير . والأسود والأبيض  
إلا بالتقوى .

# البَابُ الْأَوَّلُ

## العَالَمُ وَالاسْلَامُ

الفصل الأول : اليهودية

الفصل الثاني : الجوسية

الفصل الثالث : البرهمية والبوذية

الفصل الرابع : الملينية

الفصل الخامس : الامبراطورية الرومانية

الفصل السادس : المسيحية والفرج

الفصل السابع : الفرعونية

الفصل الثامن : الوثنية العربية



## الفصل الأول

### اليهودية

عندما نزل الاسلام على محمد بن عبد الله في مكة كان ذلك [إيذاناً] بختام رسالات السباء التي اتصلت منذ خلق «آدم» والتي كانت أرض الشرق مهبطاً لوحيمها . وعندما نزل الاسلام كانت رسالة موسى ، ورسالة عيسى . وما اللتان سبقتا الاسلام لا تزالان قائمتين ولهم أتباعهما المبشرون في أجزاء كبيرة من الأرض . ولم يكدر شعاع الاسلام أن ينطلق حتى بدأ حوار واسع بينه وبين أتباع الأديان القائمة . ومنها ما هو وضعي أرضي . ومنها ما هو سماوي منزل . وإن كان قد أصاب تفسيره شيئاً من التحريف .

وكانَ رِسْلَةُ مُوسَى قد أَطْلَقَ أَتَّبِاعَهَا عَلَيْهَا اسْمَ الْيَهُودِيَّةِ، كَمَا أَطْلَقَ أَتَّبِاعَ رسالَةِ عِيسَى عَلَيْهَا اسْمَ الْمُسِيْحِيَّةِ . أَمَّا الْيَهُودِيَّةُ فَقَدْ كَانَتْ دِينًا خَاصًا مَغْلُظًا عَلَى أَصْحَابِهِ . وَأَمَّا الْمُسِيْحِيَّةُ فَقَدْ انْطَلَقَتْ مِنْ مَوْطِنِهَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَمُهْرَبَتِ إِلَى أُورُوباِ وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَغْزِي عَالَمَ الْفَرْبِ وَتَرْتَبِطَ بِالدُّولَةِ الرُّومَانِيَّةِ (الْغَرْبِيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ) وَأَنْ تَصْبِحَ الْجَمَعَيْنِ بِصَبْغَتِهَا . وَتَقْيِيمَ إِطَارَأَ دِينِيَّ لِلْفَكَرِ اليونانيِّ

والقانون الروماني . وكانت الامبراطورية الرومانية قد أقامت خلال ألف عام تلك الدولة الواسعة الضخمة . وسيطرت على الشام ومصر والمغرب كلها . وفي الشرق كافت دولة الأكاسرة في فارس تقيم دولتها التي تدين بالمحوسية من بقايا دين زرادشت .

وقد كان الصراع العسكري والفكري بين الامبراطوريتين الرومانية والفارسية كبيراً . وقد اضطربت الحروب والمنافسات بين الدولة الوثنية في الشرق . والدولة ذات الطابع المسيحي في الغرب . أما الجزيرة العربية . فقد عاشت منظوية على نفسها . لا تتصل بها الأحداث إلا قليلاً ، حيث غمرتها وثنية غير عميقه الجنور ، وعايشت في إطارها من اعتنقا المسيحية واليهودية . بعد أن بعدها العهد برسالة ابراهيم وإسماعيل من خلال تاريخ طويل جداً منذ أكثر من ألفي عام حين مستتها رساله التوحيد وانطلقت فيها صيحة الحنيفة السمحاء حتى جاءت رساله محمد بن عبد الله بمحمده الدين ابراهيم . وخاتمة لكلمة السماء في الأرض .



التوحيد هو دعوة الدين الحق المنزل من لدن الله سبحانه وتعالى إلى جميع الأنبياء ورسله . وهو دعوة ابراهيم إلى الأنبياء . وأمامته إلى اسماعيل وإسحاق جدي المسلمين والنصارى واليهود أما اسماعيل فقد شارك أبوه ابراهيم في إقامة القواعد من البيت في مكة . وبها أقام ومن ذريته العرب العاربة . ومن نسله محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين . وأما اسحاق فهو جد بني اسرائيل .

وقد أشار القرآن إلى أبواه ابراهيم للعرب : « ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سالم المسلمين من قبل وفي هذا » (سورة الحج) .

كما سجل القرآن أبوة إبراهيم للأنبياء الذين جاءوا بعده : « ووَهَبْنَا لَهُ اسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا هَدِينَا وَنَوْحًا هَدِينَا مِنْ قَبْلِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاؤِدُ وَسَلِيَّانُ وَأَيُّوبُ وَيُوسُفُ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَحْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكْرِيَا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَالْيَاسُ كُلُّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلُ وَالْيَسُعُ وَيُونُسُ وَلَوْطًا وَكَلَّا فَضَلَّنَا عَلَى الْعَالَمِينَ » .

ومن هذا النص القرآني يتبين أن إبراهيم هو جدّ اليهود والمصارى وال المسلمين . وأن أنبياء الله الثلاثة يلتقيون في النسب . فهم من أرومة واحدة ، ويسعون إلى غاية واحدة . وأنهم جميعاً ومن آمن بهم الذين أورثوا هذه الأرض من بابل إلى كنعان إلى مصر إلى الحجاز . وليس هذا الملك قاصراً على شعب معين له امتياز خاص . وإن وعد الله لابراهيم قد تحقق بقيام رسالة الأنبياء ( من إبراهيم إلى محمد ) وتجمع المصادر الصحيحة ويفيدها مقدمتها القرآن إلى أن إبراهيم نشأ في أرض بابل ( بلدة أور الكلدانية ) بين نهري دجلة والفرات . حيث كانت الهياكل والتماثيل . وعبادة الأصنام والآلهة المتعددة . وأنه دعا قومه إلى التحرر من الوثنية والأساطير وعبادة الله الواحد . ثم لم يلبث أن تحرك في إطار الدعوة إلى حران حيث تزوج ابنة عممه سارة . ثم توجه إلى الشام التي كان يطلق عليها أرض كنعان . ثم نزح إلى مصر ، فتزوج هاجر الجارية ، ثم عاد إلى فلسطين . ومنها رزق بإسماعيل ، ولم يلبث أن هاجر بإسماعيل وزوجه هاجر إلى وادي مكة « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بَوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمَ . رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الشَّمْرَاتِ لِعِلْمِهِ يَشْكُرُونَ » .

ولم يقيم إبراهيم في مكة ، وإنما ظل يتردد عليها حتى كبر ابنيه اسماعيل ، فأقاما معًا قواعد البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا « إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقْبِلُ مِنَا » .

وهكذا جمع ابراهيم عليه السلام بين فرعين :

فرع اسحاق في الشام ، ومنه ابنه يعقوب الذي يلقب بإسرائيل ، وإليه ينتمي سائر أسباطبني إسرائيل ، وقد أنزل الله فيهم التوراة على موسى ، وكان منهم أنبياء كثيرون . وكان آخر أنبياءبني إسرائيل السيد المسيح عيسى ابن مريم ، وأخر الرسالات الموجهة إليهم هي دينه وكتابه الإنجيل .

وفرع اسماعيل في مكة حيث أقام مع أمه ، وأقام إلى جوارهم قوم من قبيلة جرم ، ويرجع نسب عرب الحجاز إلى ولدي اسماعيل: نابت ، وقيدار<sup>(١)</sup> وإنعاميل هو جد النبي محمد عليه السلام وهو الذبيح الذي قص القرآن قصته .

ويظهر الترابط واضحًا بين ابراهيم عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام في أن الإسلام هو تجديد دعوة ابراهيم الحنيفة السمحاء ، وأن محمدًا عليه الصلاة والسلام هو دعوة ابراهيم وبشارة عيسى ، "بنص" قول النبي . كما رواه أحمد في مسنده : أنا دعوة ابراهيم ، وبشارة عيسى . وقد أكد القرآن هذا الترابط بين أبي الأنبياء وخاتم الأنبياء فيما رواه عن دعوة ابراهيم ، وهو يقسم قواعد الكعبة « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعالمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» وقد وقع في هذه الحقائق تغيير كثير ، وخلاف كثير بين نصوص القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبين نصوص العهد القديم الذي ليس هو التوراة المنزلة بإجماع آراء الباحثين والمؤرخين من اليهود والغربيين أنفسهم .

وقد وقع الاختلاف في موقف ابراهيم عليه السلام بالذات ، وما يتصل بفرع اسماعيل كله ، وما يتصل برحلته إلى مكة ، وجود اسماعيل ، وبناء الكعبة ،

---

(١) البداية والنهاية جزء ١ ، وتاريخ الطبراني جزء ١ .

ويستهدف الاختلاف التركيز على فرع إسحاق وحده ، ومحاولة ربط وعد الله لذرية ابراهيم بالاستخلاف في الأرض بعنصر معين ، وإعلاء هذا العنصر وحده من دون ذرية ابراهيم في تحرير شديد ، وتجاوز خطير لوقائع التاريخ ، والنصوص الثابتة من رسالات السباء .

وهذا هو أخطر ما أصاب رسالة موسى بإقامة ديانة عنصرية ، زيفت الأصول الأصيلة المنزلة للدين ، والمرتبطة بمفهوم التوحيد الجامع المتصل بين الناس جميعاً ، والقائم على الإيمان بالله وحده ، وليس على تمييز جنس معين من الأمم ، والذي يقرر أن وراثة الأرض إنما تكون للمتقين . هذا التحرير اقتضى تغييراً كبيراً في مفهوم العقيدة ، فأقام الإله يهوه بدلاً من الله الواحد ، وزيف التوراة بالنسبة لإبراهيم وأبنائه وبالنسبة لميراث الانبياء من نسل إبراهيم ، كما أنكر الآخرة والبعث ، وعارض كل القيم الأساسية للدين فيما يتعلق بالعدل والإخاء ، وأحل كثيراً مما حرمت رسالة عيسى . كالربا ، والزنا ، وقتل النفس بغير الحق .

وقد أشار القرآن إلى أن الله أنزل إلى موسى التوراة فيها هدىٌ ونورٌ، وفيها عقيدة وشريعة ، وفيها البشرة بـ محمد ورسالته «**الذين يتبعون النبي الأمي**» الذي يجعلونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل » سورة الأعراف .

وقد انطوت التوراة على الاقرار بوحدانية الله ، والاعتراف باليوم الآخر ، وما فيه من حساب وثواب وعقاب . وكذلك أشار القرآن إلى أن التوراة المتداولة ليست هي التوراة المنزلة ، وأنه قد أصابها التحرير والتعديل .

وترتبط في مفهوم القرآن رسالات الانبياء إلى البشرية توصف بأنها رسالة واحدة . هي الإسلام ، وتتميز الحلقة الأخيرة فيها من إبراهيم إلى محمد بطابع خاص ، وتكامل واضح فقد ألقى على هذه الأرض العربية أمانة كبرى ،

وشكلت منهاجاً متميزاً يمكن أن يطلق عليه اسم «الحنيفية» التي هي العامل الجامع لكل ما عرف قبل الاسلام من خلق كريم وأريحية ومرودة وصفت حيناً بأنها العروبة ، ولنست هي في الحقيقة إلا عصارة دين التوحيد الذي جاء به كل الانبياء منذ ابراهيم الى محمد . والذى وصفه النبي ﷺ في قوله : « انا بعثت لأنتم مكارم الاخلاق » . فكان النبي بالإسلام تماماً لها ، وتحريراً لقيمها من الانحراف الذي طرأ عليها خلال العصور المختلفة .

ولا ريب أن أي مراجعة سريعة للوثنية العربية قبل بعثة خاتم الانبياء تكشف عن أنها كانت وثنية ساذجة ليست عميقه الجنور ، وأنها لم تكون كمشيلاتها من وثنيات اليونان والفرس والهند ، ذات فلسفة وطقوس عميقه ، وإنما كانت انحرافاً للدعوة التوحيد التي جاء بها ابراهيم واسعاعيل ، والتي ظلت ترفع لواءها على يد جميع الانبياء من أبنائه حق جاء القرآن : مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

( ٢ )

عجزت اليهودية بالصورة التي تحولت إليها عن أن تعطي البشرية هداها ، وقد توالى الأنبياء لتحريرها وتصحيحها خلال عصور طويلة ، حتى كانت رسالة السيد المسيح هي خاتم حلقات الرسالات الموجهة إلى بني إسرائيل .

واجه اليهود خلال ذلك التاريخ الطويل من موسى إلى عيسى أهواً وأحداثاً ضخاماً وأصاب عنصرهم تغيير كبير ، ودخلت اليهود دماء غريبة حق أصبحوا لا علاقة لهم بنسب إسحاق ، أو دين موسى . والحرفت اليهودية إلى المادية الطاغية ، وكان لاصفافهم بالأمم أثر كبير في تغيير أصول الدين ، فقد تأثر اليهود في المنفى في بابل بعد عام ٥٨٦ ق - م « بالتفكير البابلي القديم » وعلى الأخص في التخطيط لجوانب الدين اليهودي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية » وتحول الدين العربي إلى الدين اليهودي ، وأدخل السحر والتنجيم والأساطير الغربية في كتب العبادة ( الكتابالا ) فأصبحوا ينكرون كل ما هو روحي ومعنوي في الحياة ، وغلبت على مفاهيمهم روح الغلو والتتجدي والخيال .

ومن هنا فقد عجزت اليهودية لمعارضتها للقطرة أن تجد قبولها عند أحد من الأمم التي اتصلت بها ، وقد حاولت أن تثبت دعوتها في أوروبا وأسيا وحتى في إفريقيا . ولكنها وجدت رفضاً كاملاً لما حوتته مفاهيمها من أناانية

واستعلاء بالجنس، والخاذ إله الحرب والجنود لها إلهاً . وإنكار الحياة الآخرة، وتفضيل بنى إسرائيل على جميع الخلق ، وأن بينهم وبين الله عقداً مبرماً، وأن الله خلق لهم هذا الكون وخدمهم ، أما بقية الشعوب فهم لهم عبيد يضاف إلى ذلك اتجاههم الخطير إلى الربا . وإسرافهم في السيطرة على الشعوب بمال ، وتحويل مختلف مناهج الحياة لتكون في خدمة هذا الهدف ومن هنا عجزت اليهودية أن تعطي البشرية شيئاً يدفعها في طريق الحق والإيمان، وإن أعطتها تلك المفاهيم القائمة على الأساطير والخرافات والسحر ، والتي هي تراثها المتصل على الأجيال .

ومن خلال هذه المفاهيم العنصرية التي عارضت اتجاه الحنيفة الذي جاءت به رسالة إبراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء ، لم تستطع اليهودية أن تستقر في مكان أو تقىي حضارة ، فقد أصابها الاضطهاد في حملات متواتلة ، حيث غزاهم بختنصر (٥٨٨) ق.م ودمروهم تدميراً، وساق أهلها أسارى إلى بابل . حيث أقاموا في الأسر زهاء خمسين سنة ، وغزاها سرجون ملك آشور (٣٢٢) ق.م وتغلب عليهم وطردهم من سوريا ، وجاء الرومان بقيادة تييطس (٧٠ م) فأحرق معبدتهم وأقام هيكلاً وثنياً بديلاً عنده إلى أن سيطرت المسيحية بعد ذلك .

وكان إحرق معبد اليهود على يد تييطس وتدمره تحقيقاً لنبوة السيد المسيح ، ومنذ ذلك بهم الرومان ، لم تقم لهم من بعد قائمة .

ولقد ظهر عدد من الأنبياء في بنى إسرائيل من بعد موسى ، وكان آخر أنبياء بنى إسرائيل : المسيح عيسى بن مریم .

وقد حاول هؤلاء الأنبياء جاهدين تخلص اليهودية من المخrafها وإعادتها إلى سيرتها الأولى ، وفق مفاهيم التوراة المزللة على موسى ، وكان من أبرز أنبيائهم : داود وسلمىان .

ولكن أنبياء الله عجزوا عن تحريرهم من الانحراف ، كما لم تلن هذه الحالات الضخامة قلوبهم حق جاء السيد المسيح يحمل آخر رسالات السماء إليهم.

وقد أكد جوستاف لوبيون في كتابه عن ( اليهود والحضارات الأولى ) أن اليهود لم يكن لهم علوم أو فنون ، ولا حق لهم في الأرض التي يحتلونها . فقد كانوا غرباء عن هذه الأرض وقد كانت تقاليدهم وعاداتهم ودياناتهم مستعارة ومقتبسة ومسروقة من الدول المجاورة وكانوا إلى ذلك وحشة قساة . وقد انعكس ذلك على توراتهم حيث تجد فيها جميع أنواع الوحشية والبدائية : وفي سفر يشوع مثال لهم : [ أهللوكوا جميع ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى الغنم والحمير بحد السيف ، وأحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار ] بينما نجد العرب كانوا ينفذون وصيحة أبي بكر : لا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة . ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه .

وقد راجع كثير من الباحثين تلك الانحرافات التي جعلتها اليهودية أساساً لها وكشفوا عن زيفها : ( يقول الكتابان الفرنسيان جاك دومال وماري لوروا ) بشأن وعد الرب لبني إسرائيل وحدهم بالأرض الموعودة ما يأتي : أنها لو صحت فإن هذا الموعود ينصب إذن على ابن إبراهيم إلى العرب .

وقد وقف الباحثون في مجال علم الأجناس . فسفروا أسطورة الشعب المختار . وكشفوا عن هزاها وزييفها في مقاييس العلم ، وقالوا إن الشعب الذي ورد ذكره في التوراة على أنه شعب الله المختار لا يمثل الشعب اليهودي ، لا من قريب ولا من بعيد ، وإن وقائع التوراة من سفر الخروج ومروراً بالزماء والنبوات توكل ذلك ، فالشعب الذي خرج على أنبيائه وكذبهم وتمرد على إلهه ، وجعل من ذلك الإله إنساناً يحارب دونه ويكون له ترساً ومحاجناً غير خليق أن يكون الشعب المختار .



## الفصل الثاني

### المحوسيّة

وبينما كانت اليهودية تضطرب، كانت المحوسيّة والبوديّة والبرهنيّة في الشرق، وهي ليست من أديان السوء تذهب بعيداً في الخضوع لتراث الوثنية القديم القائم على التعدد والسحر والأساطير والتنجيم والأرقام وعبادة ظواهر الطبيعة، وفي الامبراطورية الفارسية المواجهة للامبراطورية الرومانية. كان يقوم بعد ذلك المجتمع الحافل بالتناقضات القائم على عديد من مذاهب عبادة الشمس والنار والماء، فالشمس هي الإله الأعلى يربون له الخلق ويقدمون القرابين، والمحافظة على الماء من النجاسة، «فالفرس يقدسون الماء قبل كل شيء إلى حد أنهم لا يغسلون به وجوههم، ولا يامسونه إلا أن يكون ذلك للشرب أو ري الزرع»<sup>(١)</sup>.

أما مكانة النار فهي شيء لا حد له، فهي النار المقدسة التي أقيمت لها

---

(١) ايران في عهد الساسانيين : أرثر كريستنس .

المعابد في كل مكان حيث توقد فيها النار ، وتقدم الخدمة المقدسة في الهيكل الذي فيه النار المقدسة ، ولبيوت النار أبواب وعدة أبواء من ثمانية أركان<sup>(١)</sup> .

وفي مفهوم المحسوسية : في المزدية دين الأزديين القديم ، أو في الزردشية المتتجددة من المزدية تقوم على عبادة قوى الطبيعة والعناصر والاجرام السماوية . وقد أضيف إلى آلهة الطبيعة آلة أخرى تمثل قوى أخلاقية وآراء معنوية بجسمة .

وهناك إله الخير وإله الشر ، وبينها صراع وتنافس « فهي دين ازدواج تسلم بوجود إلهين ، وبوجود خير وشر ، وطهارة ونجاسة ، والإلهان في تنافس مع بعضها ، والعناصر ينافق بعضها البعض : « مزدا له الحكم » ويرمز إليه بالشمس . أما الإله اهريان غريه فهو أمير الظلام وموجه الشر<sup>(٢)</sup> » .

« ولما بين الفريقين من الآلهة من تفاوت نمت فكرة الصراع بين الروحين اللذين وجداً منذ خلق العالم الا وهما روح الخير ، وروح الشر ، وهناك ستة آلهة من بين مساعدي مزدا<sup>(٣)</sup> » .

وهناك عبادة ميترا وهي مختلفة عن المزدية ، ومتأثرة كثيراً بعلم النجوم الكلداني الذي ترعرع عند مجوس آسيا الصغرى . وقد حرمت هذه العناصر تلويث العناصر بالدفن وحرق الميت ، هذا من ناحية العقيدة : أما من ناحية نظام المجتمع فهم يبيحون التزوج من أمهاتهم وأخواتهم .

وهناك نظام العبودية وروح القبيلة والهوة التي تفصل بين الطبقات ،

---

(١) نفس المصدر .

(٢) المقائد - عمر عزيت .

(٣) اثر كريستنس : ايران في عهد الساسانيين .

فالقوى يظلمون الضعيف ، وهم يرتكبون كثيراً من القسوة والوحشية فيما بينهم بالإضافة إلى تسلط القواد والحكام .

وقد وصفهم المؤرخون بأنهم « قساة عتاة ، متكبرون بغاية ، يشنون الهوى بخبطي متحيز ، يدعون لأنفسهم حق الموت والحياة على عبيدهم » هذا بالإضافة إلى ترف الولائم ، وإطالة ساعات اللهو ، وقضاء الليالي الطوال في قرع الكؤوس والرقص الفاجر ، هذا بالإضافة إلى الصيد واللذات<sup>(١)</sup> .

وأبرز مظاهر المجتمع الفارسي قبل الإسلام : النظام العبودي ، حيث تقف طبقة الفلاحين والصناع موقف الاحتقار ، وتقوم الاسترقاطية الاقطاعية مقصورة على أفراد الأسر السبع العظيمة وحيث يورث الأشراف وتورث العبودية .

وقد تطورت المجوسية بعد زرادشت مرتين : بظهور ماني ٢١٦ بعد الميلاد . ومزدك ٤٨٧ بعد الميلاد أيضاً . أما المانوية فقد خلطت بين الزرادشتية والنظرية في مذهب جديد ، وتدعى المانوية إلى ترك العمل والزهد والرغبة في ملاذ الحياة ، واستبعجال الفناء . أما المزدكية فقد احلت النساء والأموال ، وجعلت الناس شركاء فيها . وأخطر ما في عقائد الفرس أنهم « ينظرون إلى ملوكهم ، وكأنهم آلهة اصطفاهم الله للحكم بين الناس » وليس للناس منهم حقوق<sup>(٢)</sup> ، ويروي (برون) مؤرخ الأدب الفارسي : أن نظرية الحق الإلهي لم تعتنق بقوة كما اعتنقت في فارس في عهد الملوك الساسانيين . فقد كان الأكاسرة

---

(١) ص ٤٩٠ نفس المصدر .

(٢) فجر الإسلام .

يزعمون أن لهم الحق وحدهم. أن يلبسوا قاج الملك بما يحرري في عروقهم من دم إلهي . وقد حطم الإسلام حين أقبل نظرية الحق الإلهي ، وحطّم نظرية العبودية ، وأطfa بيوت النار ودمّر الدولة الساسانية ، وأزاحها من الوجود .

وقد كان لاكتساح الاسكندر الأكبر فارس عام ٣٣١ قبل الميلاد أبعد الأثر في ذلك التزاوج الذي وقع بين الزرادشتية والفلسفة الإغريقية .

وكان لإقامة اليهود في بابل والجزيره بعد أن طردتهم بخنثه أثره البعيد في استشراء علوم التنجيم والسحر والأساطير ، وفي هذه الفترة بدأ اليهود في جمع أحاديثهم وتعاليمهم تحت اسم التلمود .

وقد أشار المؤرخون إلى ذلك التزاوج الذي حدث بين الفلسفة الإغريقية والأديان الشرقية حيث التقت آلهة البابلية والإغريق ، وببدأ طابع إغريقي للزرادشتية ، وأقيمت في الشرق تماثيل للآلهة زيوس وأبولون ومترًا وهرمس ، وفي نفس الوقت أضيف إلى الفلسفة اليونانية عديد من النظريات حول الكيمياء والسحر ، وامتزجت الأساطير الإغريقية والبابلية والإيرانية ، واختفت الصور الأسطورية الشرقية تحت أسماء آلهة يونانية <sup>(١)</sup> .

---

(١) أثر كريستنس : ايران في هند الساسانية .

## الفصل الثالث

### البرهنية والبوذية

فإذا ذهبنا نلقي نظرة إلى الشرق وجدنا البرهنية والبوذية والجينية قائمة في ذلك المنظور المتصل بين الهند وشرق آسيا ، فإذا نجد :

نجد صورة عجيبة مضطربة من الاعتقادات القائمة على تبادل الأرواح ، ووحدة الوجود والتثليث والتجسد ، نجد البرهنية قد يهتم بها اليهودية كتبها تعاليمها (الفيدا) قبل المسيح بنحو ألف وخمسمائة سنة ، ونجد البوذية قد ظهرت في الهند بمقدمة للبرهنية ، فإذا بها تنتشر في سيلان وتصل إلى الصين وبورما ، وقد زالت تماماً من الهند .

أما البرهنية : فتقول بثالوث الهندو (برها ، فشنو ، سيفا) ويعتقد معتنقوها بالتبادل الذي لا تظهر النفس من آلامها إلا به ، ومن شعارهم الانتحار أي قتل النفس . والخلاف بين البرهنية والبوذية أن الأولى تقوم على اختلاف الطبقات ، وللكهان فيها من الامتيازات ما يعلو بهم عن مرتبة البشر . فجماعات البوذية كاسرة لهذا القيد .

يقول العلامة أبو الحسن الندوبي : « أما البرهمية فقد انحرفت أخراً فـ شديدةً عن جادتها الأولى ، وفقدت بساطتها والاتصال الروحي المباشر بفاطر الكون ، وفقدت قوتها الخلقية ، وتعقدت تعقيداً أفقدها على مر الأيام التوحيد الخالص في العقيدة والعدل في الاجتماع وما الدعامتان اللتان يقوم عليهما بناء ديانة في الباطن وفي واقع الحياة ». وبقيت الديانة البرهمية تفقد قوتها ونفوذها ، وبقي التذمر منها وعدم الثقة بها يزداد ويقوى على مر الأيام ، وتجسم هذا التذمر وهذا القلق المتفشي في المجتمع الهندي والمتأس العوض عن الديانة الهرمة في شخص (بودا) ولم يكن ذلك الا في القرن السادس قبل الميلاد . ظهر بودا بفكرة جديدة أو ديانة جديدة تقوم على تجريد النفس وتهذيبها ، وقع الشهوات والاعطف والمساوة والهج بالعمل ، وعلى رفض التقليد ، والطقوس ، والتفاوت الطبيعي الذي أصيب به المجتمع الهندي في العهد الأخير ، وانتشرت هذه الفكرة أو الديانة بسرعة ، وشملت الجزء الجنوبي والشرقي من آسيا .

والبوذية ليست ديانة بالمعنى الحرفي لأنها لا تحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون وعن المبدأ والمعاد . ولكن مالمثل هذه الحركة الدينية العمظيمة أن انحرفت وهجمت عليها الأوثان والتآليل والطقوس التي حاربتها البوذية وثارت عليها حق أصبحت في الزمن القصير ديانة وثنية ، لا تمتاز عن الديانة البرهمية إلا بأسماء الأوثان والتآليل وعددتها ، وأصبحت بالانحطاط في الأخلاق والتعدد في الأخطار والكثرة في المذاهب والفرق .

يقول : ابشرورا توبا : لقد قامت في البوذية دولة تعنى بظاهرة الآلهة وعبادة التآليل وتغير محيط الرباطات الأخوية البوذية ، وظهرت فيها البدع . وتقول (رياس ريفدس ) المؤلفة الاوروبية « لقد أظللت الأفكار العلمية تعلم بودا الخلقي حق توارى وراء هذه التخييلات السقئية – لقد نشأ مذهب جديد في الديانة ، وازدهر وملك على الناس القلوب . ثم اضمحل ، وخلفه مذهب

آخر وهم جَرَأْ . حق تراكمت هذه الأوهام الخلابة ، وحجبت الجو ، وساد الظلم . وقد اضمرت دروس مؤسس الدينية غالباً البساطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات » ولم يظهر في العالم البوذى الواسع ، وفي المدة الطويلة التي حكمت فيها البوذية وسادت ، مصلح كبير ينتصر للبوذية الأصلية ، ويحارب البوذية الدخيلة بكل قوته وقدرته ، ويحدد لهذه الدينية العظيمة شبابها الأول ، وبساطتها الصائمة ونقاءها المفقود « .

وهكذا بقيت الدينية البرهنية منكسرة أمام البوذية التي تغلبت عليها حق جاء ( شنكر أجاري ) في القرن المسيحي ، وقام بنشر اخط عظيم في محاربة البوذية ، ونشر البرهنية حق تمكن من إجلاء الدينية البوذية عن الهند وتضييق دائرةها ، وإضعاف سلطانها ، حق ضفت جداً وبقيت ديانة من الديانات الهندية القديمة الدارسة . استطاع شنكر أن يقصي البوذية عن الحياة ولكن لم يستطع ، ولعل الأصح أنه لم يرد أن يعيد البرهنية إلى وضعها الأول ، ويعيد عقيدة التوحيد والاتصال المباشر بفاطر الكون ، ورفض الوسائل بين العبد وربه والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات .

( ٣ )

وقد صنعت الهندوسية المتجددة من بعد في البرهمية مجتمعًا عجيباً ، يقوم على مفاهيم « الزهادة المفرطة بالصوم ، وأرق الليل وتعديل النفس » حيث « يعيش الإنسان أسير الحرمان ؛ يحمل نفسه ألواناً من البلاء . ويتجنب كثيراً من متع الحياة » فإذا ارتفع به السن أقام في الغابات لا يقص شعره ، ولا يقلم أظافره<sup>(١)</sup> ويجلس تحت الشمس الحرقـة .

وفي محل حياته يقدس البقرة ، ويخضع للنظام الطبقي وسيادة البراهمة ، فالطبقات في الهندوسية ركن أساسى من أركان العقيدة . فالبراهما سادة ، والباقي عبيد ، ولا يصح لطبقات العبيد ان تترقى ليصبح احد فيها برهيمياً ، ذلك « أن الطبقة مصدرها العرق وسعيادة الجنس أكثر من أي شيء آخر » بل ان البرهمية لم تقنع بأن تضع الجنس والعنصر ركيزة في نظام الطبقات بل أمدته بالنصوص المقدسة التي تقول بأن الله قد خلق الطبقات على هذا الوضع « ومن ثم يصبح هذا التقسيم أبداً لا سبيل الى إزالته ولا سبيل لأن يرتفع أي شخص من أي قسم الى قسم أعلى<sup>(٢)</sup> .

والبرهـي في الفقه الهندوسـي اذا ولـد وضع في الصـف الأول من صـفـوف

(١) برسور ازرا : ثقافة الهند وحياتها الروحـية .

(٢) دكتور احمد شلبي : اديان الهند الكـبرـى .

الدنيا<sup>(١)</sup> وكل ما في العالم ملك البرهني ، وللبرهني حق في كل موجود ، وللبرهني اذا افتقر أن يملأ مال الشورى الذي هو عبد له من غير ان يجازى على ما فعل ، فالعبد وما يملك لسيده ولا يدنس البرهني بذنب ولو قتل ، ولا يحبى خراج من برهمي . كذلك لا يجوز للشورى أن يجمع ثروات زائدة ، ويحيب أن يبقى ابن الطبقة الدنيا ، وتقطع يده اذا علا من هو أعلى منه ، وهي مفاهيم شبيهة بما تقول به اليهودية التلمودية من إعلاء شعب الله المختار . وقد حطم الاسلام حين جاء نظام الطبقات هذا وكان عاملاً من عوامل تغييره في البيئات التي بقي فيها ، وتنكر الهندوسية وربيتها البرهنية : أي ضوء لسعادة أو خير في الحياة الدنيا ، وواجه الحياة في تشاؤم وقلق واحتقار كامل ، يقول الكتاب المقدس ( يوجا واستسها ) : السعادة لا سبيل لها في هذا العالم ومسرات الحياة ليست إلا خداعاً وأوهاماً ، لا خير في الجسد لأنه محل العاهات ، ولا قيمة للأفراح والثروة والجاه والمال .

وقد جاءت البرهنية منبعثة من الهندوسية في القرن الثامن<sup>(٢)</sup> قبل الميلاد ، وفي نفس إطارها القديم جامعة لعوائد الهند القديمة وعباداتها ، وفي مقدمتها : عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة وعبادة قوى الطبيعة ، وعبادة عضو التلقيع معتقدين أنه سبب الخلق ، ومن الظواهر المقدسة التي يعبدوها الهندوس ، إله السماء وإله الرعد وإله النار وإله المواصف وإله المطر وإله الرياح .

وتحظى البقرة في الهندوسية والبرهنية بأسمى مكانة « وهي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها على كرّ السنين وت pariالقرون » والتي توصف بأنها أم للإنسان .

(١) نفس المصدر .

(٢) شلي : اديان الهند الكبرى .

وأهم عقائد البراهيمية نظام الطبقات : تناصح الأرواح والتجسد والتثليث ووحدة الوجود . أما التناصح فيقوم على أساس مجيء النفس الواحدة إلى الحياة مرات متعددة حتى تتاح لها الفرصة للتهذيب . أما التجسد فهو إنسكار وجود الله والآخرة لأنها غير محسوسين .

والمعلوم أن البراهمة هم الذين وضعوا نظام الطبقات<sup>(١)</sup> وخصوصا أنفسهم بكثير من الامتيازات وفي ظل هذا النظام استبد البراهمة ، وظهر عسفهم وطغيانهم ، وضياع الناس من استبداد البراهمة وجورهم . ومن ثم ظهرت دعوات تحفظ من قيود البراهيمية الهندوسية : وكان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد ، منها الجينية والبودية ، وإن كانتا تدوران في فلك الهندوسية ولا تخربان عنها .

أما الجينية فهي طريقة لتعديب النفس ( وقد انتقلت إلى المسيحية من بعد ) ويعتبر الانتحار في الجينية غاية كبيرة لا تباح إلا لخاصة الرهبان . والانتحار « معناه قطع الاعمال التي هي مظنة إلحاد الفرق بأي كائن ذي روح » والحياة في نظر الجينية « تعasse مستمرة وشقاء متصل فظلهما زائل والعيش فيها باطل » .

---

(١) نفس المصدر .

(٣)

أما البوذية فقد قامت على تحرير النفس وتهذيبها وقمع الشهوات ، ولكنها سرعان ما انحرفت ودخلتها الوثنية والطقوس والتماثيل .

والبوذية نحلة أخلاقية لا تحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون ، ولكنها تحمل طابع الرهد ورفض متع الحياة ، وغاية الحياة فيها ما يسمونه الزفانا ، وهي الغاية التي ينتهي إليها الإنسان بعد خلاصه من كل ألم . وفوزه بالنجاة الحقيقية<sup>١١</sup> وتنكر البوذية النفس إنكاراً تاماً كاً تنكر كل ما وراء الطبيعة .

ولكن البوذية لم تثبت أن تحولت في القرن الأول بعد المسيح . وأخذت شكلاً جديداً « فقد تحول<sup>١٢</sup> بودا نفسه في المذهب الجديد إلى إله خفي ذي أسرار عجيبة . منها أن الإله تجسد لينقذ البشرية بأن يحمل عنها عباء خطايها القديمة ، ويحول بينها وبين ارتكاب أخرى جديدة .

وأصبح بودا نتيجة لهذا رمزاً للإله المنقذ الذي جعل يحيى إلى هذا العالم الأرضي من حين إلى آخر متقمصاً جسداً من بني الإنسان لينقذ البشرية في

---

(١) غلاب : الفلسفة الشرقية .

(٢) غلاب : الفلسفة الشرقية .

شخصه الذي يسمى في كل مرة بودا » وتصل البوذية الى أعلى درجات الاعيان الى مرحلة الزفانا ، والزفانا كلمة غامضة معناها ( الإحماء والسكون والانعدام والانتعاش والراحة ) والمقصود الروحي منها أنها حال من فقدان الشعور تتخلص النفس في أثنائه من الاحساس بالألم الذي يسببه لها اتصالها بالأجسام .

ويقول الدكتور شلي : ان أبرز مفاهيم البوذية : الزفانا . وهي تعني وصول الفرد بقتل الشهوات والرغبات الى أعلى درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه ، والقضاء على جميع رغباته .

## ( ٤ )

وتكشف ديانات الهند ، وفي مقدمتها الهندو كية عن ظلم كبير للنفس الإنسانية في علاقتها بالحياة ، وفي علاقتها بالمجتمع من حيث الانحراف عن مفهوم الدين الحق . فهذه السلبية الخطيرة في مجال الحياة والعزلة عن الحياة ، والزهد ، والحرمان الذي يدعوا إلى الصـوم الدائم ، والجلوس تحت الشمس الحرقـة ، وبجفافـة سائر الرغائب واللذـات ، ومحاربة الملاـذ ، وتمـذيب النفس . كل هذا بـعيد الأثر في بناء المجتمع ، وإقـامة عمران الكـون على النـحو الـذي كـلفت الـاديـان به الـانـسان وحملـته أـمـانـته .

ومن النـاحـية الـاخـرى تـرى ذـلك الإـذـالـل البـشـع والـعبـودـيـة الشـدـيدة ، حيث نـرى طـبـقة العـبـيد ، وهـي غالـبيـة المجتمع تـعمل في خـدـمة الـبرـاهـيمـيـة السـادـة ، حيث لاـ أـمـل لهاـ في انـ تـصـبـح يومـاً مـوضـع كـرـامـة او سـيـادة « لـيس لـفرد أـهمـيـة تـذـكـر فيـ الـهـنـدـوـكـيـة ، ويـكـاد يـكـون كـما مـهـمـلاـ(١) » باـضـافـة إـلى حـرـمانـ الزـوـجـة منـ الزـوـاج اذاـ مـات زـوـجـها ، وحرـقـ جـثـانـ الـبـيـت ، والتـسـامـح الـذـي يـصـلـ إلىـ الرـضاـ بالـضـيمـ والـذـلة . باـضـافـة إـلىـ الـخـرـافـاتـ والـسـعـرـ والـاسـاطـيرـ . وتقـديـمـ الـقـرـابـينـ لـلـأـلهـةـ ، ماـ وـاجـهـ الـاسـلامـ عـهـدـ ظـهـورـهـ وـحرـرـ منهـ الـمـلـاـيـنـ .

---

(١) أـديـانـ الـهـنـدـ الـكـبـدـىـ .



## الفصل الرابع

### الميلينية

خير صورة يتمثل فيها المجتمع اليوناني الميليني الى ان اجتاحتة الامبراطورية الرومانية (146 ق.م) وهو ما يرسم افلاطون في جمهوريته : مشاعية النساء - وسيادة النساء على العبيد . وإقرار المجتمع العبودي القائم على الرق . وإقرار سيادة الطبقة . والدعوة الحارة الى الاباحة . حيث يدعوا البنات والبنين ان يتخففوا من ملابسهم . ويحثب ألا يشعروا بالخجل الساذج والساخرية حين يرون الجسم البشري عارياً في مجتمع يعبد الاجساد ، ويقيم تماثيل الآلهة عارية ضخمة من الرخام الناصع البياض في الميادين . ثم هو يترضى هذه الآلهة بالخمر والرقص .

ومن رأي افلاطون ان يخلو المجتمع من الزواج الفردي والاسر الخاصة . ويحث ألا يعرف الآباء ابناءهم ، ولا الابناء آباءهم . وعلى المرضى والضعفاء ان يتاح لهم سبيل الموت .

ولقد حرم افلاطون . وأكده ارسطو من بعده على الرقيق حقوق المواطننة

والمساواة . وأن العبد منها وصل الى مركز السيادة فهو العبد ، ومها وصل السيد الى موضع الضعف فهو سيد . فالسادة هم السادة ، طائفة مختارة من الناس يتصاہرون فيها بینهم ، ويبلدون ابطالهم ليكونوا سادة من بعدهم ، ولم يكن ذلك هو حلم افلاطون ، وإنما كان هو واقع المجتمع اليوناني الهليني نفسه ، المحافظة على سيادة الجنس المختار وسلامته ، وحق السيد في استغلال العبيد .

وكان اليونانيون يحملون من العري شيئاً مثالياً ، ولازماً للجهاز ، ولذلك فانهم عرموا أبطالهم وعظماءهم وآلهتهم . وهناك أيضاً تأثير الرقص والموسيقى ، فقد كان الأغريقيون يعدون الرقص من إلهياتهم الكبرى . وكانوا يرقصون رجالاً ونساءً في مجتمعاتهم العامة والخاصة . والمثل الأعلى - عندهم - هو تمجيد الجسم وإعلاء شأن صاحبه الإنسان .

وقد انتشرت فيهم عادة تقديس الابطال ، فكانت كل مدينة ترفع بطلها الخاص . حتى تخلق منه إلهًا أو نصف إله ، وتقيم له الاعياد الدينية التي تحوطها القدسية . وتروي القصص التي تجسم المفاخر وتشكلها في طقوس وتحوطها بشيء غير قليل من الاسرار الخفية والمسايمي الفاجعة ويقرر الباحثون ان الكهانة ظاهرة غربية لا شرقية وانها تعد منهن مقدسة . إلا في عهود الوثنية اليونانية . فقد كانت لها معابد ، وكان لمعابدها سدنة وامناء ، وكان المصير لكل معضلة فردية او قومية رهيناً برأي الصوت المتنكر في زوايا الظلم المنصور فوق معابد اليونان<sup>(١)</sup> .

وصورة المجتمع الهليني الاغريقي كله واضحة في القصة الاغريقية : حق يقول مفید الشواباشي ان الشر في تلك الملائم شر محض لا تلطف حدته

---

(١) ذكي مبارك - الرسالة سنة ١٩٤٢ .

خلجية من خلجان الخير ، وحرب طرواده الضروس التي طالت عشر سنوات ، اشتعلت نارها دون مبرر معقول . لقد أصبحت كلمة زعماء الاغريق بمقد تفرق على شنّ تلك الحرب الشعواء ، لأن هلينة زوجة منيلاس ، وهو من سادة القوم عشقت باريس أمير طرواده ، وهربت معه إلى بلده دون أن تحفظ لزوجها عهداً . وهكذا دارت الحرب المدمرة في سبيل امرأة غادرت لا تستحق غير الازدراء والاهانة . واختلطت الشعوب ببعيرها دون أن يكون لها فيها مصلحة ، او يحفز إليها حافز .

والمرأة الاغريقية تتصرف بالغدر في اغلب مأسى الاغريق وتستسلم للرذيلة دون اية مقاومة ، وترتکب ابغض الجرائم مدفوعة بأخطر النزوات .

وهناك قصة الكثرا التي تبعث فيها ( كليتمنسيرا ) بقدسية الروابط الزوجية وتتخذ لها عشيقاً في غيبة زوجها ( اخرين ) الذي رحل على رأس الجيوش الاغريقية ليغزو ( طرواده ) ويلتقى من اميرها . ولم تكتف ( كليتمنسيرا ) بارتكاب هذه المعصية ، ولكنها أقدمت على جريمة اشد ذكرأً مدفوعة بشهوتها البهيمية ، فقتلت زوجها البطل غدرأً بالاشراك مع عشيقها ( ايحست ) وهكذا تصور القصة الاغريقية « حياة شعب طمس المعتقدات الوثنية عقله » ، وحيثبت عنده الحقائق الواقعية ، وأضعفت فيه العواطف الانسانية النبيلة واستثارت فيه الفلؤة والميل إلى الشر ، وله العذر في ذلك فألة الاغريق على الالغالب قاسية تمثل إلى الانتقام . فإذا عن لها أن تنصف مظلوماً أو ترحم ملوفاً اشترطت في ذلك شروطاً تجبره رحمتها وإنصافها من أي سمة انسانية ، وتحول دون تحقيق الغاية وهي لا تنكل بعبادها فحسب ، ولكن بعضها ينكمل ببعض ويفتئ به . وليس المقادير الرهيبة التي يقع الناس في حبائلها ، ولا يستطيعون منها فكاكاً الا من تدبirs هذه الآلة . وقد قيل ان الوثنين الاغريق فطروا على صورة آلهتهم ، او على

الاصح انهم ابتدعوا آلهتهم على صورتهم<sup>(١)</sup>.

ومن هنا فقد كانت اخلاق اليونان اخلاق سعادة : مطلبهم الاسمي هو السعادة الحسية فهي الغاية القصوى للحياة . وأرسطو يحدد للفرد فرديته وحرفيته لا يجعلها من حق الناس جميعاً بل يقتصرها على السادة ، فالسادة وحدهم هم الذين لا يجوز استرقاقهم لأنهم جمعوا بين الروح الفالية والشجاعة ، وعنه ان للأعلى ان يبسط نفوذه على الأدنى كا ان على الأدنى ان يخضع للأعلى ويطيعه ، وعنه ان الحر حر رغم ما ينزل به من عسف وعبودية ، والعبد عبد رغم ما يتحققه من نصر .

أما افلاطون فإنه يجرد الفرد من قيمته الفردية ليجعله أداة سخرة لخدمة الدولة ويصهر كيانه في جهازها العظيم .

ومن أخطاء فلاسفة اليونان قولهن ان المادة أزلية ، وان الله يحيط بالكليات وحدتها قولهن بالدهرية وقدم العالم ، ووقفوا عن المنطق القياسي ، ولم يتتجاوزوه . فقد كان المنطق القياسي مثلاً لمجتمع تقف فيه السادة في القمة يفكرون ويتأملون ، ويقف فيه الناس جميعاً في مجال العبودية يقومون بالخدمة دون ان يطمعوا يوماً في الانتقال الى السعادة .

---

(١) مفيد الشواباشي - رحلة الادب العربي الى اوربا .

## ( ٢ )

وكان دين الاغريق<sup>(١)</sup> ديناً طبيعياً يقول ببعض الألهة فكان كل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ويتولى أمرها (زيوس) كبير الآلهة . ويتمثل الرعد والبرق (ديتيير) : يمثل الأرض والخصوبة (افروديث) الجمال (ابولو) الشمس (نبتون) البحر .

وكان شعب اليونان يعبد إلهه مثله تماماً : أي بشرأً يجوز عليه ما يجوز على البشر فيقتصر زوجة آخر ، ويتصف بالأخلاق الشريرة ، ويكون شرها طباعاً جباناً محباً للانتقام .

وكان مجتمع اليونان ذلك المجتمع الوثني القائم على الخوف من مظاهر الطبيعة : فقد كان التوتونيون القدماء يرون في الشتاء قوة تسعى حثيثاً للقضاء على الإنسان ، وكان الشتاء وليله الطويل ملعاً بالأرواح الشريرة المخيفة الخارجة من المقاور في قلب الأرض ، ومن أعماق البحار المائحة تفتش عن فريسة بشرية . فكأن الأعياد ترضية هذه الأرواح الشريرة .

يقول أنيس فريحة<sup>(٢)</sup> : كان اليونان ينظرون إلى آلهتهم نظرتهم إلى البشر ، فهم يتصرفون تصرف البشر ، كانوا يحيون ويقتلون ويسرقون ويخطفون

(١) دكتور محمد عبد الحليم كراره - المعتقدات اليونانية .

(٢) مجلة الأبحاث ١٩٥٣ .

نساء بعضهم بعضاً . وبعبارة اخرى كانت آلهة اليونان أناساً ولكنهم جبابرة ذوي بأس متصفون بكل ما هو جميل ، وبكل ما هو بشع ذميم . لذلك لم يستول على خاصة الاغريق خوف ولا جحود أمام هذه الآلهة . لم يشعر اليوناني أمام ربه انه عبد ذليل بمحاجة الى الرحمة والشفقة ، بل ظل سيد نفسه متغطرساً موقناً انه سيد الارض ، وان الحياة توهب له .

« فالاغريقي قدس الجسد وجماله ، وكان انصرافه في الدرجة الاولى الى الحياة الدنيا ، والى ما يقول الى ابهاجها واغنائها ، فكان عنده الغناء والرقص والشعر والتمثيل والتصوير والنحت » . وقد أحصت كتب التاريخ فصولاً كثيرة عن فساد اخلاق اليونانيين وتهتكهم في الخلاعة والفسق ، وانغماسهم في الترف والملاذ ، وفساد اخلاقهم الشخصية .

ولقد جرى الحديث كثيراً عن الديقراطية اليونانية ، ولكن هذه الديقراطية كانت للأسيد ، أما العبيد فلم يكن لهم أي حق في الحياة قبل الاسلام .

### ( ٣ )

والعقائد الدينية في بيئة اليونان مضطربة متعارضة يقوم بعضها على مفهوم الرواقين وان كل ما في الكون من معبودات وخلوقات ، إنما وجد بعلة واحدة ، هو اتحاد الجوادر الفردة ، وان ليس لهذا الكون إله يدير اموره ، وان العالم كله من عمل الصدفة ، وان الانسان وجد اتفاقاً ، وان التواميس الطبيعية والاديان ليست من عند الله ، وانكار الخلوذ او الوجود بعد الموت .

يقول أنيس فريج : ان الديانات كلها كانت تدور حول عبادة الآلهة . وان من هراسيم العبادة اقامة وليمة مقدسة يذبحون فيها حيواناً يشتهر كون بأكل لحمه . وفي القديم يشرب دمه رمزاً لاتحادهم بالإله . وكان يرافق اعيادهم نوع من الزواج المقدس ، او البغاء المقدس الذي يبدو لنا انه اباحية وعربدة يشمئز ذوقنا منها .

هذه العلاقات الجنسية بين كاهن وكاهنة ، او بين رجل القبيلة ونسائها في اوقات معينة ، او في احوال خاصة يحب ان تفسر بأنها رموز سحرية لها علاقة بالخصب والانتاج .

ومن آلهتهم ديونيوس : إله الخمر ، وتصوره الاسطورة ، وهو يحوب العالم المتمدن ليعلمهم تربية الكرمة - وشرب الخمرة - أما عبادته فكانت تقوم حوله هوثة وتزييق جسده الى اشلاء ، ثم قيامته من الموت .

والوثنية اليونانية - كما يقول زكي مبارك - تقوم على عبادة المرح والبهجة والإيسان فأهواه الآلهة عندهم أهواه حادة من الوجهة الحسية بحيث يمثلون ما في الطبيعة الحسية من غضب وبطش وجبروت ، والذي ينظر الوثنية اليونانية ، بواجهه اصطحاب الاوهاء والاذواق والاحاسيس .

ولقد ارتبطت الفلسفة اليونانية بإنسكار النبوات ، وانكار المعاد ، والميل الى الاباحة والتعطيل والفلسفة اليونانية اساساً تناهى النبوة وتعارضها في النقطة الاولى .

والوثنية هي<sup>(١)</sup> عبادة المحسوس المشخص ، وتنطوي على تعدد المعبود ايضاً . والوثنية وتعدد المعبود متلازمان . لأن المعبود يتغير ، كما ان الوثنية وتشخيص المعبود متلازمان ومع تعدد المعبود وتشخيصه ، عبادة إله وراء ما تخدمه من آلهة غير مشخص ، وغير محدود وقد تلقبه برب الارباب ، او خالق السموات والارض ، وهي بهذا أشركت مع الإله الذي يجب ان يعبد وحده آلهة اخرى .

وقد هاجم الاسلام الوثنية ، وهاجم تعدد الآلهة ، ودعا الى عبادة إله واحد لا تعرف شخصيته ، ولا تحده شخصيته ، ولا تحد حقيقته لانه فوق الطبيعة وفوق ما فيها من اشخاص وجزئيات محددة ، وأراد ان يكون خصوص الانسان وطاعته لغير من يجوز عليه التعدد والفناء .

---

(١) دكتور محمد البهبي - الرسالة ١٩٤٥ .

## الفصل الخامس

### الامبراطورية الرومانية

أما الامبراطورية الرومانية ، فكانت مثلاً للنظام العسكري الوحشي ، واهدار الدماء والأفراط في عبادة القوة ، وتحكم الطغاة المستبددين ، وقيام عبادة الامبراطور والعبودية الكاملة للقطيع المجنح للخدمة تحت القيود والانقال ، إلى فساد أخلاق السادة وإغرائهم في الخلاعة والفسق وانغماسهم في الترف والملاذ .

وقد ورث الرومان عن الأغريق النظام الظبيقي في المجتمع والتفاوت في الاعتبار البشري بين الأفراد فيه « وكانت<sup>(١)</sup> الفكرة التي تقوم عليها الامبراطورية الرومانية هي الاجتياح بالقوة واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده ، وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة . لم ير الرومانيون في عنفهم سوءاً ، ولا في ظلمهم انتهاكاً ، وإن العدل الروماني الشهير كان عدلاً للرومانين وحدهم » .

---

(١) محمد اسد - الاسلام على مفترق الطرق .

وإذا كان أعظم مفكري اليونان ( سocrates ، وأفلاطون . وأرسطو ) برووا العبودية اليونانية فإن أعظم مفكري الرومان ( سيشرون - تاسيناس - سنكا ) لم يستنكروا النظام العبودي ولم يعارضوا هذه العادة المزارية الخاطئة لالأخلاق الطاردة للشعور الكريم ، ولم يكن ذلك غريباً<sup>(١)</sup> فقد كانت النزعة السادية متمكّنة من نفوس الرومانيين أصيلة في أخلاقهم ، وكان الرومان يُستمرون السرور من هذه العادة السيئة لا بحكم التقاليد وحدها ، وإنما بحكم الدوافع السادية التي ترقد في كل قلب ، والتي إذا استنطقت تتلف عليها دوافع أقوى واقتئاع أثم ، وكان دافع حب القسوة في نفس الرومان يزيدها حدة وسطوة .

نعم ، كانت هذه الظاهرة الواضحة : ظاهرة القسوة في معاملة العبيد ، وكان الاعدام باللقاء الى الوحش عقوبة عادلة . « كانت معاملة الرومان للعبيد من القسوة بحيث تتشعر لها الابدان » ، كان العبد الذي يعتدي على سيده يقتل ويقتل معه عبيد المنزل جميعهم » وكانوا الى ذلك يبيعون العبيد بيسع السلع ، ويعتدونهم اشياء مثل الجادات<sup>(٢)</sup> وكانت يبلغون بهم غاية القسوة بانتزاع المسان ، وصب القصدير المغلي المذاب في أفواه المجرمين ، أما مسارح المصارعة فهي من أسوأ مظاهر القسوة ، كانوا يذهبون الى المسارح ليستمتعوا بمنظر سيل الدماء وتذوق الاشلاء ، ويستمتعوا الى الانات الصاعدة ، والتأوهات والآلام . ولم تكن هذه المشاهدة قاصرة على الرجال . بل كانت تحفل بالعذاري الناعمات الرقيقات . وقد ظهر بما لا يحتمل الشك ان حضارة الرومان « كحضارة الاغريق » - نهضت على أكتاف العبيد وبسلبيهم انهارت .

(١) الثقافة - م ١٩٤٧ .

(٢) نفس المصدر .

(۳)

قامت الامبراطورية الرومانية بعد ان مرت الدولة الرومانية بمراحل متعددة من ملكية وجمهورية فن ( ٧٥٤ قبل الميلاد الى ٥٠٨ ) النظام الملكي ومن ( ٥٠٨ الى ٤٨ ق.م) النظام الجمهوري المرتكز على طبيعة الاشراف ومن ( ٤٨ ق.م) بدأ النظام الامبراطوري باستثناء قيصر على السلطة . وقد استغرق تحويل حوض البحر المتوسط الى الامبراطورية الرومانية نحوً من قرنين ونصف قرن . وكانت مصر آخر ما سقط في أيدي الرومان من اقطار هذا البحر عقب موقعة اكيتوم ودخول أغسطس مصر ( ٣٠ ق.م) . وأصبح هذا العام حدًّا فاصلاً في تاريخ الرومان : نهاية العصر الجمهوري ، وبداية عصر الامبراطورية وقد ضمت الولايات الواقعة في بلاد الغال . وآسيا - وسوريا - وببلاد اليونان . كما ضمت المغرب في بناء سياسي وحضاري . استمر فترة من الزمن تربو على السبعين سنة حتى سقطت ٤٧٦ م والمعروف ان الامبراطورية الرومانية دخلت الميسيحية ٣٣٠ م .

وقد اتسمت الحضارة الرومانية بالترف والانحلال . وقد وصفها (دراري) في كتابه (تاريخ اوربا الاخلاقى) فقال : لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة الى أقصى الدرجات هبطت في فساد الاخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب الى اسفل الدركات . بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا الى الارض واستهتروا استهتاراً .

وكان مبديوهم ان الحياة ائما هي فرصة للتمتع ينتقل فيها الانسان من نعيم الى قرفة ، ومن لهو الى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الاحيان الا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم الا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بآواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، وتحف بهم خدام في ملابس جديدة جميلة خلابة ، وعادات رومية حسنة ، وغوان عاريات كاسيات غير متغفلات تدل دللاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة ومياadin بهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الابطال مع الابطال او مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى ينحر الواحد صریعاً يتلشخط في دمه وقد ادرك هؤلاء الفاتحون الذين دخلوا العالم انه ان كان هناك شيء يستحق العبادة فهو القوة ، لأنها بها يقدر الانسان ان ينال الثروة التي يجمعها اصحابها بعرق الجبين وكبد اليمين ، واذا غلب الانسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له ان يصادر الاموال والاملاك ، ويعين ايرادات الاقطاع ، وان رئيس الدولة الرومنية هو رمز هذه القوة القاهرة . فكان نظام روما المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاه خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد المخطاطها .

### (٣)

أما في مجال الدين فقد كان الرومان وثنين<sup>(١)</sup> ، لم يكن لهم إيمان راسخ في دينهم ، فقد كان النظام الديني الوثني الخرافي الذي كان سائداً في رومية يقتضي بطبيعته الشك والاضطراب ، وضعف الإيمان . فكلما تقدموا في العلم وتتوارد افكارهم ازدادوا استخفافاً به . وقد قضوا من أول يوم ان الآلهة لا دخل لها في السياسة وامور الدنيا .

يقول الراهب أغسطين عن عقيدة الرومان : ان الروم الوثنين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ، ويزأون بهم في دور التمثيل . وقد فقد الدين الرومي سلطانه الروحي على معتقديه وبردت العاطفة الدينية في قلوب الناس حق تجرأ الناس على الآلهة ، وأهانوها في بعض الأحيان ، فلم يكن للدين تأثير في أخلاق الأمة و سياستها و مجتمعها .

يقول ليكي : في كتابه ( تاريخ اوربا ) ان الدين الرومي كان اساسه على الأثرة ، ولم يكن يرمي الا الى رفاهية الافراد وسلمتهم من المصائب والمتابع ، والشاهد على ذلك انه ظهر في رومه مئات من الابطال والمعظماء . ولكن لم ينهض فيها زاهر في الدنيا ، عزوف عن ملذات الحياة ، ولا تسمع

---

(١) ابو الحسن الندوبي - ماذا خسر العالم .

مثلاً في تاريخ الروم للتضخمية والإيشار إلا تجده لا تأثير فيه للدين ، ولكن مبنياً على الوطنية . والظاهرة التي يتميز بها الروم هي روح الاستعمار والنظر المادي البحث إلى الحياة ، وهو ما ورثته أوربا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه .

يقول محمد أسد<sup>(١)</sup> : ان الرومانين في الحقيقة لم يعرفوا الدين ، وان آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . لقد كانت أشباه سكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي ، ولم يكن يسمع لها بالتدخل قط في امور الحياة الحقيقية . بل كان عليها ان تتنطق بالرجز على ألسنة عرافيها اذا سئلت مثل ذلك ، ولم يكن ينتظر منها ان تنبح البشرية شرائع خلقية .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق .

## الفصل السادس

### المسيحية والغرب

استكملت الامبراطورية الرومانية اتساعها ونفوذها عام ٣٠ قبل الميلاد ، وتمسحت ٣٣٠ ميلادية وسقطت ٤٧٦ ميلادية . وقد ورثت امبراطورية الاسكندر التي قامت ٣٣٢ قبل الميلاد .

ضمت الامبراطورية الرومانية بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت اقصى اتساعها على عهد الامبراطور تراجان ١١٧ م . وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الاطلسي غرباً حتى الفرات شرقاً . فشملت في الغرب بلاد بريطانيا وغالياً واسبانيا وایطالياً فضلاً عن شمال افريقيا حتى طرابلس ، وشمل الجزء الشرقي من الامبراطورية البلقان وآسيا الصغرى وأعلى بلاد النهرین ، فضلاً عن الشام ومصر وبرقة . وقد انقسمت الامبراطورية الرومانية ٣٩٥ الى قسمين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية البيزنطية . فلما سقطت الامبراطورية الرومانية ٤٧٦ ورثتها الامبراطورية البيزنطية التي استمرت الى السلطان محمد الفاتح الى أن ازال منها الاسلام اجزاءها في افريقيا وآسيا ، وأسقطها .

في إبان تكامل الامبراطورية الرومانية وتألقها ، ظهرت المسيحية في الشرق ، وسرعان ما عبرت إلى أوربا ، واشتبكت في صراع مرير مع الوثنية اليونانية الرومانية زمناً طويلاً حتى استطاعت أن تتحقق وجودها ، وتمكن للاعتراف بها واحداً من أديان الامبراطورية عام ٣٢٠ م .

جاءت رسالة السيد المسيح خاتمة الأنبياء بني إسرائيل لوضع حد لاستشراف الخراف اليهودية إلى الطابع المادي والعنصري الذي استعمل على اليهودية . فأقام لها منهجاً مغايراً لمنهجها الرباني الأصيل الذي جاء به موسى ، ويقدر المؤرخون هذه الفترة بين رسالة موسى ورسالة عيسى بـ (١٢٨٠ عاماً) .

جاء السيد المسيح مصححاً للتصرفات التي أوقعها اليهود برسالة موسى في عدة مواقف ، منها الالوهية وابتداع إله خاص لهم ، وفي الإيمان بالبعث والجزاء ، وفي التبشير بمحمد خاتم الأنبياء ، وفي تحليل الriba ، وادخال السحر والتنجيم ، وإعلام شأن المادية والوثنية .

ومن هنا كانت رسالة السيد المسيح عيسى بن مریم محدودة وواضحة :

- إنها رسالة إلى بني إسرائيل وحدهم .
- إنها مكملة للشريعة الموسوية متصلة بها . ولذلك فإن رسالة عيسى لم تحتو نظاماً تشريعياً خاصاً «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء» ما جئت لأنقض بل لأكمل » (متى ١٧:٦) فالمسيح «أرسل لتعديل ما اعوج من أمر بني إسرائيل ، وتصحيح ما انحرف من أصولهم » فاليهودية بعد أن تأثرت بالتفكير البابلي القديم ، وفي خروجها عن مفهوم الحنيفة إلى العنصرية ومن التوحيد إلى الوثنية . فقد جاءت رسالة مصححة مكملة ، وقد وصفها القرآن على هذا النحو من الدقة في قوله : « ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » ومعنى هذا أن المسيحية من اليهودية مكملة ، والسيد المسيح آخر أنبياء بني إسرائيل .

وان أبرز مفاهيم رسالة عيسى هي تحرير العقيدة ، وتركية الجانب الأخلاقي والتركيز عليه . وقد جاءت ولادة عيسى على نحو خارق لتلقي في النفوس قدرة الله على خرق النوميس ، واقامة المعجزات بعد ان كانت قد غلبت مفاهيم الفلسفة اليونانية التي تحاول ان تربط السبب بالسبب وتسكر مساواه .

وقد أشار القرآن الى مهمة عيسى « ورسولاً الى بني اسرائيل في قد جنتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبنيكم بما تأكلون وما تدخرؤن في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » وكذلك كانت حياة عيسى كولادته آية من آيات الله ، فقد جاء قوله بما يفوق ما يعرفون من علم بالطلب الطبيعي الذي كانوا يمارسونه . وكان ذلك حجة كبرى على وجود الروح بعد ان انكرها اليهود . وعلى وجود المعجزة بعد ان أنكرتها الفلسفات وكانت دعوة عيسى اساساً هي إقامة الروح وترييتها ، والآيات بالبعث والنشور بعد ان استشرت المادية على الصورة التي عرفت في مجتمعات الشرق والغرب .

( ٢ )

غير ان المسيحية لم تثبت بعد السيد المسيح بقليل ان انتقلت من مفهومها المحدود ، من أنها جاءت الىبني اسرائيل مكملة لرسالة موسى ، ومن أنها دعوة الى التوحيد والأخلاق ، لم تثبت أن انتقلت الى مجال آخر وأصالها تغيير كثير ، حق لقد وصفها المؤرخ الاشهر أرنولد تويني في كتابه (المسيحية بين أديان العالم ) على هذا النحو فقال : كانت المسيحية تركيباً متألفاً جسورة اللاهوت اليهودي والفلسفه الاغريقية .

لقد ظهرت المسيحية في بادئ الامر في احسان البيئة الاسرائيلية مخالفة الايديولوجية التلمودية التي أدخلت الى التوراة واليهودية ، والتي ارتكزت على الماديات، بينما ترتكز المسيحية على المعنويات . وفي مقدمتها العبادة والزهد .

وقد دعت الى الاعراض عن الدنيا والاعتراف بالآخرة والجزاء . ( حيث ينكر اليهود البعث والجزاء ) ودعت الى الترفق بالانسان والانسانية ( حيث يدعوا اليهود الى سحق كل من ليس يهودياً ) ودعت الى التواضع والمحاسنة للمجتمع البشري ( حيث يؤمن اليهود بالخير لأنفسهم وحدهم) ودعت الى ان الله هو رب العالمين لا رب المسيحيين فقط ( واليهود يعتقدون بأن الله (ياهو)

هو إلههم وحدهم وليس له علاقة بباقي المخلوقات ) ودعت المسيحية الى العفو عند المقدرة ( واليهود لا يعرفون الا المقايدة والربا ) ودعت الى احترام الحق العام بترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ( واليهود لا يحرمون الا حقوق طائفتهم فقط ) .

غير ان مفاهيم المسيحية على النحو الذي جاءت به رسالة السيد المسيح والانجيل المنزلي عليه من السماء لم تثبت ان اصحابها تغيير كثیر ، وقد جاء هذا التغيير على يدي داعية من اكبر دعاتها هو ( بولس ) .

وسقى لا نقع في تجاوز الحقيقة . فاذا نترك لكتاب المسيحية الغربيين المنصفين لاقام الضوء على هذا التحول . يقول أرنست دي بنسين في كتابه : ( Aslam or true Christianity ) « ان العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الانجيل ليس الذي دعا اليه السيد المسيح بقوله وعمله . وان مرد النزاع القائم بين المسيحية اليهود ، وبين اليهود والمسلمين ليس الى المسيح بل الى دماء بولس : ذلك المأرقي اليهودي والمسيحي . وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسم ( Essenie ) والتمثيل وملئه هذه الصحف بالنبوات والامثلة . ان بولس في تقليده لاستفانوس داعي المذهب الانساني . قد أصدق بال المسيح التقاليد البوذية ، انه واسع ذلك المزيج من الاحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الانجيل اليوم والتي تعرض المسيح في صورة لا تنافق مع التاريخ اصلا ، ليس المسيح بل بولس ، والذين جاءوا بعده من الاخبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الارثوذك司ية خلال ثمانية عشر قرناً .

أما الاستاذ جارذر ( كلية حيرتون بكامبردج ) ففي محاضرة له تحت عنوان : هل المسيح هو المؤسس للدين المسيحي ؟ قال : ان يسوع ظهر لمعاصريه بصفة نبي تابع للكنيسة اليهودية لا مضاد لها . وأيده بعض القسوس . وعزرا مستر بر محل الدين الى بولس الرسول . وقال : ان مسيح الانجيل ومسيح بولس شخصيتان لا تتفقان .

### ( ٣ )

تجمع المصادر التاريخية على ان رسالة السيد المسيح استمرت الى العام الثامن بعد المسيح ، « وفي ذلك العام ظهر بولس . وكان من اكبر احبار اليهود ، المشهود لهم بالعلم والذكاء . وكان في اول امره من ألد اعداء المسيح وأشد المنكرين على تعاليمه . مع انه لم يجتمع به قط . وكان يحيث الناس على اختصار الحواريين وإيدائهم . ثم عاد . فادعى ان المسيح هبط عليه وعلمه الحقائق وأمره باعلانها . فظهر للناس في ثوبه الجديد » .

كان التقىء بولس باليسوعية بهذه المرحلة الفلسفية فيها . والتحول الذي نقلها من وضعها التاريخي المرتبط باليهودية مكللة للناموس . وليست ناقضة إياه الى وضعية اخرى تختلف اختلافاً كبيراً .

ومن هنا فان ما وصل الى اوربا لم تكون المسيحية المزالة ، وإنما كانت تفسيرات بولس لها . ومن ثم ، وفي ظل هذه التفسيرات انقسمت المسيحية . وكان ذلك نتيجة ما طرأ عليها من عقيدة التثليث والبحوث المتصلة بقضايا الناسوت واللاهوت والمادة والقدرة .

وقد ظلت المسيحية وقتاً طويلاً تصارع الوثنية الرومانية . ولم تستطع ان تفرض نفسها على اوربا ولكن قبل الاوريبيون منها ما يلائم اخلاقهم وعاداتهم في إطار حياتهم الوثنية اليونانية القديمة ويكون القول ان اوربا

اعتنقت المسيحية . ولكنها ظلت دائماً ترى أنها وافدة من الشرق وأنها غريبة عليها . وإن الروح الاوربية كانت دائماً روحًا وثنية قاسية تنفر من طابع الرحمة والاخاء . وعندما اعتنق قسطنطين المسيحية ، واعترف بها من اديان الامبراطورية الرومانية كانت قد انقسمت الى فريقين . وكان العهد قد بعد بينها وبين العصر الاول للمسيح حتى عقد مؤتمر نيقا ٣٢٥ م . وصدر قرار اعلان الوهية المسيح . وانه من جوهر الله وانه قد يباديه بقدمه .

لقد غلب المعلم الوري نظرته الوثنية على الدين الاهي . وجرى مع مفاهيمه القديمة المتصلة بالاساطير . وديانة مثرا [إله الخلاص] . فالمسيحية الغربية هي عبارة (مثرا) في ثوب جديد . والمتزاوية تحوي المعمودية والعشاء الرباني ، وقد كان المثيريون يمارسون العبادة في المغاور والكهوف .

وهكذا أصبحت المسيحية إطاراً للمجتمع الوثني بعباداته ورجاله وطقوسه . وقد شغلت قضية تجديد العلاقة بين (الله والرسول) العالم الروماني قرنين من الزمان . وتغلب فريق أنتناسيوس صاحب فكرة الثالوث المقدس . وانهزم أريوس وأنصاره اصحاب فكرة القول بأن المسيح انسان ورسول من عند الله . فقد أنكر أريوس لاهوت المسيح . وقال انه مخلوق ليس مولوداً من الآب ولذلك لا يساويه في الجوهر . وأصرت الجامع الكنيسية التي عقدت على الانتصار لفكرة الثالوث المقدس ، واعتبرت الاريوسین خارجين عن الدين والكنيسة .

## ( ٤ )

أبرز مفاهيم المسيحية الدعوة الى :

أولاً : الزهد في الدنيا . والتسامي عن اعادة التطلع الى الآخر ، فقد جعلت المسيحية الحياة قاصرة على العمل للحياة الآخرة ، وقررت ان حياة الانسان ليست في هذه الدنيا وإنما في العالم الآخر . وتبع ذلك ظهور الرهبانية . وقد اعتمدت هذه الدعوة على قول السيد المسيح : ان مملكتي في العالم الآخر . وقد كانت دعوتها هذه مصدر معارضة شديدة من الاباطرة ، فهم اصحاب السلطان الرسمي ، ومن الفلسفة اليونانية القائمة على عبادة الحياة . فكانت مهمة المسيحية شاقة في اوربا .

ثانياً : القول بأن المسيح جاء لأجل خلاص العالم وتطهيره من خطيئة آدم وافتدايه بنفسه .

ثالثاً : نقل المسيحية من اطارها الطبيعي كآخر اديان بني اسرائيل مكلا لشريعة موسى الى دين عالمي .

رابعاً : القول بالثالوث .

وقد كان لهذه المفاهيم أثراها في التحديات التي واجهتها من بعد لأنها انساقت بها الى غير طريقها الصحيح . وقد وجدت هذه المفاهيم استجابات مضادة ،

فكانت معارضة اوربا للزهادة من اخطر ما واجه المسيحية . وكانت فكرتها الخطيرة والتسلية من اخطر ما واجه العقل ، وكان نقل المسيحية من اطارها الاخلاقي المكمل الى دين عالمي مصدرأً للكثير من اوجه النقد لقصورها في ميدان الشريعة ونظام المجتمع .

ولقد أكد الباحثون ان تفسيرات المسيحية اما استمدت مصادرها من الاديان والفلسفات المعاصرة لها . أما فكرة الثالوث فقد كانت موجودة في الديانة الفرعونية . وكذلك فكرة المشاء رباني . وكانت فكرة الخلاص واردة في الديانة المثيرة ، بل ان بعض الباحثين ليصل الى ما هو ابعد من ذلك :

يقول عمر عنایت في كتابه العقائد : ان تعاليم المسيحية موجودة كلها في الاديان الميجوسية والزرادشتية والبرهمية والهندستانية والبوذية . فالديانات الهندية والمصرية والبابلية وغيرها التي تتكلم عن شخصيات مثل المسيح هي اقدم من المسيحية بلا شك . وهي في الغالب صدرت في الكتب قبل ان تحرر الانجيل في القرن الثاني للميلاد .

ويؤكد الباحثون الغربيون المحرف تفسيرات المسيحية عن اصولها السماوية :

يقول العلامة درابر في كتابه ( تاريخ اخلاق اوربا ) : دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير الدين تقلدوا وظائف ومناصب عالية في الدولة الرومانية . وقد اختلطت مبادئ الوثنية بالمسيحية . ونشأ عن ذلك « دين جديده » يتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء . هنالك يختلف الاسلام عن النصرانية اذ قضى الاسلام على منافسة الوثنية قضاء بازا . ونشر عقائده خالصة .

أما النصرانية الملقة بالوثنية المشوهة ، فقد ابتدعت رهبانية تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والأخلاق ، وكان من نتائج الرهبانية أن خلال الفتوة والمرودة التي كانت تعدد فضائل عادت فاستحالـت عيوبـاً ورذائلـ . وزهد الناس في البشاشة . وخفـة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأـة وهـيـ جـرـواـهاـ .

وتصور لورد ماكولي تحول المسيحية إلى ديانة وثنية على هذا النحو : لم يسلم تابعـوـ المسيحـ منـ النـصارـىـ انـ يـصـيـبـهـمـ فيـ ايـامـهـمـ مثلـ ماـ اـصـابـ اليـونـانـ والـفـرـسـ وـغـيـرـهـمـ منـ قـبـلـهـمـ . فـتـمـثـلـ الـإـلـهـ لـهـمـ فيـ صـورـةـ آـدـمـيـ مشـىـ بـيـنـهـمـ وـشارـكـهـمـ فيـ اـغـرـاضـهـمـ . وـماـ يـعـتـرـهـمـ منـ الـانـحلـالـ وـالـاضـحـالـ . كـاـنـ يـبـكـيـ علىـ القـبـورـ ، وـيـنـامـ فيـ الـخـطـائـرـ . فـظـهـرـواـ بـذـلـكـ لـلـعـالـمـ كـلـهـ فيـ لـبـاسـ جـدـيدـ منـ الوـثـنـيـةـ . ثـمـ كـانـ لـهـمـ منـ الـقـسـسـ وـالـرـهـبـانـ بـعـدـ ذـلـكـ يـضـفـ منـ الـأـلهـةـ عـلـىـ مـاـ كـانـ لـلـيـونـانـ . فـكـانـ الـقـدـيسـ جـورـجـ لـدـيـهـ إـلـهـ الـحـرـبـ ، كـاـنـ الـمـرـيـخـ عـنـدـ الـيـونـانـ . وـكـذـلـكـ اـخـذـنـوـاـ الـعـذـراءـ وـسـلـيـلـاـ وـغـيـرـهـاـ آـلـهـةـ للـجـهـالـ وـفـنـوـنـ الـادـبـ كـاـنـتـ الـزـهـرـةـ وـسـبـعـ كـوـاـكـبـ اـخـرـىـ آـلـهـاتـ لـدـىـ الـيـونـانـ .

ويرى الكثيرون ان المسيحية ( من حيث هي منهج مكمل للموسوية ) فانـهاـ لمـ تـتـضـمـنـ نـظـامـاـ وـتـشـرـيعـاـ . وـمـنـ ثـمـ اـضـطـرـتـ انـ تـأـخـذـ نـظـامـاـ لهاـ منـ الوـثـنـيـةـ الفـرـعـونـيـةـ وـطـقـوـسـهاـ وـتـقـالـيدـهاـ الـتـيـ كـانـتـ فيـ الـاـصـلـ مـسـتـورـةـ منـ الـيـونـانـ . وـمـنـ هـنـاـ بـدـأـتـ رـوـحـ الوـثـنـيـةـ اـيـونـانـيـةـ تـرـيـطـ بـيـنـ الـفـرـعـونـيـةـ وـالـمـسـيـحـيـةـ فـفـيـ الـفـرـعـونـيـةـ ثـالـوـثـ فـرـعـونـيـ ( اوـزـرـيـسـ وـاـيـزـيـسـ وـحـورـسـ ) وـفـيـهاـ الـاـكـلـيـرـوسـ ( رـجـالـ الـدـينـ وـالـعـابـدـ وـالـكـهـنـةـ ) وـفـيـهاـ صـكـوكـ الـغـفـرـانـ ، وـالـقـرـبـانـ وـالـموـسـيقـىـ وـالـأـنـاشـيدـ وـالـخـمـرـ وـالـخـنـزـيرـ وـتـوـابـيـتـ الـمـوـتـىـ وـالـعـلـامـاتـ وـالـرـمـوزـ .

وـمـنـ نـاحـيـةـ اـخـرـىـ تـفـلـيـتـ الـفـلـسـفـةـ الـيـونـانـيـةـ بـعـدـ انـ دـخـلـ الـكـثـيـرـ منـ

اليونانيين ، وهم حملة العلم، في الدين المسيحي ، ولما لم يكن للنصارى الاولين من العلم ما يكفيهم من مقاومة الفلسفة اليونانية تغلب العنصر المسيحي اليوناني . وتغلبت مسائل الفلسفة اليونانية . فلما تغلب مذهب ألوهية المسيح بعد بحدل امتد قرنين كاملين ، طرد الموحدون الاريوسيون . وشلت شملهم . وزاعت الحقوق المدنية منهم .

(٥)

تمسحت أوربا رسمياً عام ٣٣٠ وسقطت الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ وقد أثار ذلك في التاريخ جدلاً شديداً . أ تكون المسيحية هي التي قبضت على الحضارة الرومانية ، ومن الحق أن يقال إن المسيحية حررت أوربا من أشياء كثيرة . وأهم ما حررتها منه عبادة الأباطرة . والشعوذة والاسحر والأساطير والأصنام . وحررتها من طوابع اليهودية التلمودية القائمة على المادية المسرفة في العنصرية ، وإنما نقلت أوربا من الوثنية إلى الدين . ومن القسوة إلى الرحمة .

ويشير تويني إلى هذا المعنى ، فيقول إن المسيحية حطمت قيد خنوع الفرد للدولة على النحو الذي عرفه المجتمع اليوناني الروماني . ودفعـت أتباعها إلى التحرر من الخدمة العامة . والعزوف عن السلطان الظالم بما ألقـتـ إلـيـهمـ من فكرة (احتقار الحياة )<sup>(١)</sup> وأن مركز الثقل انتقل من الحياة المعاصرة إلى الحياة المستقبلة . ثم يصور تويني أثرـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ فيـ بنـاءـ الحـضـارـةـ فيـقـولـ :

[ ولا شك أن الحياة الدنيا قد خسرت بهذا التطور خسارـاً مـبيـناً ] . فقد

---

(١) مختصر دراسة التاريخ م ٣ .

يبدأ تفتقن عام في الكيان السياسي . وانحالت عرى الدولة والأسرة . وقال بناء المجتمع إلى تحليله إلى عناصره الفردية . وقد أده ذلك إلى الارتداد إلى البربرية . لأن الحضارة لا تقوم إلا بفضل تعاون المواطنين الفعال . وحرصهم على إخضاع مصلحتهم الخاصة للصالح العام — ترك العالم الدنيوي يهلك من حوالهم . وقد قرنه بالشر . واستمرت هذه الفكرة تسيطر على عقول الناس [ألف سنة] .

ويصور تويني التحول الذي حققته المسيحية حين نقلت الناس من نظرية الإله اليهودي القاسي الجبار إلى الحرب إلى نظرية الأبوة . يقول : ( كانت المسيحية التي استأنفت بنصف العالم الهليني تعد صورة معدلة للديانة اليهودية . وقد تم هذا التغيير عن طريق تعليم الديانة اليهودية بفكرة هيلينية تعدد في نظر اليهود على النقيض تماماً من كل ما تثله الديانة اليهودية : ألا وهي فكرة « التجسيد » ويرى تويني أن المسيحية حين نقلت العالم الهليني من تعدد الآلهة إلى فكرة التجسيد . لم تستطع أن تتحرر من الوثنية الهيلينية : « لما كانت الديانة الهيلينية تؤمن بتنوع الآلهة . إذا بالمسيحية التي اكتسبت لدى الهيلينية سحرأً طاغياً كان كفيلة بأسر النفوس الهلينية . ومع ذلك فلم يكن في وسع الديانة المسيحية ذاتها أن تشق طريقها في العالم الهليني ، لو لم تتخند لنفسها ثوابتاً هيلينية مثلما فعلت الديانات التي تصدت لمنافسيها ، والعقيدة الهيلينية التي كان من صورها عبادة الإنسان »



هذا رأي المؤرخ تويني المعروف بعقيدته المسيحية المسيطرة على اتجاهات فكره . أما المؤرخ جيبون وهو صاحب نزعة هيلينية صريحة . فإنه يرى نفس الرأي . ولكنه يفسره على نحو آخر يقول : إن إدخال المسيحية . أو على الأقل إساءة استعمالها كان له بعض التأثير في انحطاط الدولة الرومانية

وسقوطها . فقد نجح رجال الاكليروس في التبشير بأراء تدعى إلى الصبر وإيشار الجبن . ولم تشجع الفضائل التي تبعث على النشاط في المجتمع . ودفنت آخر بقايا الروح الحربية في الأديرة . وجانب كبير من الثروة العامة والخاصة صار وقفاً لمطالب البر والورع الموهنة ، ورواتب الجنود التي كانت توزع في إسراف على جاهير من الرجال والنساء لا خير فيهم . وليس في استطاعتهم سوى أن يبشروا بزوايا الزهد والتقصيف . وفضائل العفة والبطهارة والإيمان والمحاسة والفضول . ويرى جيبون : أنه إن كان سقوط الدولة الرومانية قد يحمل به دخول قسطنطين في المسيحية فإن ديانته المنتصرة كسرت حددة السقوط ورفعت طبيعة الفزوة الوحشية .

وقد أدرك جيبون<sup>(١)</sup> أن روح المسيحية كانت معادية لبناء المجتمع الروماني . ولذلك أثبت أنها كانت عاملًا من عوامل اضعافه حينما أصبحت ديانة الدولة ، ولكن المسيحية استطاعت حماية عالم العصر الوسيط من التصدع من خلال عصر الانحطاط . وبذلك أفقدت الإنسان من أسوأ أنواع الشر حينما انهار البناء ووقعت السكاراثة .



غير أن جيبون لا يرى أن ظهور المسيحية في الدولة الرومانية هو المصدر الوحيد لسقوطها وإنما يرى أن الانحلال والترف والإباحية والعبودية كلها من العوامل التي أودت بهذه الامبراطورية ، فهو يؤكد أن الترف والتباخت هما سبب سقوط الامبراطورية . ويقول : إن الفساد الذي نشأ في البلاط . وشاع في المدن نفث السموم في مسquerات الفيالق ، وان عدم القدرة على الثبات في مواجهة الشدائـد التي أصابت الفيالق الرومانية . والتي كان

(١) هل حد تغيير أحد الباحثين الذين ترجموا كتاب سقوط الامبراطورية الرومانية .

منشؤها الترف كانت السبب المباشر في تدهور الامبراطورية وسقوطها . وهو يؤكد أن الترف والتغنى كانا نتائج لا سبباً . ويقول إن الإسراف الجنوني الذي يسود في حالات الحرب أو الحضارة يمكن أن يفسر تقدم الترف خلال الكوارث والآهاديث المفزعية في الأمم المشرفة على السقوط . ويشير جيبيون إلى عامل آخر هام ، هو فقدان العدالة في توزيع الضرائب ، ومدى الضيق الذي يعانيه الشعب من جراء قسوة الاغتيال والمباسير الذين ألقوا الاعباء على كاهل الشعب الفقير فيجعل أفراد الأمة الرومانية يرفضون القيام بواجبات المواطن الروماني .

ويشير جيبيون إلى نظام العبودية القاسي ، ويعده من أبرز عوامل انهيار الامبراطورية الرومانية .



ثم يقول ان سقوط روما نتيجة طبيعية لمعظم المفرطة التي تجاوزت الحدود ، فقد اتضحت أسباب التحلل والفناء . وضاعف امتداد الامبراطورية من بواعث المدم والتسديير وقال جيبيون : ان الرخاء أضيق أسباب التحلل والفناء .



وإذا كان جيبيون يرى أن المسيحية مرتبطة بسقوط الامبراطورية الرومانية . ويعدها من طبيعة أسباب سقوطها . فإن معظم المفكرين في القرن الثامن عشر يقفون<sup>(١)</sup> مثل هذا الموقف من الدين عامة ، ومن المسيحية خاصة ، وذلك لاعتقادهم أن الدين يقوم على خرافات ثبت وتجمعت في عصر

---

(١) من بحث : عن كتاب جيبيون رسلوط الامبراطورية (تراث الانسانية - مجله ) .

المنهجية . وأنجت التمتع بالاعمى ، وعدم التسامح . وكانت هذه الآراء مما عرضه (مونتسكيو) في كتابه : عظمة الرومان والخطاطهم .

●  
ويرى المؤرخ زوربيموس ان المسيحية من الاسباب الهامة في تردي الاحوال في الامبراطورية ويحمل الامبراطور قسطنطين الكبير المسؤولية الاولى . وان سقوط الامبراطورية في الغرب اتفاً جاء نتيجة لنعمة الالهة الوثنية .

اما القديس أوغسطين فيرى ان سقوط روما (ويسميه بابل الثانية) فهو عبارة عن مرحلة تميذية لانتصار مملكة الله الخالدة يقول في كتابه : مدينة الله اتها يد الله المرشدة للحوادث الكونية وتوجيهها . ولا مفر للبشرية من اتباع الارادة الإلهية والانصياع لها . وما التاريخ الا مسيرة للبشرية نحو دار الخلود .

●  
يقول الدكتور ابراهيم علي طرخان : سقطت روما بعد سبعة قرون من تاريخها الجموري . وبعد خمسة قرون من امبراطوريتها وفقدت املاكها ومجدها ٤٧٦ و ٤٨٠ م وهكذا تغيرت خريطة اوربا السياسية ، وكان من تاريخ سقوط الامبراطورية في الغرب قيام الممالك الجermanية التي شكلت دول اوربا الحديثة . ومن النتائج الخطيرة انتقال مركز أهمية التوجيه والقيادة من قصور الاباطرة السياسيين الى أروقة (اللاتران) أي الى الكنيسة في روما ، اذ غدا أسقفها البابا أهم شخصية رومانية باقية في ايطاليا . ومعنى هذا تطور خطير للكنيسة وسلطتها واحتياطاتها . يضاف الى ذلك آثر السيطرة الدينية في نواحي الثقافة المختلفة مما اثر اعمق الأثر في حياة المجتمع الاوربي في العصور الوسطى وباستثناء (ادواكر) على روما

٤٧٦ م<sup>(١)</sup> بدأ ما اصطلح المؤرخون على تسميته العصور المظلمة في غربى أوربا .

ويقول : في مطلع القرن الخامس الميلادى اقتحم الأريك القوطى مدينة روما ونهبها فاضطراب العالم المسيحي بوقوع تلك الكارثة بمدينة خالتها القرون والأجيال مركز الهيبة والسلطان منذ قديم الأزل . هل كانت الطامة انتقاماً للوثنية ومعابدها القديمة . أم كان ما حدث هو الجزاء لاعتناق المسيحية . وقد ردَّ القديس أوغسطين في كتابه مدينة الله . فقال : ان روما مدينة أرضية من صنع البشر وهي لا تقاوم في شيء الى مدينة الله التي لا تتاح فيها الظواهر المادية ، ولا تحدها الحدود . بل تتسعُ كافة المؤمنين حيث يكونون .

وأوضح ان الآلهة اليونانية لا تملك لنفسها نفماً ولا ضراً ، ولا دخل لها في الخير والشر او العدالة . « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظلمة إن أخذه أليم شديد » .

---

(١) م ٢٠ / ١٩٥٨ مجلة كلية الآداب .

( ٦ )

جاءت المسيحية والعالم في أشد الحاجة إليها : في مواجهة النظام العبودي في روما . ومادية اليهود واستعلائهم العنصري : وانتشرت لأنها ديانة البر والتسامح والغفران وكان أكبر انتشارها بين الفقراء المفرومين من بهاء وزهو الحياة الرومانية .

وواجهت المسيحية سطوة الفكر اليوناني ومقاهيم الرومان عليها . وكان لزعامة بولس ( اليهودي الميلاد الروماني الجنسية الاغريقي الثقافة ) أثر كبير في الصورة التي تبلورت بعد عليها . وفي التفسيرات التي جاء بها .

فقد انفصلت المسيحية عن اليهودية واتجهت إلى العالمية . وهي ليست مستقلة عنها إلا من حيث تحريرها من الانحراف المادي . وظهرت نظرية تأليه المسيح ، وليس المسيح إلا بشر . وهو آخر أنبياء بنى إسرائيل ، وكانت المسيحية ثورة اصلاحية لتنقية الديانة اليهودية ، بما علق عليها من شوائب ، فأصبحت ديانة مستقلة تضارع اليهودية وتصارعها الوثنية الرومانية . وقد واجهت المسيحية في الامبراطورية الرومانية محن كبرى ، كانت قمتها مظالم ( قلديانوس ٣٠٣ ) في القتل والاضطهاد ، وهدم الكنائس ، وإحراق الكتب المقدسة . وكان من آثاره تفشي نظام الرهبة ونشوء الأديرة . وعزلة المسيحيين عن المجتمع والحياة . وقد امتد اضطهاد المسيحية حتى جاء قسطنطين

فأطلقها فأصبحت دين الفكر . فلما سقطت الامبراطورية سادت الكنيسة وسيطرت على المجتمع الأوروبي منذ عام ٤٧٦ تقريباً إلى القرن الخامس عشر : أي قرابة ألف عام . وهكذا سيطرت المسيحية ألف عام على أوروبا . ومن قبل سيطرت الحضارة الإغريقية الرومانية الف عام على العالم ( ٧٠٠ قبل الميلاد إلى ٧٠٠ م ) كذلك ليرضي المثقفين اليونان . فاستعار من فلاسفة اليونان فكره اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة أو ابن الإله أو الروح القدس .

ولا ريب أن المسيحية ألغت في أوروبا كلها مفهوماً جديداً من الرحمة والتساحة خفف كثيراً من آثار الأعوام الألف التي قضتها الحضارة اليونانية الرومانية في نظامها العبودي وقوتها الوحشية ، وعبادة الجسد ، وتاليه الإنسان والصراع والترف والانحلال . فلما جاءت المسيحية دعت إلى الحب والرحمة والزهد في متاع الحياة . ولكنها لم تستطع أن تتحرر من قيود الوثنية ، ومن عقائد الوثنين فداخلها من ذلك كثير :

داخلها في عقيدة التوحيد وفي الفوارق العميقة بين الألوهية والنبوة والأنسانية .

وداخلها في المفهوم الارتباط بالحياة بالترف أو الزهد .

وداخلها في مفهوم المسؤولية الفردية والخطيئة .

وقد كان ذلك واضحاً للمؤرخين والباحثين . وعليه اشار أكثرهم انصافاً ، وعلوا ذلك بأن المسيحية أرادت ان تكسب قلوب الوثنين الرومانيين ، فأعطتهم إطاراً مشابهاً لأديانهم السابقة يقول بيري : كان عيسى يهودياً . وقد ظل كذلك ابداً ، ولكن شاؤول كون المسيحية على حساب عيسى ، فشاوول الذي سمى فيما بعد بولس . هو في الحقيقة مؤسس المسيحية ، وهو يمتاز بأنه صاحب دراية في السياسة والابتكار . وقد أدخل بولس على ديانته

بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود . وأدخل صوراً من فلسفة الاغريق ليجذب له أتباعاً من اليونان . فبدأ يذيع ان عيسى منقذ وخلص وكانت تعدد الاصطلاحات شديدة عن كثير من الفرق اليهودية ، وقال آخرون ان المسيحية دخلت الى المجتمع متشكل في طوابعه وقوانينه وتقاليده . فان تأثيرها في تغييره دقيق . ومنها أخذت وأعطت ، ولكنها لم تستطع ان تحرر المجتمع الروماني من وثنيته . وان أعطته روحًا من الرحمة والسماحة لم يلبث ان ثار عليها . وعاود طابعه القائم على القسوة ، أما فيما يتعلق بالعقائد فان النهضة العقلية كشفت له عن ان هناك خوارق ومعجزيات وأسراراً وأساطير ليست مقبولة عقلاً . ولذلك جاءت تلك الممارسة العميقه للدين بعامة والمسيحية بخاصة .

وإذا كان بولس قد اضاف الى المسيحية افكاراً من الديانات القديمة كفكرة الانقاذ ، وتقديم النذور والاهياء والشروع والتبريل والتباين وغيرها من الطقوس الوثنية . فإنه لذلك كله قد فصل اولاً دعوة عيسى عن منطلقاتها الحقيقية مع اليهودية مملكة للناموس ، وليس ناقصة ايام ، ثم انه وضع لها من الافكار ما يتنافي مع الفطرة والعقل والوحى السماوي الصافي ، وكان هذا هو أخطر التحديات التي واجهت المسيحية في عصر النهضة بعد استسلامه مفاهيم العقل ، ومقاييسات العلم والمنطق ، وكان أخطر ما ابتعدت مسيحية بولس : الكنيسة والرهبانية :

أما الكنيسة فقد سيطرت وحكمت ، وأقامت نفوذاً خطيراً في وجه الامراء والناس كافة . وأنشأت الحاكم القاسية ، وفجرت المذاياح والخلافات . وأعطت نفسها حق معرفة الأسرار . وتفسير الكتب المقدسة .

أما الرهبانية فقد عارضت الحياة البشرية بعنطق العزلة . وتعذيب الجسم . وكانت خطراً كبيراً في مواجهة حظر الاباحية الرومانية القديمة ومارضة الفطرة .

وكانت هاتان المنظمتان بالإضافة إلى عسر العقيدة من أكبر العوامل التي واجهت المسيحية من بعد .

ويبدأ كائناً قد اتخذت المسيحية خطأً واضحًا هو الزهد والرهبنة والعزلة عن الحياة في مواجهة الخط الذي اتخذته اليهودية بالاسراف في متاع الحياة والربا والإباحة ، وكان كلها قد بعد بعداً شديداً عن الفطرة والوحى . وأسلوب الدين الحق ، فغلبت على اليهودية العنصرية ، وغلبت على المسيحية الرهبانية .

ولم يلبث أن غلب طابع الأغريق على المسيحية وعلى أوربا والدولة الرومانية .

## الفصل السابع

### الفرعونية

كان المجتمع الفرعوني في مصر شطر مجتمعات فارس واليونان والرومان : وثنية قائمة على التعدد ، وعبودية قاسية تسود فيها عبادة الفرد ، وعباداة الامبراطور وكانت في مصر عبادة الفرعون . وفي الديانة الفرعونية القديمة الثالوث المقدس : ايزيس وأوزريس وجورس . وقد اختللت الآلهة في طيبة فهي : أمون وجوت وسخت واختلفت في منف فهي فتاح وسخت وأموزيس ولكتها بقيت محفوظة بالتمدد . كما عرفت الحضارة الفرعونية قداسة الحيوان: العجول والكباش والأوز عبد العجل أبيس . ووضع موضع القداسة . وبني له الملك أحمس معبداً فاخماً في منف كما تعددت أسماء الآلهة وأنواع الطقوس . وعبد النيل وأهدي إليه وأله فرعون حياً ميتاً .

« ولما احتك المصريون بغيرهم في مدرسة عين شمس . ثم في مدرسة الاسكندرية ، أثر الفكر الوثني المصري في الفكر الاغريقي . ثم في الفكر المسيحي ، حتى ليقال ان قصة مريم العذراء والمسيح كا تصورها المسيحية

لتشبه في بعض الوجود قصة ايزيس وابنها الإله حورس في مصر القديمة .  
وان خروج المسيحية من التوحيد الحالص . وأخذتها بفكرة الثالوث الى  
جانب فكرة التوحيد ليذكرا بما كان في مصر القديمة من ثوالث بين الآلهة  
رغم إله معين على غيره من الآلهة »<sup>(١)</sup> .

وكان المصريون شأن الفرس والشريين يألهون القوى الطبيعية ويألهون  
حكامهم ، وكانت الشمس في نظرهم أكبر الآلهة . كان تعبير كبرى الظواهر  
الطبيعية - ولها قوة روحية تدير الكائنات - وكان هناك آلة اركان  
العالم الاربعة .

وقد عرفت عبادة الفراعنة الثالوث والاكليلوس وحلول الغفران والقربان  
وتوابيت الموتى والعلامات والرموز والمعابد والكهنة . ونقلتها كلها الى  
المسيحية .

وكانت الهياكل الفرعونية مرقبطة بمحاسبات النجوم والافلاك . وكانت  
الهيكل موجودة في عبادات اليونان والبابليين والمجوس .

---

(١) من بحث نشرته مجلة الانصار (١٣٦١) .

( ٣ )

اتصلت مصر الفرعونية بالجوسية الفارسية ، كما اتصلت بالوثنية اليونانية والرومانية . وقد كانت هذه الصلات سياسية وتجارية ، منها دخول قبیز عاھل الفرس والاسکندر قائد اليونان .

ومن ثم اصبح لمصر تاريخ مرتبط بالفرس واليونان والرومان . وقد اتسعت علاقات الإغريق تجاريًا بالشواطئ الشرقية ، واتسعت مع مصر خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

وعندما ثبت الفرس أقدامهم في مصر ٥٢٥ قبل الميلاد تحولت الى ولاية فارسية . ولم ينسع ذلك من تدفق افواج الإغريق على مصر حتى فتحها الاسکندر ٣٣٢ ق.م .

ولما جاء الاسکندر رحب به كهنة آمون ورسموه ابناً للكبير آهتمهم . ومنحوه سائر الألقاب الفرعونية . ويرجع السر في ذلك انهم اعتبروا الاسکندر منقذاً لهم من حكم الفرس بعد ان هزمهم في اغلب ما يملكون من البلاد . ويعد فتح الاسکندر لمصر في نظر المؤرخين بثابة نقطة تحول كبرى ، اذ ينتهي عندها تاريخ مصر الفرعونية . ويبدأ تاريخ جديد استمر الف عام بين اليونانية والرومانية .

فـلما توفي الاسكندر ورثه البطالسة . فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حق صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية . وقد بقيت كذلك حق دخول العرب ، وكان لذلك أثره في المقاييس والثقافات والتفكير كلـه .

وـفي هذه الفترة تحولت الكتابة من المصرية القديمة ممثلة في الهيروغليفية إلى الأبيجدية اليونانية . أما بطليموس فقد اقام في مصر ملـكاً متوازـناً لأبنائه وأحفاده طيلة ثلاثة قرون من الزمان . وفي هذه الفترة أنشأ اليونان المعابـد في مصر لـآلهـتهم الإغريقـية . « وـحاـول بطليموس أن يـوحـد بين المصريـين والإغـريقـ عن طريق الدين ، فـانتـهـى إـلـى دـيانـةـ الثالـوث المـقدـسـ ، وـكان عـلـى رـأسـ هـذـاـ الثالـوث إـلـهـ مـصـريـ قدـيمـ هو (أوزوريس ابـيسـ) فـوضـعـواـ لهـ اسمـاًـ اـغـريقـياًـ هو (اسـرـابـيسـ) وـقـدـمـوهـ لـلـأـغـريقـ فيـ صـورـةـ اـغـريقـيةـ خـالـصـةـ كـيـ يـرـتـضـوـهـ إـلـهـاـ وـيـقـبـلـواـ عـلـىـ عـبـادـتـهـ (١) » .

وـكـانـ الـأـغـريقـ يـعـتـبـرـونـ أـنـفـسـهـمـ أـصـحـابـ حـضـارـةـ رـفـيعـةـ تـسـمـوـ كـثـيرـاًـ عـلـىـ حـضـارـةـ المـصـريـينـ ، وـأـبـنـاءـ جـنـسـ هوـ أـسـمـاـ الـأـجـنـاسـ الـبـشـرـيةـ بلاـ استـثـنـاءـ .

« أـمـاـ المـصـريـينـ فـقـدـ (تأـغـرـقـواـ) فـقـدـ تـعـلـمـواـ اللـغـةـ الـأـغـريقـيةـ وـأـتـقـنـوـهاـ قـرـاءـةـ وـكـتـابـةـ . وـاتـخـذـواـ لـأـنـفـسـهـمـ أـسـمـاـ اـغـريقـيةـ ، وـأـقـبـلـواـ لـلـأـغـريقـ علىـ عـبـادـةـ الـآلهـةـ الـفـرعـونـيـةـ الـقـيـ خـلـعـتـ عـلـيـهـمـ مـسـيـحـيـةـ اـغـريقـيةـ طـفـيـفةـ » .

ثـمـ لـمـ تـلـبـثـ مـصـرـ انـ اـنـتـقلـتـ إـلـىـ النـفـوذـ السـيـاسـيـ وـالـثـقـافـيـ للـامـبرـاطـورـيـةـ الـرـوـمـانـيـةـ . وـقـدـ اـسـتـفـرـقـ تـحـوـيلـ حـوـضـ الـبـحـرـ الـمـتوـسـطـ إـلـىـ اـمـبرـاطـورـيـةـ رـوـمـانـيـةـ نـحـوـاـ مـنـ قـرـنـيـنـ وـنـصـفـ قـرـنـ . وـكـانـتـ مـصـرـ آـخـرـ ماـ سـقطـ فـيـ أـيـديـ الـرـوـمـانـ مـنـ اـقـطـارـ هـذـاـ الـبـحـرـ عـقـبـ مـوـقـعـةـ (اـكتـيـومـ) وـدـخـولـ اـغـسـطـسـ مـصـرـ فـيـ اوـلـ اـغـسـطـسـ (٣٠ قـ.ـمـ) وـأـصـبـحـ هـذـاـ العـامـ حـدـاـ فـاـصـلاـ فـيـ تـارـيـخـ رـوـمـاـ

---

(١) محمد عواد حسن - حوليات كلية الآداب م / ٣ / ١٩٥٥ .

بين نهاية العصر الجمهوري وبداية العصر الامبراطوري . وقد قامت الامبراطورية الرومانية او تكاملت .

وبعد ان كانت مصر دولة مستقلة تحت حكم البطالمة بالاسكندرية أصبحت ولاية تتبع سلطان روما . وفرضت روما على مصر خزينة مالية هي قبح مصر .

والمعروف ان كليوباترة ابنة بطليموس الزمار اعتلت عرش ابيها مشتركة مع اخيها بطليموس الثالث عشر ، وتزوج الأخوان وفقاً للتقاليد الموروثة ، وانتهى دور كليوباترة بنوال دولة البطالمة وتحويل مصر الى ولاية رومانية .

وجاءت المسيحية ودخلت مصر على يد القديس مرقص عام ٥٤ ميلادية .  
بدأ صراع عنيف بين المسيحية والوثنية . وكان للدولة الرومانية الحاكمة موقف غایة في الظلم والقسوة والفتک في مواجهة الديانة الجديدة . وكان كلما تقدم العهد نجد المسيحية تثبت أقدامها في مصر بينما تنهزم الوثنية الرومانية منها حق اعترف الامبراطور قسطنطين بها ديننا رسينا له وللدولة عام ٣٢٥ وتحول كثير من المعابد المصرية الى كنائس . ثم اغلق الباقى حق جاء الامبراطور جوستينيان فأرسل قائده نرسيس الى جزيرة (فيلا) حيث قضى على البقية الباقيه من عبادة ايزيس وأوزوريس<sup>(١)</sup> وقد قدمت المسيحية في مرحلة الاضطهاد الكثير من ابنائها الشهداء ، وخاصة ایام حكم (روفلستان) حوالي ٢٨٤ م .

وفي مصر بدأت الرهبانية ، وأقيمت أديرتها في كل مكان وببدأ تقارب واضح في الفكر والعقائد والثقافة بين القبطية من ناحية ، والفرعونية واليونانية من ناحية اخرى ، وظهرت اللغة القبطية جامدة بين الهيلوغريفية

---

(١) المقتطف م ١٩٤٤ .

والايجدية اليونانية . وقد انقسمت الى خمس لهجات ، واستمدت الحروف الصائمة الى جواب الحروف الصامتة .

وكانت لمدرسة الاسكندرية الفلسفة أثرها البعيد المدى في الطابع الذي عرفته المسيحية . وكان من اكبر اعلامها . مليون وأفلاطين .

وقد كان دخول المصريين في المسيحية بمثابة احتجاج صامت ازاء ظلم الرومان الذين اقاموا نظام العبودية الصارخ الذي استنزف المصريين وجعلهم حطاماً لعبادة الفرعون . فقد وجدوا فيها تحررهم من ظلم الحاكم ومن الوثنية المفرقة .

يقول العلامة الأثري ماسبيرو في محاضرة له : لو كان عامة الشعب من المصريين هم الذين اعتنقوا النصرانية لتغيرت مداركهم . ولكن الذي حدث ان رجال الطبقات العالية من الوثنيين من سلالة رؤساء الكهنة واصحاح الاقطاعات والعظاء استسلموا لنيلار هذا الدين بعد ان قاوموه مدة من الزمن . غير انه بقي طيّ ظاهرهم النصراني كثير من الروح المصرية القديمة وقد قيل كما تعلمون ان الكنيسة الاولى للعهد الاول للمسيح استمدت تعاليمها من مصادرين : اساطيكية والاسكندرية<sup>(١)</sup> .

ويرى كثير من الباحثين والمورخين تأسيساً على هذا الرأي ان الفرعونية لم تضمحل ، بل اخذت من ظهور المسيحية ذريعة لتجدد حياتها بضم مئات من السنين قبل ظهور الاسلام وان هناك تشابهاً واضحاً بين الفرعونية والنصرانية . وان هناك او اصر تجمعاً بين قواعد العقديتين وقد اشار جوستاف لوبيون الى ان اغلب آلهة المصريين تظهر بشكل الثالوث من الآب والأم والابن . وكل مدينة تعبد خاصة احد هذه الآلهة الثلاثة . ولكن هناك

---

(١) محاضرة ماسبيرو في ١٩ نوفمبر ١٩٠٨ (المقطم) .

ثالوثاً واحداً بينها هو (أوزوريس ، وإيزيس ، وحورس) .

وكان نظام الأكليروس ، أو توظيف رجال الدين قائماً في الفرعونية كما هو في النصرانية - وكان المعابد الكبيرة ولرؤساء الكهنة في وادي النيل حرس خاص على نظام الميليشيا لتنفيذ الأوامر كما كان موجوداً عنده بآبوباب القرون الوسطى كما لا يزال موجوداً في الفاتيكان .

وفي الديانة الفرعونية كان تنظيم الاستبداد أو تبرير الظلم ونظام الطبقات القائم على سيادة الكهنة وعبادة الفرعون - وهناك العبوديين المنبوذين الذين لا يرقون أبداً إلى مصاف الطوائف المتحررة . وهو شبيه بالنظام العبودي في فارس وفي اليونان وفي الامبراطورية الرومانية . وهناك من التشابه بين المسيحية والفرعونية مسائل القربان وقداسيه والموسيقى والأنشيد والملائكة والخزير وتوابيت الموتى ، والعلامات والرموز ، والرباط الذي لا ينفصّم بين الديانة القديمة وبين النصرانية في مصر هو اللغة الهيروغليفية العامة<sup>(١)</sup> وكما التقت المسيحية في الغرب بالوثنية الاغريقية وتشكلت في إطارها فاقتربت من نقوش الوثنيين فاعتنقوها . كذلك تشكلت المسيحية في البيئة الفرعونية بالمعتقدات القديمة . لذلك امكن ان يتقبلها الفكر المصري ويعتمده .

---

(١) احمد صبري - قناع الفرعونية .



## الفصل الثامن

### الوثنية العربية

كانت الجزيرة العربية قد عرفت التوحيد منذ دعوة ابراهيم واسماعيل . ولكنها لم تثبت مع مرور الزمن ان داخلتها الوثنية . فانحرفت عن عقيدتها الخالصة .

والمؤرخون على « ان الوثنية في الحجاز وجزيرة العرب كانت مرضًا أجنبياً طارئاً عليها من شرق الأردن . وببلاد كنعان حمله منها عمرو بن لحي في بعض الوقت الذي تولت فيه خزاعة الحكم في الحجاز قبل الهجرة بنحو أربعين سنة ، فهي أقصر وثنيات العالم عمرًا » لأنها قصيرة العمر لم تقم لها في بلاد العرب هيكل ولا تهاويل او أنظمة وأساطير كالي كانت للوثنية العريقة في الهند والصين ومعابد أثينا وروما .

« ولقد كان لعنصرية ابراهيم بقايا امتدت الى زمن البعثة المحمدية ، بل كان في العرب بقية من شريعة نبي الله شعيب » .

وقد ترکزت الوثنية العربية في الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، وعبادة قوى الطبيعة ( الشمس والقمر والنجم ) وعبادة الحيوان وعبدوا ثمثال الانسان ( أسف ونائلة وعبدوا الالات والعزى ) .

يقول هشام بن الكلبي في كتابه «الأصنام» ان الذي سبب بالعرب الى عبادة الأوثان انه كان لا يطعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرأ من حجارة الحرم ، تعظيمًا للحرم وصباية بحثة . فحيثما حلوا وضعوه ، وطاووا كطوافهم بالكعبة . ثم سبب لهم ذلك الى ان عبدوا ما نحتوا ، ونسوا ما كانوا عليه . واستبدلوا بدین ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الامم من قبلهم . وانتبهوا ( أي استخرجو ) الأصنام المحسنة التي عبدها قوم نوح : «البيهقي» فعبدوها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتذكرون بها . وهي أصنام ود ( على صورة رَجُل ) وسوانع ( على صورة امرأة ) وينقوث ( على صورة أسد ) وبعهق ( على صورة فرس ) ونسر ( على صورة نسر ) .

وعرف العرب الكهانة والمعرافة وزجر الطير وضرب الحص وخط الرمل والاستقسام بالأزلام والميسر والسمحر . وهي مما نقل اليهم من عقائد الأمم المجاورة ، وهو ما أطلق عليه اسم الجاهلية . والجاهلية تعني نبذ التوحيد الصرف الذي جاء به ابراهيم واسماعيل .

---

(١) الرعيل الاول - السيد محب الدين الخطيب .

## ( ٢ )

يقسم الباحثون الجاهلية الى جاهليتين : جاهلية الفطرة وجاهلية الفترة ( وهي أن يكون للأمة حضارة فقدتها وتدهورت حياتها ) وجاهلية العرب : جاهلية فترة موقوتة تحمل آثاراً قوية من حضارة او حضارات سابقة .

والقرآن يشهد للعرب بمحضارات سابقة فهم على دين ابراهيم . وأرسل إلى العرب رسل منهم هود وصالح وشعيب ، ولكل رسالة دين ولكل دين حضارة<sup>(١)</sup> والجاهلية لا ينصرف معناها إلى الجهل الذي هو ضد العلم . وإنما إلى ما كان سائداً بينهم من ثانية من تاحية وإلى معنى الجهل الذي هو ضد الحلم وليس ضد العلم<sup>(٢)</sup> وأبرز معالم الوثنية العربية :

أولاً : (الربا) وقد جاء اليهم من اليهود . فقد كانت اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب وكانت التجارة بين الشمال والجنوب ، وكان في الجزيرة العربية نقد الفرس ونقد الروم ، وهو يعلو ويبيط تبعاً لانتصارهم أو هزيمتهم<sup>(٣)</sup> .

---

(١) ابراهيم مصطفى من بحث له عن المصر الجاهلي .

(٢) الدكتور يحيى الحبوري : الجاهلية .

(٣) نفس المصدر .

وقد قام في الجزيرة العربية المجتمع الريسي بكل فساده وترفة وآثاره .

ثانية] : ( وأد البنات ) وقتل الأولاد ، وكانت بعض القبائل تند مولودها اذا ظهر انه أنثى عقب ولادته مباشرة حيث تُقذف به في حفرة وتهيل عليه التراب . وكانوا يعتقدون ان البنات رجس من عمل الشيطان ، وكانت هناك عادة الإمام متخدات أخذان ، وهناك الجمجم بين الاختين .

ثالثا] : ( عبادة الأصنام ) وهناك الأواثن والحجارة والأشجار . وقد ذكر ابن السكري ان من بين الأصنام التي كانت العرب تعبدوها ما يتمثل على صورة الانسان مثل هبل ( وكان من عقيق احمر على صورة الانسان مكسور اليدي اليمنى ادركته قريش كذلك فجعلوا له يدآ من ذهب ) ومنها أسفاف ونائلة . وقد وجد في الكعبة يوم فتح مكة ثلاثة وستين صنمآ . وهناك ( المقه ) إله سبأ الكبير الذي لمع في مملكة سبأ زهاء الف عام . وبنيت له المعابد الضخمة ، وكانوا يتخدون من هيكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصيرون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها الى آلهتهم . وقد عرف الصنم بأنه ما كان مصنوعاً من ذهب او فضة او خشب على صورة الانسان . أما الوثن فهو ما كان مصنوعاً من حجارة ، وهناك عبادة أبائل القبائل .

وقد عرف الشرك بأنه اتخاذ آلة اخرى مع الله ، او اولياء من دون الله « الذين اتخذوا من دون الله اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » ولعل لليهودية والنصرانية أثر في شيوع هذه الفكرة : فكرة وجود وسيط يتقرب اليه ، وهو ما ينسكه التوحيد انكاراً تاماً .

رابعاً : عالم السحر والارواح والاساطير والعرفة والجن والكهانة وعبادة النجوم والكواكب وهذه جماعتهم من الصائحة كما جماعتهم عبادة النار من المحسوسية المتفشية في تميم وعمّان والبحرين . وكان السحر والكهانة من أعمال رجال الدين . وأكثر المسحررة كانوا من اليهود . والمسحر طور من اطوار عقل الجاهلية . وكان هناك من ابرز المسحرة اليهود لبييد بن عاصم .

خامساً : شرب الماء واستباحة النساء والقمار : وكانت الماء تجري على كل لسان . وكانت دنانيرها في الأديرة ، ويتجه بها اليهود والنصارى ، وكان هناك ارتباط بين شرب الماء واستباحة النساء والقمار والميسر ، وكأنوا يضربون خيالهم في بعض القرى ويَضْعُونَ فوقها راية تعلن عنهم فيشربون ويسمعون بعض القيان .

سادساً : الثأر وأكل مال اليتيم وظلم السادة المتجررين وعبودية الفقراء .



وكان المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية يغوص بالخرافات والأوهام والأساطير والسحر والتطير والتشاؤم . ومن هنا نشأت العراقة، وهي باب من الكهانة التي تختص بالتنبؤ بالغيب بينما العراقة تكشف الماضي . وكانت تضطرب في جو هذه الحياة أعمال السحر المتصلة بالزجر والقيافة والعيافة والفراسة . وكانت صورة الساحر إلى جنب صورة الكاهن . وكانت الناس يلجأون إلى هؤلاء وأولئك يبحثون عن الغيب .

وكان للكهانة والسحر شأن أي شأن وأثر كبير في أذهانهم ومشكلاتهم النفسية والروحية ، كانوا يرون في الكهان اطباءهم الروحانيين . فإذا رأى أحدهم رؤيا رهيبة فزع إلى الكاهن ليعبرها له . وكان السحرة متصلين بالجن والسحر عرف به اليهود ، وهناك صلات بين الشياطين والسحرة هي صلات المعلم والمعلم وكان السحرة قادرون على التفريق بين المرء وزوجه . وكانوا يتطهرون ويستقسوون بالأذلام . والطيرة هي إفراط الطائر بمحصاة ، فإذا تيامن تفاصيل . وكذلك الاستقسام بالأذلام وهي أسمهم مكتوب عليهما كلمتا الفعل والنهي عن الفعل .

وقد ظل الناس على اعتقادهم بالكهنة والعرفان حق أبطل الإسلام ذلك كله . وكشف عن زيفه ، ونهى عن السحر والكهانة وعدهما من الموبقات ، وحرر النفس الإنسانية من الأساطير .



## البَابُ الثَّانِي

# الاسلامُ وَالعَالَمُ

الفصل الاول : الفتح الاسلامي

الفصل الثاني : القرون الوسطى المضيئة

الفصل الثالث : المسلمون والمتوسط

الفصل الرابع : التاريخ الاسلامي

الفصل الخامس : القرآن والأديان



## الفصل الأول

### الفتح الاسلامي

يقول أرنولد تويني : «حمل الاسلام شعلة التوحيد بين المسيحية والهندوس . إن عقيدة التوحيد التي جاء بها الاسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم . وإن في بقاء الاسلام امل العالم كله » .

نعم : لقد جاء الاسلام والبشرية غارقة في الاساطير والمظالم والاخطراء ، جاء ليخرجها الى النور . ويردها عما ارتكست فيه من انحراف في العقيدة وعبودية في المجتمع ، وفساد في الخلق ، جاء مجدداً دعوة الله الحق الواحد الذي ارسل بها انبیاءه ورسله منذ آدم عليه السلام . دعوة بعد دعوة ورسالة بعد رسالة ، حق كانت دعوة محمد بن عبد الله خاتم الرسالات بمجددة الدعوة الى الدين الحق ، للناس جميعاً .

جاء بالتوحيد في مواجهة الوثنية والإلحاد . وجاء بالأخوة العالمية في مواجهة العبودية والظلم . وجاء ب تمام مكارم الأخلاق في مواجهة الإباحية والشر . وبذلك كان الاسلام ديناً متكاملاً : عقيدة وشريعة وأخلاقاً . لا يعرف

التجزئة ولا الانشطارية دينناً ومنهج حياة ونظام ومجتمع تلتقي عناصره كلها في كيان واحد هو ذلك الانسان الذي استخلصه الله في الارض ، ومن ذريته تكوت المجتمع البشري .

وقد واجه الاسلام مفاهيم الفكر البشري ، القائمة على نزوله مواجهة صريحة ، وكشف عن زيفها وصحيحيها ، وأقام لها ميزاناً من الحق ، وعرض مختلف الأخطاء والشبهات والتفسيرات التي انحرف بها البشر عن مفهوم الدين الحق ، ورد القضايا كلها الى اصولها الاصلية التي جاء بها الانبياء للناس ، وكشف ان دين الله واحد ، وان ما وقع من خلاف اما كان من تحريفات البشر وتعبياراتهم ، وان رسالة الله للانسان واحدة منذ آدم عليه السلام الى البشر الى محمد ﷺ خاتم الانبياء .

ومنذ نزلت رسالة الاسلام للبشرية الى اليوم ، وهي ذات اثر واضح في الحضارات والشعوب ، والمجتمعات وأحداث التاريخ . فقد أنشأت البشرية خلقاً جديداً . وصاحت الفكرة الانسانية صياغة ربانية ، ووضعت حدأً فاصلاً بين عهدين في التاريخ ، وبين فكرتين في العقول والآنفوس : وأقامت مجتمعـاً جديداً على أساس فكرة الاسلام ، لم يلبـث ان ثبـت أقدامـه ووسع نطاقـه حقـ شـيلـ ثـلـاثـ قـارـاتـ : فوصلـ الى حدودـ الصينـ منـ الشـرقـ والـ حدودـ فـرـنسـاـ منـ الغـربـ ، فيـ أـقـلـ مـنـ سـبـعـينـ عـامـاً ، نـقـلـ خـلـالـهاـ الىـ البـشـرـيةـ رـوـحـةـ وـمـفـهـومـهـ وـعـقـيـدـتـهـ ، وـحرـرـ هـذـهـ الـأـمـمـ جـمـيعـاـ مـنـ نـظـامـ الـعـبـودـيـةـ الـمـرـهـقـ الـذـيـ قـاسـىـ مـنـهـ الـبـشـرـ أـهـواـهـ أـفـيـ عـبـادـةـ الـفـرعـونـ وـالـإـمـپـراـطـورـ وـالـقـيـصـرـ . ثـمـ لـمـ لـبـثـ هـذـهـ الـأـمـمـ انـ دـخـلـتـ فـيـ دـيـنـ الـلـهـ الـحـقـ .

لقد قطع الاسلام الامتداد الفكري والنفسي والاجتماعي بين الامم التي اتصل بها قبل الاسلام وبعده ، قطع الامتداد مع عبادة الاوثان في الجزيرة العربية ، ولم يلبـث ان قـطـعـ اـمـتـدـادـ الـوـثـنـيـةـ فـيـ الـعـالـمـ كـلـهـ ، وـحـطـمـ الـأـصـنـامـ ،

وأطfaً بيوت النار ، واكتسح الديانات الأرضية كالديانة الزرادشية والهندو كية والبوذية اكتساحاً ملماً ، ولم يدع لها من معنقيها الا قلة قليلة .

●

لا ريب ان دين ابراهيم والأنبياء من أبنائه جيئماً . قد حمل أصول الفكر الرباني الطابع الانساني ، الهدف المنزلي من السباء ، والموسى به من عند الله ، والقائم على الحق والعدل ، غير انه لم يلبث ان اخترف بinterpretations المتصردين بأهوائهم .

ولم يكن بوذا ولا زرداشت ولا المسيح يظنون انهم بعد موتهم سيرفعون الى مرتبة الآلهة . ومن هنا كان حرص الاسلام على تأكيد الفوارق العميقه بين الالوهية والنبوة ، وبين الله سبحانه وتعالي ، وبين علاقاته بالعالم والكون والبشر ، وكذلك كان واضحاً من القرآن تأكيمه لبشرية محمد عليه السلام « قل إنما أنا بشور مثلكم يوحى إلى إنما الحكم الله واحد » . لقد انحرفت اليهودية الى المادية الطاغية ، وتأسيس الحياة على العنصرية والربا . ثم جاءت المسيحية فانحرفت الى الروحية الصرف ، والنفرة من الحياة الدنيا بالزهد والرهبانية . ثم جاء الاسلام ليقرر الحقيقة الأصلية المرتبطة بالفطرة والعقل والعلم ، ليبني شعراً امة وسطاً الفرد فيه يتفاعل مع المجتمع . والمجتمع يتفاعل مع الفرد بغير زهادة مسرفة وبغير مادية طاغية .

( ٢ )

جاء الاسلام والدولة الرومانية تسيطر على الشام ومصر والمغرب من افريقيا منذ ألف سنة تقريباً ، ومنذ غزو الاسكندر لها . فأزال هذه السيطرة ، وحرر هذه الاجزاء وأعادها الى اصولها العربية الأصيلة ، وواجه المحساوية الفارسية فأدال منها وأسقط سلطانها السياسي . وقضى على الوثنية والغنوسية ، وأزال عشرات من الديانات الضالة ، والعبادات المنحرفة .

عبادات الحيوانات في مصر والهند (البقرة والجمل والكباش والأوز) .

وعبادة قوى الطبيعة والعناصر والاجرام السماوية .

وعبادة النيل وعبادة الفرعون وعبادة الشياطين وعبادة الملائكة وعبادة إلهي النور والظلمة وتعدد الآلهة عند اليونان والهنود والمصريين ، وعبادة النار في فارس وعبادة عضو التلقيح ، عشرات الهياكل ومئات الأواثان والأصنام .

سقطت هذه العبادات جميعاً واكتسح الاسلام هذه الدعوات الضالة وطاردها ، ولم يدع لها من معنقيها الا جماعات ضئيلة . وانطفأت بيوت النار وسقطت ، وحرر العقل البشري والنفس الانسانية من الفكر البشري الزائف من قول الدهرية ، ان العالم بلا إله ولا صانع ، ومن قول الطبيعين : ان

التراب والماء والنار والهواء اصول كل شيء . ومن قول الفلسفه واليهود  
بانكار بعث الاجساد .

لقد ظلت الزرادشتيه مسيطرة طول حكم الدولة الساسانية في فارس . لم  
لم تخن الرأس إلا حين هاجمها الاسلام ، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر  
في الماء على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين<sup>(١)</sup> .

وحين تحولت البوذية الى دين خفي ذي أسرار عجيبة منها ان الإله  
يتتجسد في بودا لينقذ البشرية بأن يحمل عباء خطاياها القديمة ، ويحول بينها  
 وبين ارتكاب خطايا جديدة ، لقد تحولت البوذية نتيجة لهذا رمزاً للإله  
المنقذ الذي جعل يحيىء الى هذا العالم الأرضي من حين الى حين متممّصاً بجسد  
أحد بنى الإنسان لينقذ البشرية في شخصيته .

لقد دحض الاسلام هذه الأوهام الضالة : أوهام الخلو واتحاد وتناسخ  
الأرواح ، وكشف للبشرية عن زيفها كا حطم عبادة الفرعون والامبراطور  
والقيصر . لقد أجهز الاسلام حين جاء على البقية الباقيه من (البوذية والبرهانية)  
« فتفرقت<sup>(٢)</sup> البوذية شمالاً وجنوباً » ، وظلت هناك حيث التقت بالاسلام ،  
وخصوصاً في جاوة وسومطرة . فتصدمها صدمة قاسية لم تقو بعدها على  
النهوض ، وان كانت قد تبدل وخفضت لأهواء الشعوب التي اعتنقها  
وانهزمت أمام عاداتها وتقاليدها انهزاماً جعلها أثراً بعد عين » .

وكذلك اكتسح<sup>(٣)</sup> الاسلام الديانة الزرادشتيه في فارس اكتساحاً ملماساً .

(١) دكتور محمد غلاب - الفلسفة الشرقيه .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

ولم يدع لها من معتنقها الا نحو عشرة آلاف نسمة في بلاد فارس ، ونحو مائة الف في بلاد الهند وهم الذين لا يزالون يعرضون جثث موتاهم للوحوش .

ولاريب ان الاسلام حين قضى على الزرادشتية : قضى على زواج الأمهات ، والجمع بين الاختين . فقد روى المعموقى في تاريخه ان المغوس يستبيحون زواج العارم من البنات والأمهات . ويرون جواز الجمع بين الاختين . وقال ان الفرس تنكح الأمهات والبنات وتذهب الى اتها صلة هن ، ربّهن وتقرب الى الله فيهن ، حتى جاء الاسلام فأعلن انه لا يحل للانسان ان يتزوجهن .

وكذلك حطم الاسلام عادات الوثنية واغراضها الضالة . فقد عرف العرب في الجاهلية زواج الأم وزواج امرأة الأب ، وعرفوا ما يسمى بنكاح القهار حيث يجتمع جماعة دون العشرة ويتزوجوا امرأة واحدة .

وهاجم الاسلام سلبية البرهنية ورضاءها بالضياع وقتلها الشهوات والرغبات ، وإنكار ما في الحياة من مسرات . ودحض قولهما انه لا خير في الجسد لأنه محل العاهات ، وكذب قولهما انه لا قيمة للافرح والثروة والجاه والملك ودعوتها الى انكار متع الحياة ، والإقامة في الغابات ، وتحت الشمس الحرققة ، والإيمان بأن الحياة تعasse مستمرة ، وشقاء متصل . « لقد نكب الفكر الهندي منذ البداية بمنذهب وحدة الوجود وأتلفته اوهام الكشف والذوق . وإذا ترجمنا الفلسفة الهندية الى لغة لقلنا أنها تنكر الوجود والواقع والشخصية الإنسانية والخلاصة ان التفكير الهندي قد حطم الانسان . وهو يدعى تأليه الانسان<sup>(١)</sup> كما كذب دعوة ما في الى ترك العمل والزهد والرغبة عن ملاذ الحياة واستبعاد الفناء . فقد قرر ان يعمل الانسان الى دنياه كأنه يعيش ابداً

---

(١) الدكتور ذكي مبارك في بحث عن الجاهلية .

ولآخرته كأنه يموت غداً . وتساءل القرآن « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطبيبات من الرزق » وأجاب « قل هي خالصة للذين آمنوا إلى يوم القيمة » .

وكا هاجم الاسلام دعوات قمع الشهوات وتجحيد النفس وتهذيبها دون الارتباط بعقيدة في الإله . كذلك عارض الاباحية ، وهي الوجه الثاني للرهبانية . وزيف دعوة المزدكية ومفاهيم استباحة المحرمات ، والدعوة الى مشاعية النساء والأموال والاغتسال بالبول ورفض الذبائح ، ورفض إرادة الدماء .

وحطم الاسلام المجتمعات التي قامت على الإفراط في اللذات واللهو الخنيث في فارس واليونان والرومان .

( ٣ )

ماتت حضارة الفراعنة واليونان والرومان قبل ظهور الاسلام ، أما الاسلام فقد أحتيا بقايا العلوم وجددها وصححها وصقلها ، وببدأ منها امتداده الى المنهج التجاري .

لقد استطاع الاسلام ان يحرر ناطق عربية واسعة سيطرت عليها الامبراطورية الرومانية حوالي ألف سنة بفكرها وعقائدها ولغتها ، فأزال سلطانها وحررها تماماً وأدخلها بوسقه :

يقول احد الباحثين المغاربة : قبل الميلاد دخلت روما بلاد العرب فاتحة ، واستقرت في مشرقها وفي مغربها قرون كثيرة متعاقبة . واحتلت من الارض أكثر ما احتل الفرنسيون وبنت من القلاب والمحصون أكثر مما بني الفرنسيون ، واستوطنت مدننا عربية وغيرت أسماءها بأسماء رومانية على غرار ما فعلت فرنسا ، وبسطت سلطانها ولغتها وقانونها ، وآدتها مثلما فعل الفرنسيون . ثم عصفت العاصفة بروما وهبت عليها الرياح الشرقية فنفت أثراً بعد عين .

لقد قضى الاسلام على نفوذ الاباطرة والقياصرة والفراعنة . ثم امتد الى الامبراطورية الفارسية ، فحررها من عبادة الفرد والوثنية . ونظام العبودية الذي تدل فيه الجماعات الكبرى للقليلة القليلة من الاكسرة والامراء، وبذلك

حرر عالماً وأسماً من عقائد زائفـة ونظام اجتماعي ظالم . وهذا هو سر استقبال الاهلين له ، وتقبـلهم إياه . ذلك انه لم يفرض عليهم عقائده ، وإنما أباح لهم حريةـهم الكاملـة ، وحـماها في حدود قاعـدته الأصلـية « لا إـكراه في الدين » فإذا دخلـوا في دين الله أـفواجاً بعد ذلك بـرارـادـتهم ، بعد ان تحققـوا من عـدـالـتـه وسـماـحةـه .

لقد اندفع<sup>(١)</sup> المسلمين في الآفاق ليتحققـوا أـمانـة « عمـوم الرـسـالـة » التي حـلـواـها عن الرـسـول ، وكـسرـواـ الحـواـجـزـ المـادـيةـ التي أـقامـهاـ الحـكـامـ والأـبـاطـرـةـ والأـمـرـاءـ رـغـبةـ فيـ تـحـقـيقـ اللـقاءـ وـالـتفـاـهمـ بـيـنـ هـذـهـ الشـعـوبـ المـغـلـوـبـةـ وـبـيـنـ كـلـمةـ اللهـ ،ـ وـالـقـضـاءـ عـلـىـ الـظـلـمـ الـاجـمـاعـيـ وـالـوثـنـيـةـ .

وقد استقبلـتـ هذهـ الشـعـوبـ « الـاسـلـامـ » بـترـحـيبـ كـبـيرـ وـتـقـدـيرـ لـأـحـدـ لـهـ . لأنـهـ لمـ يـفـرـضـ عـقـيـدـتـهـ عـلـيـهـاـ ،ـ بلـ أـتـاحـ لـهـ الـقـدرـةـ عـلـىـ النـظـرـ وـالـحـرـيـةـ فـيـ الـعـقـيـدـةـ تـحـتـ لـوـانـهـ وـحـفـيـظـهـ لـهـ أـنـظـمـتـهـ وـأـدـيرـتـهـ وـكـنـائـسـهـ وـحـقـوقـهـ دونـ انـ يـفـرـضـ عـلـيـهـ شـيـئـاـ ،ـ وـأـتـاحـ لـهـ فـرـصـةـ لـتـأـكـدـ بـزـيـدـ مـنـ الـمـهـارـسـةـ كـيـفـ يـجـعـلـ الـاسـلـامـ :ـ العـدـلـ وـالـمـساـواـةـ .

هـنـالـكـ اـنـدـفـعـتـ هـذـهـ الجـمـوعـ بـإـرـادـتـهـاـ الـحـرـةـ إـلـىـ رـاـيـةـ الـاسـلـامـ وـبـاقـتنـاعـهـاـ الـعـقـلـيـ وـالـنـفـسـيـ السـاكـمـلـ .ـ لـقـدـ كـانـ الـإـيـانـ الـعـمـيقـ بـالـلـهـ ،ـ وـالـثـقـةـ فـيـ نـصـرـهـ ،ـ وـطـلـبـ الـمـوتـ فـيـ سـبـيلـ تـحـقـيقـ « عمـوم الرـسـالـةـ » وـإـبـلـاغـهـ لـلـعـالـمـينـ .ـ هـوـ الـعـاـمـلـ الـأـوـلـ وـالـأـكـبـرـ .ـ وـكـانـ الـمـسـلـمـونـ حـيـنـ يـصـلـوـنـ إـلـىـ الـأـقـطـارـ يـحـرـرـوـنـ أـهـلـهـاـ مـنـ الـظـلـمـ .ـ وـيـقـيمـوـنـ بـيـنـهـمـ الـعـدـلـ ،ـ وـلـاـ يـفـرـضـونـ عـلـيـهـمـ الـاسـلـامـ .ـ بـلـ يـؤـمـنـوـنـهـمـ عـلـىـ أـمـوـاـلـهـمـ وـأـمـلاـكـهـمـ ،ـ وـيـتـرـكـوـنـ لـهـمـ حـرـيـةـ دـيـنـهـمـ ،ـ بـلـ لـقـدـ تـرـكـوـاـ الـأـرـضـ

---

(١) الـاسـلـامـ وـحـرـكـةـ التـارـيخـ .

لأصحابها على ان يدفعوا خراجها . بينما كان الأكاسرة والقياصرة يعتبرون أنفسهم ملائكة للأرض وملائكة للعاملين فيها .

ومن آيات العدالة التي لم تعرفها البشرية قبل الاسلام تلك الصورة : « عندما شعر الفاتحون المسلمين بأن الروم تجذزوا في الشهال بحملة لا تقوى على صدها الخامسة العربية المقيمة بمحص ، فرروا الانسحاب . وقبل ان ينسحبوا دعى أعيان الأهالي ورجال دينهم وعرض عليهم قائدتها ان يأخذوا ما كان جببياً منهم من أموال الجزية .

قال الأعيان : والله ان الروم لو أنهم جبو من الأموال الاميرية . واضطروا الى مثل ما اضطررتم اليه ، لما أعادوا علينا ديناراً واحداً مع ما بيننا من وحدة الدين ، وان حكومة يكون فيها مثل هذه الرحمة ، وهذا الانصاف لا نرضى بها بديلاً . وحن مستعدون لأن تُنضمْ الى جندكم ، وان ندفع حملة الروم بكل من يستطيع منا حمل السلاح .



يقول الامام محمد عبده : الاسلام الحريي كان يكتفي بإدخال الارض المفتوحة تحت سلطانه . ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يحب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها ليكون عوناً على صيانتهم ، والمحافظة على أمانتهم في ديارهم وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحجار لا يضايقون في العمل . وكانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا في الصوامع والأديار مجرد العبادة . كما يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال . وكل من لم يعن على القتال . وجاءت السنة المتواترة بالنهي عن ايذاء اهل الذمة . وبतقرير مالئم من الحقوق على

ال المسلمين . لهم ما لنا وعليهم ما علينا . ومن آذى ذمياً فليس منا . فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفي من الامم والطوائف التي تغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا . يؤدونه قبل تغلبه عليهم . وبأن يعيشوا في هدوء لا يعكرهون معه صفو الدولة . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهם من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم .

( 5 )

الاسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية يموت فيها كل شيء حيث القبائل والرجل الذى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فلسungan ما شرع يتندق وينتشر وتنتسع رقعته من جهات الأرض بجنازأً أفتح الخطوط ، وأصعب العقبات ، دون ان يكون له من الامم الأخرى عون يذكر ، ولا أزر مشدود . وعلى شدة المكابرة . فقد نصر الاسلام نصراً مبيناً عميقاً اذ لم يكن يضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفّاقة في البرانس حتى هلاماً . وفي صحاري أواسط آسيا حتى صحاري أواسط افريقيا.

يقول لوبون : ترك المسلمون الناس أحراراً في امور دينهم وأظلوا بجهائهم  
أساقفة الروم ، ومطارنة اللاتين ، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة  
والطمأنينة ، وأمن عمر بعد ان دخل القدس الناس على أموالهم  
ودينهم .

ويقول لوبون : كان يمكن ان تعمي فتوح العرب الاولى أبصارهم ، فيقتربوا  
من المظالم ما يقتربه الفاتحون عادة ، ويسيرثوا معاملة المغلوبين ، ويكرهونهم  
على اعتناق دينهم ، ولو فعلوا ذلك لتثبت عليهم جميع الامم ، ولكن  
الخلافاء الأوليين الذين كان عندهم من العبرية ما ندر وجوده في دعاء الديانات  
الجديدة أدركوا ان النظم والأديان مما لا يفرض قسراً . فعاملوا أهل الشام  
ومصر وأسبانيا وكل قطر بلطف عظيم تاركين لهم عاداتهم ونظمهم ومعتقداتهم .  
والحق ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب . وكانت هذه  
الرحمة سبباً في اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولفتهم التي رسخت  
وقاومت جميع الغارات عليها وبقيت قائمة ، بعد ان توارى السلطان السياسي  
على مسرح العالم .

ويقول لوبون : ان تسماح المسلمين والعرب بما لم تصل اليه اووبا بعد .  
مع ما قامت به في اكثر من ألفي سنة من الحروب الطاحنة ، وما عانته من  
الأحقاد المتأصلة ، وما منيت به من المذابح الدامية .

لقد اكرهت مصر على اعتناق النصرانية . ولكنها هبطت بذلك الى  
حضيض الانحطاط التي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي . ولا تزال مصر  
ملائى بأنقاض ما هدمه تيودور سنة ٣٨٩ م ذلك القيسير النصراني المخرب  
المتعصب . كان العرب يحترمون اهل البلاد المفتوحة ويتركون لهم حرية دينهم  
الدينية . فقد عامل عمرو بن العاص المصريين بما لم يعرفوه من العدل والانصاف

واحترم نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم ، وشُمل الديانة النصرانية بعطفه وحمايته . وسمح للآقباط أن يستمروا في اختيار بطريقهم ، ولم ينسخ النصارى من إنشاء الكنائس في المدينة الإسلامية التي أسسها المسلمون . ولم تكن التعاليم الإسلامية لتفرض على اتباع الديانات الأخرى بالقوة وبحد السيف لقوله تعالى : « لا إكراه في الدين » ولذلك كان الانسجام بين العرب وبين الأمم قوياً جداً ، وكان حب الأمم للعرب خالصاً وأكيداً . بل وصل إلى حد التقديس .

والإسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين قال بالتوحيد الخالص الخالص . وبأنه أول دين نشر أتباعه ذلك التوحيد في العالم ، والذي حدث أن انت حل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له وذلك لما كان يتتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بعلمه . ولما كان عليه الإسلام من المسؤولية التي لم تعرفها الأديان الأخرى .

●

وفي الحق أن الإسلام قد جعل المسلم قاعدة والمحروم ضرورة . ولم يكن يقاتل غير المسلمين لإمساك عقيدة أو فرض عقيدة ، ولكنه كان يقاتلهم إذا وقفوا في وجه دعوته . وقاوموا فكرته . وعمدوا إلى ايذاء أهله ، وهو لذلك لا يكت足 عن إقامة العلاقة بينه وبينهم إذا هم لم يحاربوا الإسلام والمسلمين ولذلك حرم الإسلام قتل الأطفال والشيوخ والنساء والنساك والرهبان إلا من اشترك فعلاً في الحرب وأضر بالمسلمين .

وقد وجه الإسلام دعوته إلى جميع الشعوب دون اعتداد فيه بالجنسيات والأصول . يقول أرنولد تويني : « حرر الإسلام ساحل البحر الأبيض

المتوسط من سلطان اغريقي روماني مسيحي من سوريا الى أسبانيا . عبر شمال افريقيا . وكانت تلك البلدان تحت الحكم الاغريقي الروماني نحو ألف من السنين منذ فتح الاسكندر الاكبر للامبراطورية الفارسية . وإسقاط الرومانيين لقرطاجنة . وذلك بين القرن الحادى عشر والسادس عشر قبل الميلاد » .

( ٥ )

لم يكن مصدر النصر الاول ضعف الدول او التطلع الى الثروة ، وإنما كان مصدر النصر الأكبر هو عمق مفهوم الاسلام وسلامته وقربه من الفطرة الانسانية ومطابقته للواقع ، من أجل بناء حضارة جديدة في إطار التوحيد ، كانت القوة الدافعة هي إيمان عميق بهذه الجماعة لا يتزعزع بالاستشهاد في سبيل رفع لواء الاسلام الى كل أرض ، أما السلطان والثروة والفنية . فلم يكن في المرتبة الاولى ، ولم تكن وسائل المسلمين الحربية هي مصدر نصر في مقاييس الحروب وقعبنة الجيوش ، فقد كانوا في كل معاركهم أقل من عددهم مراراً . وكانت هناك فوارق بعيدة في المعد والمعد ، وإنما كان مصدر النصر الحقيقي هو الحرص على الموت .

ان معجزة الفتح الاسلامي لا يمكن تفسيرها في ضوء مقاييس الغرب المادية . يقول أحد المؤرخين الأجانب : ان التاريخ لم يشهد قط ظاهرة مثل هذه الظاهرة من قبل . ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التي حقق بها الاسلام فتوحه ، والتي تحول بها من دين يعتنقه بضع نفر من المجتمعين حول النبي الى دين يدين به ملايين الناس . ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السرية التي مكنته جماعة من المغاربين الخفاوة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في الحضارة والثروة والخبرة والقدرة

على شنّ الحرب . ومن ادعى الامور الى الدهش ان نلاحظ كيف استطاع أولئك الناس ان يحتلوا تلك المناطق كلها . وأن يثبتوا بعد ذلك فتوحهم على نحو جعل حق القرون المتعاقبة قرناً بعد قرن عاجزة عن إخراجهم منها . وكيف استطاعوا أن يلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لشلهم العليا . وأن يحافظوا بجيوشه فائقة لم تعرفها الأديان الأخرى حق بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمد . « كانت ستة عشر سنة قد انقضت على الهجرة عندما انهارت الامبراطورية الفارسية نهائياً . وهي التي ظلت الحرب سجالاً بينها وبين الامبراطورية البيزنطية » . « لقد قوشت حضارتان وززع زعيمان فإذا بفيض جديد من حياة عارمة تتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى . لقد تحلى أمام عيون العالم المنهش دين جديد بسيط سهل يخاطب العقل والقلب جيماً . وببدأ الذهب الذي كان مخبوءاً في صناديق السراة ينتقل إلى أيدي الفقراء مستهلاً نظاماً من التداول السليم كرهاً أخرى » .



ان هناك محاولة لتفسيير الفتح الاسلامي تقوم على القول بأن الامبراطوريتين الفارسية والرومانية كانتا قد وصلتا إلى حالة من الضعف والانحلال . والحقيقة ان هذه شبهة أريد بها التقليل من أهمية الفتح :

يقول الدكتور شكري فيصل<sup>(١)</sup> : ان القول بأن الامبراطورية السياسية كانت هرمة ، ما من شيء أقرب إلى المغالطة ، وأبعد عن الصواب من هذا . فالامبراطورية السياسية لم تكن عاجزة بدليل من هذه المقاومة العنيفة التي استطاعت ان تجحبه بها الجيوش الاسلامية ، ولم تكن هرمة . لأن أنوشروان كان قبل عقود قليلة من السنين قد جدد فتوتها ، وصقل عزمه . ونفع فيه

(١) كتاب حركة الفتح الاسلامي .

من روح الحياة والشباب ، وكان هناك هذا التوافق العجيب من مولد الرسول صلوات الله عليه ، وحكم ألوشروان ، كأنما هو الرائد على ان رسالة النبي لن تمضي في الارض سهلة . وان المقاومة قد بحثت لها منذ فتح صاحبها عليهما اذ عينيه للضياء والنور . غير ان موقف فئة قليلة من الفرس الذين استجابوا للدعوة : أساموا وأسمموا في حركة الفتح في القادسية ، وكان لهم فضل في إنقاذ الجيش من شر الفيلة . فقد ساهم سعد عن مقاتلها فدلوه منها على المشافر والعيون ، وانه لا ينتفع بها بعدها .

وموقف الفرس كان موقف مقاومة عنيفة . والغلبة التي استطاع المسلمون أن يحققوها لم تستمد عناصرها من حياة الفرس الداخلية ، ولا من هوم الامبراطورية ، وإنما استمدت عناصرها من حياة المسلمين الداخلية من قوة اندفاعهم وإيمانهم الذي يحاربون من أجله ، ونصرهم على أن يشاركهم الناس نعمة هذا الإيمان الجديد . واستثنائهم الأرض على أنهم عباد الله الصالحون » .

والأمر بالنسبة للروم كان كذلك جد خطير ، ولم يكن نصراً سهلاً : والروم لم يتذروا عن الشام في يسر وبساطة<sup>(1)</sup> بل جهزوا كل ما قدروا عليه من جيوش . وخاضوا كل ما ملكوا أن يخوضوا من معارك واستنفروا كل ما كان في وسعهم أن يستنفروه : العرب وأهل أرمينية والبيزنطيين وسكان المقاطعات . واستطاع الروم أن يجندوا مائة ألف أو خمسين ألفاً على الأقل في (اليرموك) بكل ما يحتاج إليه هذا العدد الضخم من عدد ، ولم يكن لدى العرب أساليب حربية قط غير إيمانهم وشجاعتهم . وتحريم تولية الظهر إلا لحرباً لقتال . « وحاربوا على أرض عروها معرفة تجربة وخبرة ومارسة خلال القرون الطويلة . والحق أن الروم كانوا يهملون هذه النقلة النفسية العميقـة التي أصـلـها العرب في الدين الجديد ، وكانوا على غير وعي

(١) نفس المصدر - حركة الفتح الاسلامي : دكتور رشدي فيصل .

واضح بحقيقةها البعيدة ، وإنما نظام جديد آمن به العرب ، فوهبهم حياة داخلية تفاصير كل ما كانوا عليه وانهم دعوا الى هذا النظام وأرادوا غيرهم على اليمان به . وخرجوا من أجل هذه النهاية التي كانت نتيج لهم خير الدنيا والآخرة .

أعمت هذه الجحالة الروم عن تقدير قوة العرب . وعن تقويم هذه العقيدة التي تكنن ورآها ، فلم يستطعوا أن يضعوا المهاجرة في غير موضع الهجرات السابقة ، ظناً أنها الغارات . ثم لا يلبث ان ينجذبوا ، ولذلك أطلقوا في القتال . ومدوا في أيامه مؤمنين ان يل العرب . ولكن العرب في هذه المرة لم يكونوا عرباً مرتادين ، ولكنهم كانوا عرباً مسلمين ودعاة مهاجرين ، ولم يكونوا من هذه القبائل الشهالية التي تندش النفع ، ثم ترتد فحسب ، ولكنهم كانوا من كل أطراف الجزيرة لا يردهم عن غایتهم شيء ، لأنهم ليس لهم إلا احدى الحُسْنَيَّين ، وليس لأعدائهم الا اختيار واحدة من ثلاثة ( الاسلام ، او الحرية ، او الجزية ) لقد غاب عن فطنة الروم ان نبياً قضى ثلاثة وعشرين عاماً يعد هؤلاء الناس لهذه الدعوة . وان هذا الاعداد هو العدة التي كانت تنقص الروم وتزخر بها جيوش المسلمين » .

## (٦)

وهناك محاولة أخرى لتفسیر الفتح الاسلامي قال بها بعض المستشرقين . وتابعهم بعض الأدباء : هو ان العرب كانوا قد وصلوا الى درجة من الرقي تؤهلهم لنهاية أدبية . فلما جاء النبي نهض بهم فنهضوا<sup>(١)</sup> .

وذلك فرية مضللة وشبهة كاذبة : وقد دحضتها العلامة محمد فريد وجدي حين قال : ان بعض المستشرقين لما هاجم نجاح النبي في المهمة التي ندبه الله لها في بيته من أعنى البيئات على مثلها ، زعموا ان قريشاً كانت قبل رسالة النبي في دور نهضة اجتماعية وأدبية ، وان دعوة النبي صادفت هذا العهد فنجحت نجاحاً لا يحدها التاريخ عن مثله . وهناك دليل محسوس يدل على فساد ذلك : الهجرة هي الدليل المحسوس فإن قوماً يلبث فيهم مصلحهم الاجتماعي ثلاثة عشر عاماً يدعوهم الى القيام على سنن الحق فما يعملون وما يعتبرون . ان قوماً على هذا النحو من الجمود على القديم الرث ، والباطل الخض بجدironan بأن لا يعتبروا في دور نهضة أدبية او اجتماعية . ان المجتمع الذي يقابل الداعي بهذا التنفور العظيم ، وينتهي أمره الى الخضوع له كرهاً بعد تطاحن طال أمده عشرين عاماً لا يعتبر انه استعد لإقامة دولة ، فلو

---

(١) دكتور زكي مبارك : النثر الفي .

ترك و شأنه لبقي على ما كان عليه ، ولو كانت قريش أقرب العرب إلى الحضارة لقابلت دعوة محمد بصدر رحب ، واحتلت المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته بجمع كلمة القبائل وإبطال دينهم ولساغ أن يقال إن محمدأ لم يعمل أكبر مما يعله البناء : وجد أحجاراً منحوتة ومواد مجذزة ، فأقام بها قصراً فخماً .

أما وقد أراد الله أن يجعل محمد من كنز دعوته يترب التي يسكنها الأوس والخزرج وهم من مهاجري اليمن ، وليس لهم أقل ميزة على العرب ، ولم تكن لهجتهم بالقوية المتنحطة ، ولا جهتهم بذات القوة والمنعة ، بل كانوا أسوأ ما تكون عليه قبيلتان من التناحر ، وتنازع البقاء . أما وقد أراد الله أن يتمخد من هاتين القبيلتين أنصاراً لدينه ، ومدينتهم عاصمة للدولاته بعد أن خذله أقوام العرب لهجة . وأقر لهم للن هو ض مطية ، فقد أمكن كل ناظر أن يقدر عظمة روحه العلوية اذ تولى أبعد القبائل عن مظنة التأهل للن هو ض ، وأعطاهما وسائل لتفويج أودها ، فصاغ منها نواة تصلح ان تبني عليها مواد الناء والاكتئال ، وأن يحييها ويخرجهما من جمودها القديم ، وأن يؤلف منها مجتمعاً ملوءاً حياة وقوة يصلح للقيام بنفسه ولاحداث أكبر حدث في العالمين » .

وليس أدلّ على عظمة المعجزة ، وأنها من صنع العقيدة الصادقة : « ان قريشاً وهي أرقى القبائل لغة وفهمًا ومكانة لم يقبل دعوة منها النبي إلا رجال ونساء لا يربو عددهم عن بعض عشرات ، ان اتباع النبي الاولين اضطهدوا اضطهاداً شديداً حتى هاجروا الى بلاد الحبشة ، وان الجاهلين كانوا يهزأون بالدعوة للدين وبالداعي اليه ، وان النبي لبث على هذه الحال من الاضطهاد ثلاثة عشرة سنة ، ولما أنسنت قريش من النبي الهجرة قررت قتلها وأرصدت لها . ولما علم أهل مكة بإفلاته اقتفوأ أثره ، كل هذا ينطق بلسان فصيح ان

قريشاً وهي مظنة النجابة والفهم من العرب في ذلك العهد ، لم تكن قد استعدت للملك بعد تطورات عديدة . فإن المجتمع الذي يقابل الداعي للتتجدد والتنهوض بهذا النفور ، ويصرّ عليه ثلاثة وعشرين سنة لا يزداد بعدها إلا عناداً وتشدداً هو مجتمع متخلف<sup>(١)</sup> .

إذن : فما هو سرّ المعجزة . إن التفسير المادي للتاريخ غير صالح لتفسير الإسلام .

---

(١) فريد وجدي : البلاغ سنة ١٩٣١ .

## (٧)

أجمع المؤرخون والباحثون على أن البشرية<sup>(١)</sup> لم تعرف من عهد الاسكندرى إلى عهد نابليون فتحاً أوسع ولا أسرع من الفتح الإسلامي الذي امتد في أقل من مئتين عاماً من الصين إلى فرنسا ، وميزة أخرى بالإضافة إلى السعة والسرعة انه فتحُ أبديٌ . فلم يعرف ان المسلمين دخلوا بلاداً وخرجوا منها إلا الاندلس . وقد بقيت روح العرب والمسلمين في الاندلس برغم نصرانيتها وأسبانيتها ، ذلك لأنهم لا يفتحون البلاد بسيوفهم . ولكن يفتحون القلوب والعقول بعدهم وعلمههم .

« كانت القاعدة العامة في كل الفتوح ضم البلاد المفتوحة إلى أملاك الفاتحين . ولم يخرج عن هذا الا الفتح الإسلامي الذي كانت غايته نشر الإسلام ، والسعى لإعلاء كلمة الله كلها ولم يكرهوا أحداً على الإسلام » .

« ان أعظم الفتوح الإسلامية ما أورثت الإنسانية من حضارة وعمان ، وما خدمت العقل البشري وأمتدت به أسباب القوة والحياة ، بالإضافة إلى ما انطوى عليه الحادث التاريخي نفسه من بطولة نادرة » .

« لقد كان الفتح الإسلامي في مجال العلم والثقافة أكبر حدث علمي ،

---

(١) عن مجلة الرسالة : عدة أبحاث سنوات ١٩٣٦ - ١٩٣٨ - ١٩٤٦ .

لأنه حمل إلى البلاد التي فتحها علم السماء والارض فتحرر عقوتها بالتوحيد . وأعتقدها من عبودية الاحججار والاسحاق والقسس والاشراف ووضع في يدها القرآن الذي يأمر بالتفكير في خلق السموات والارض ، ويحظر إلى البحث والاستدلال والنظر ويجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولو لا الفتح لم يكن عقل القرن العشرين ، وهو أعظم حادث في البطولة والفكر والعمران » وهو فتح لم يلزم أحداً او يفرض عليه العقيدة ، او يسوقه الى ذلك إلا بالاقناع « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادهم بما هي أحسن » في حدود قاعدة كبرى « لا إكراه في الدين » أين هذا مما يذكره توماس أرنولد عن أسلوب الغربيين في التبشير بالدين والدعوة اليه يقول : « في بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء إلى ما فعله القديس ليودجر والقديس ويлемادين السكونيين الوثنين أكثر مما يصفى إلى أخبار التعميدات المسيحية التي كان (شارمان) يفرضها بمحى السيف ، ومن ثم أخضع الامم المفلوحة على أمرها للقانون المسيحي بعد أن استبدل مع الممالك المتبربرة في حرب طاحنة مدفوعاً بما كان يضطرم في نفسه من شوق الى نشر العقيدة ، وعلى الرغم مما صادفه القسيس جوتفرید والاسقف كريستان من نجاح في تنصير البروسيين الوثنين . وكان نجاحهما أقل مما صادفه من سبقهما كانوا بحق أكثر تمثيلاً لنشر الدعوة من جماعة إخوان السيف وغيرهم من الصليبيين ، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار ، ولقد فرض فرسان المسيحية على شعب ليفونيا فرضاً » .

وأشار أرنولد الى الملك أولاف تراجنسون الذي كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبووا الدخول في المسيحية ، او تقطيع أيديهم وأرجلهم<sup>(١)</sup> .

وقد أشار كثير من الباحثين الى أن المسيحية فاقت الاديان كلها في إكراه

(١) الدعوة الى الاسلام - توماس أرنولد صفحات ٣٠ الى ٣٢ .

الناس على اعتناقه ، وقد ارتكبت فظائعها باسم السيد المسيح الذي قال في خطبة الجبل «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم<sup>(١)</sup>» .

أما الاسلام فانه في نفس الوقت الذي دعا الى عقیدته بالحسنى ، فانه حفظ الاديان الأخرى وحماها وكرم أنبياءها . يقول توماس أرنولد : « ان الكنيسة المسيحية قوية وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم . وان جميع المذاهب المسيحية كانت تتتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء ، بل ان هؤلاء الحكام من المسلمين هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض » ويكتفون الحرية الدينية للجميع » أين هذا من موقف أوروبا المسيحية إزاء المسلمين في الاندلس والبلقان وغيرها .

ولقد سجل الاب متتشون في مثل هذه المقارنات قوله : انه من الحزن ان تكون الامم المسيحية مضطربة ان تتعلم التسامح الديني من الاسلام ، ويقول أرنست رينان في كتابه : حياة يسوع : ان النصرانية لم تعرف التسامح الديني .

ويقول بيرو روندو معلقاً على هذا الخلاف العميق بين موقف الغرب من الاسلام ، وموقف الاسلام من المغرب : كان في وسع الاسلام حل مشكلة النصارى في الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة ، ولكنه لم يفعل لأن دعوته لم تقم على الفتح في الاساس ، ولم يكن ثمة (إكراه في الدين) لهذا لم يتعرض الاسلام للنصارى واليهود ، ولم يخربم بين الموت او اعتناق الدين الجديد بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يخضعهم لشريعته .

---

(١) توفيق الطويل - قصة الاضطهاد الديني .



## الفصل الثاني

### القرون الوسطى المضيئة

ان اثر الاسلام في تاريخ البشرية كلها ، وفي تاريخ أوربا والعالم الغربي وال المسيحية . لا سبيل الى تجاوزه او انكاره ، ذلك ان معطيات الاسلام كانت بحق مصدر التحول الخطير الذي عرفه العالم بعد الاسلام ليس فقط في الاجزاء التي سيطر عليها الاسلام ، بل وهي كل مكان وصل اليه ضوء من فكره وثقافته.

وقد ظل الاوربيون وقتاً طويلاً ينكرون هذا الامر ويتجاهلونه حتى جاءت اقلام منصفة في السنوات المائة الاخيرة . فكشفت كثيراً من هذه الحقائق . منها اقلام جوستاف لوبيون وتوماس كارليل وآخرين .

ويعتبر الاستاذ هنري بيرون مؤلف كتاب ( محمد وشارلمان ) ان نقطة التحول الخطيرة التي حولت مجرى التاريخ الاوربي هي الاسلام . ويتربّ على هذا ان العصر الوسيط والنهضة الحديثة هما ثرثان من ثراث ظمـور الاسلام . وهو بهذا يرد الزيف الذي ظل مسيطرآ وقتاً طويلاً على التاريخ

الغربي من ان حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية هي الفاصل بين المتصور القديمة والمتصور المتوسطة . ويقول ان الاوربيين قد منعهم تعصيهم القومي في صدر نهضتهم ان يعترفوا بأن ظهور الاسلام هو الحادث الانساني الكبير الذي غير مجرى التاريخ ، وانه هو الحد الفاصل بين القرون الاولى والقرون المتوسطة . ويرى هذا بيريه (ويتابعه في هذا الرأي كثيرون) انه ليس اجتياح الشعوب الجرمانية حدود الرومان هي نقطة التحول في التاريخ الاوربي ، وان هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة بحيث كانت تنظر الى الرومان نظرة العبد الى السادة . فما كان يخطر لها ، بل ما كانت ترغب أبداً ان تناوىء روما وتقضى عليها .

اما المسلمين فكانوا يعتقدون انهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع اسباب الحياة . ولا سيما من الناحية الدينية التي كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم . فلم يتوقفوا عن منازلة الرومان ليقضوا على سلطوهم وسيادتهم . وكانت القبائل الجرمانية ترى نفسها سليمة من اسباب الحضارة ، ومن العقيدة الدينية الراقية . فكانت تتحدى حضارة الرومان ودينهم تشبهها وتقليلها .

اما الشعوب الاسلامية فكانت ترى نفسها جديرة بأن تنجي الرومانيين ديناً جديداً وترشدهم الى مدينة اخرى .

ولهذا فقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظللت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجerman حدودها واستقروا في نواحيها . وكل ما حدث ان انتقل مرکزها من روما الى بيزنطية . وأصاب حالتها المادية والعقلية شيء من الركود والفساد .

ولكن لم تكدد تهب ثورة الاسلام وتسير كتائبها الى اراضي الرومان حتى تلاشي كل ما كان لهم من المعالم والآثار . وكونها كانت رماداً ذرته الرياح . وقامت دولة جديدة ، وظهرت حضارة جديدة ، حاصرت أوربا من الشرق

والجنوب ، فاضطر ملوكها لأن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالي من أوروبا حيث قامت المعارك وحدثت الوقائع التي كففت تاريخ أوروبا في المسر الوسيط .

أما الجزء الجنوبي في أوروبا فلم يقع فيه في تلك العهود سوى موقعة بواتيه التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الاندلس . فلو لا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق . ولظل البحر الابيض بحراً رومانياً . ولما قامت الثورات القومية التي خلقت دول أوروبا الحديثة . ولا الثورات الفكرية التي تخضست عنها الحضارة الراهنة<sup>(١)</sup> .

---

(١) الملال م ١٩٤٠ والفتح .

## ( ٢ )

امتد الزحف الاسلامي حتى قرب بواتيه في جنوب فرنسا عام ١١٤٥ م ٧٣٢ م ثم توقف الزحف ببصورته العسكرية الحربية عند حدود أسبانيا التي استقر فيها الاسلام ثمانمائة عام ، وانتشر العرب في حوض البحر المتوسط ، فسيطروا على كثير من جزائره ودخلوا جنوب ايطاليا ، توقف الزحف العسكري وبقي الزحف الفكري الذي دخل الى اوربا كلها من خلال العلم والجامعة الاسلامية في اسبانيا ولم يكن التوقف عند بواتيه نصرًا لأوربا ، بل على العكس من ذلك كان هزيمة بشهادة مفكريها أنفسهم .

يقول جيمس بريستد : ان العصر الاسلامي في اسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في اوربا . وان الخذلان المسلمين في اسبانيا ، كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية .

ويصل كلود فاريير الى أعمق الحقيقة حين يقول : لقد أناخت على الانسانية سنة ٧٣٢ كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى . إنها فاجعة ربما كانت من أشأم الفواجع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى ، وكان ان غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون او ثمانية : هذه هي معركة

بواتيه : ببابرة المغاربة من الأفرنج بقيادة ( شارل مارتنل ) . هذه الكارثة هي النصر الذي أحرزته جماعات المركاس المتوحشة على فريق من العرب ، في مثل هذا اليوم المشؤوم ، تقهقرت أوربا ثانية مائة سنة ، وكان يمكن أن تصلك اليه فرنسا ، لو أن الإسلام النشيط الحاذق الرحب المتسامح - إذ الإسلام هو هذا كله - استطاع ان ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا يخذلها اسمها . ان هزيمة العرب قد أخرت المدنية . ولو انتصر العرب خلوا مدينتهم الى الغرب ، ولما طالت أيامه في الجهل المطبق .

ويقول هنري دي شامبون : لو لا انتصار شارل مارتنل الممجي على ققدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصبحت بفظائعها . ولو لا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجحت إسبانيا من وصمة حاكم التفتیش . ولو لا ذلك لما تأخرت المدنية الإنسانية ثانية قرون .

ولأرباب ان شهادة ثلاثة من العلماء والمؤرخين الغربيين تكفي في تصور أثر الإسلام في أوروبا ، ومدى ما قدمه للبشرية كلها من قيم جديدة .

لقد أراد الإسلام أن يهدي أوربا هدية الإيمان والعلم معاً . ولكن أوربا قبلت هدية العلم ورفضت الإيمان . وكان هذا هو مصدر شقاها ومتاعبها .

لقد تأخرت أوروبا بتقدير علها ٨٠٠ سنة أي من عام ٧٣٢ الى عام ١٥٠٠ م وهو ما يطلق عليه اسم عصر النهضة ، لم تتوقف خلاها أوروبا

عن مصارعة الإسلام عن طريق بيزنطة . حق كانت الحلات الصليبية التي بدأت عام ١٠٩٩ م أي بعد مرور ثلاثة قرون ونصف القرن . لم تتوقف أوربا خلاها عن مصارعة الإسلام . ثم شاءت أن ترسل حلاتها الدامية التي أقامت المملكة الصليبية في الشام واستمرت قرنين كاملين .

### ( ٣ )

يطلق الاوربيون على الفترة الواقعة بين سقوط روما ٤٥٠ وبين عصر النهضة : اسم القرون الوسطى ، وهي بحق القرون الوسطى المظلمة الاوربية . وقد كانت مظلمة في اوربا وحدها . بينما كانت مضيئة في مختلف أنحاء العالم الاسلامي الى حدود فرنسا نفسها ، وكانت اسبانيا في هذه الفترة مضيئة أيضاً بأضواء الاسلام .

لقد سقطت اوربا في ظلمات القرون الوسطى ألف سنة كاملة فيما بين القرن الخامس والقرن الخامس عشر الميلادي هي فترة ازدهار المدنية والحضارة الاسلامية واتساع آفاقها ، وامتداد ضوئها الى أضخم منطقة في العالم كله من حدود الصين الى حدود فرنسا .

لقد سقطت اوربا بعد ان اعتنقت المسيحية بأكثرب من قرنين من الزمان . ودخلت في مرحلة النهضة بعد أن اتصلت بالفکر الاسلامي اتصالاً مباشراً في الحروب الصليبية بثلاثة قرون . وتمثل القرون الوسطى في اوربا أمرتين : سيطرة الكنيسة ورجال الدين : « سيطرة تجاوزت مجال الحياة الخاصة . والمشاعر العاطفية للأفراد الى مجال الحياة العامة بظاهرها الكبرى من سياسية واقتصادية واجتماعية بحيث أصبح رجل الدين هو الإطار الذي تتحرك في داخله الحياة في القرون الوسطى » .

والأمر الثاني : الاستبداد السياسي ودكتاتورية الحاكم التي لم تقم لإرادة الجماهير وزناً فما يتصل بالأحداث الكبرى خاصة وداخلية استناداً إلى حق شرعي للأباطرة والملوك وأمراء الأقطاع لا يجوز لأحد أن ينزع عنهم فيه .

يقول المؤرخ روبي في كتابه تاريخ الحضارة الفرنسية : كانت المسيحية وقتذاك بالنسبة للجميع ديناً ليس فيه بهجة ، ولا حب أخي . وإنما هي الخطايا وخوف العذاب ، وكان عند الفالبليبة مجموعة من المراسيم وتقالييد من العبادة تدور حول عقائد بدائية ، وخدمات تقدم للأرواح الطيبة لكي تحمى من القوى الشيطانية . ويتصل هذا بمدى انتشار السحر والقوى الخارقة التي تصدر عن آثار القديسين وبقاياهم ومنزلة الصور وقوتها الحقيقة في اعتقاد الناس .

وكان هناك افتراض شيخوخة الدنيا وتوقع انتهائها في العام الالف ، والإيمان بقدرة السحر وإحاطة كل شيء برماسم وطقوس مقدسة وعبادة الموتى ، وتأكيد التشاؤم . وغلظة الحياة ووحشيتها . لقد كانت الصورة مظلمة وقاتمة حقاً في أوروبا خلال هذه الفترة .

لقد مدَّ الإسلام يده إلى أوروبا فامتنعت عنه ، واعتبرت بتعصباً ان بوقعة بواتيه عام ١١٤ هجرية - ٧٣٢ ميلادية علامة على الوقوف في وجه الإسلام من أن يخترق أوروبا ، وتحقق لأوروبا ان تغلق الباب في وجه الإسلام نائية قرون على حد تقدير المؤرخين والباحثين .

كانت الصورة مختلفة غالباً الاختلاف متباعدة غالباً التباهي ، حتى في أوروبا نفسها ، فإن المناطق التي وصل إليها الإسلام من أوروبا : وهي الاندلس (أسبانيا) وجزيرة صقلية أضاءت وبقيت أوروبا كلها مظلمة .

يقول (لونجي رينالد) : بينما كان كل واحد في الاندلس يعرف القراءة والكتابة ، كان في أوروبا جميع المسيحيين حتى نبلاءهم وأشرافهم لا يفكرون

في التعليم . ويشير إلى عدد المكتبات التي كانت في الاندلس حيث كان بها سبعون مكتبة . وكان في مكتبة قرطبة وحدها زهاء السبعين ألف مجلد ، بينما لا يوجد في أوربا كتاب واحد خارج الكتب المقدسة في الكنائس .

ويقول رينالدي : في أيام سقوطنا . نجا العلم إلى ظل الأديرة الهدى حيث كان الرهبان المساكين قد انزواوا في مقصوراتهم ، وأخذوا يمسحون رخامتهم القديمة ليكتبوا عليها أصول دنياه .

وكانت مدينة العرب في القرنين التاسع والعشر في الاندلس وصقلية قد بلغت أوج الكمال . « فلما شعرنا بالحاجة إلى دفع ذلك الجهل الذي كان يثقل كاهلنا تقدمنا إلى العرب ، ومددنا إليهم أيدينا لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدة في العالم » . ومن ثم تسرب العلم من أسبانيا وصقلية إلى بلاد أوربا « لقد اجتاح العالم المسيحي حوالي سنة ١٠٠٠ م غزو إسلامي جديد كان كالسيف الجارف . ولم يكن أي حاجز يقوى على صده ، ولكنه كان في هذه المرة مختلفاً لسابقه ، إذ لم يكن ضغطه على الأجساد بل على العقول . ذلك الغزو ، كان التهذيب العربي والمدنية العربية ، فإن شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الأرض بعد سقوط المدنتين : الرومانية واليونانية . واندثار معالمها . وبذلك قام العرب بازالة ظلمات ببربرية القرون الوسطى بإعادة نور الحضارة والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية » .



وهكذا رفضت أوربا الفتح الإسلامي عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ م . ولكنها عادت فتقدمت إلى المسلمين بعد ذلك بأكثر من قرن تطلب علمهم .

يقول رينالدي : « إن جلبرت الذي كان باباً عام ٩٩٩ ميلادية تحت اسم سلفستر الثاني تلقى دروسه كلها في مدارس العرب بالأندلس . ولما رجع

إلى أوروبا وأراد نشر ما أخذه من العلوم بين مواطنه ظهر لهم ما نشره غربياً جداً، حتى اتهموه بأنه باع روحه للجبن». ومنذ عام ١١٣٠ بمدينة طليطلة بدأت ترجمة الفكر الإسلامي.

يقول رينالدي: «كان العالم المسيحي في ذلك الوقت في صراع مع العالم العربي فبيتـاً كان رسل الصليبيـن بعدهم وعـدـهـم يعمـلـون لانتـزـاعـ الأمـاـكـنـ المـقـدـسـةـ منـ أيـديـ العـرـبـ فيـ الشـرـقـ، كانواـ هـنـاـ فيـ الـغـرـبـ يـنـتـزـعـونـ مـنـهـمـ مـلـكـ الـعـلـمـ وـالـعـرـفـانـ» ونـقـولـ نـعـمـ: وـاـنـهـمـ بـعـدـ انـ اـنـتـزـعـواـ الـعـلـمـ الـاسـلـامـيـ وـالـمـنـجـ العـلـمـيـ التـجـريـيـ منـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ، قـطـعـواـ تـلـكـ الرـابـطـةـ، وـأـخـرـجـواـ كـلـ عـرـبـيـ وـمـسـلـمـ وـاستـعـادـواـ أـورـباـ حـقـ جـبـلـ طـارـقـ. ثـمـ أـعـلـنـواـ إـنـهـمـ لـمـ يـأـخـذـوـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ شـيـئـاـ وـأـنـ الـمـسـلـمـيـنـ لـمـ يـكـنـ لـهـمـ عـلـمـ، وـإـنـاـ كـانـوـاـ نـقـلـةـ فـقـطـ لـتـرـاثـ الـيـونـانـ الـقـدـيمـ».

●

تلك هي الصورة من الجانبين: المسلمين يحملون لواء الحضارة والضياء العلمي وأوروبا التي ردت يدها عن الإسلام تريد أن تأخذ نتاج المسلمين الذي أعطاهم إيمان دينهم ثم تحطمهم. وهؤلاء الذين ظهروا لأول مرة في تاريخ العالم في أوروبا يعلنون أنهم تعلموا على المسلمين، وأنهم يأخذون أطراف منهجهم العلمي التجريبي. وليس أصدق في هذا من شهادة روجر بيكون: الذي يشهد بأنه تعلم على خلفاء معلمين من الاندلس في جامعة أكسفورد. والذي يقرر حسباً أورده العلامة بريفولت في كتابه (بناء الإنسانية). «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموهلينا من كشف مدهشة لنظريات فتنكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا: انه يدين لها بوجوده نفسه» ويعلق بريفولت فيقول: «إن ما ندعوه العلم قد ظهر

في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة . ويطرق من مستحدث فن التجربة والللاحظة والمقاييس . ولتطور الرياضيات الى صور لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج : إنما أدخلتها العرب الى العالم الاوربي » هذا عطاء الإسلام لأوربا وهو مصدر نهضتها الحديثة في القرن الخامس عشر .

## ( ٤ )

زحف الغربيون إلى العالم الإسلامي في الحروب الصليبية تحت لواء الخصومة والحق و التغصب وباسم استعادة بيت المقدس . وفي خلال فترة مائة وخمسين عاماً على الأقل ( ١٠٩٩ - ١٢٤٩ ) لم تتوقف الحملات الصليبية الزاحفة من أوربا على قلب العالم الإسلامي في فلسطين والشام وساحل البحر الأبيض ( بين حيفا و يافا وتونس ودمياط ) وجاء بعض هذه الحملات تحت زعامة ملوك أوربا . وكانت القوة الدافعة لها عنيفة في الدعوة ، والتحرىض كان يحمل طابع الغزو والتغصب والكراهية .

« لقد كان للكنيسة طموحها السياسي الواسع وسلطانها القوي على الحياة العامة » ، « وكان للبابا جريجوار السابع والبابا أوربان الثاني أثراً خطيراً في الحملة على الإسلام .

الأول : في دوره الخطير في تحويل القتال بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا إلى صرخة صليبية شاملة شاركت فيها أوربا على اختلاف أقطارها . وكان لها آثارها البعيدة في حياة إسبانيا الإسلامية .

والثاني : هو الذي حل لواء الحروب الصليبية وحملة التحرىض على قتال المسلمين في ديارهم » .

وقد أوقعت الحملة الصليبية الأولى بال المسلمين أبشع مجزرة بشرية في التاريخ بقتلها سبعين ألفاً هم سكان مدينة القدس المسلمين ، أفنواهم في ثمانية أيام ولم يستثنوا امرأة ولا ولداً ولا شيخاً .

يقول أورين أ. كالفبرالي : لا شك ان القرون التي اشتغلت فيها الحروب الصليبية تعتبر أعظم فترة يندى لها جبين المسيحية في كل عصورها . وقد مر على نهاية هذه الحروب خمسائة سنة من الزمان ولكن هذا العهد الطويل لم يمح الخزي والأكاذيب التي خلفها الصليبيون في بلاد المشرق . ولكن كيف قابل المسلمون هذا الموقف بعد أن استردوا إرادتهم وحرروا القدس . لقد رفض صلاح الدين المعاملة بالمثل ، وقال ان الاسلام ينهى عن ذلك . ومن هنا فان صلاح الدين لما دخل بيت المقدس ظافراً منتصراً لم يسفك دماً . ولم تنهب جيوشه بيته وأمن الجميع على أموالهم وأموالهم . قالوا له : أما وقد كتب لك الظفر على أعدائك . فلِمَ لم تنتقم منهم وأنت تعلم ما فعلوا من الفظائع .

قال صلاح الدين : هذا ما يعني منه ديني وضيوري . قالوا : هل دينك ينبعك من الانتقام من قوم بدأوك بالعدوان وساموا قومك الخسف والعذاب . قال نعم : ان ديننا ينبعنا من أن ننجازي خصومنا في عنادهم ، ويأمرنا أن تكون أوفياء لعهودنا ، وأن نصفح عن أساء .

ولما قسمت غنائم الحرب تنازل صلاح الدين عن نصيبه للقراء وأعتقد أسراه . وعندما بدأ الفرنجية يرحلون ، ترك للصلبيين المدينة حق لا يجرح شعورهم ، ووقف مناديه من مطلع الشمس الى غروبها ينادي : هل من فقير فنثويه ، أو عاجز عن دفع الجريمة فنعطيه . وعفا عن سبعة آلاف من العجوز عن الضريبة . ودفع بعضها من جيشه الخاص ، ورفض أن يصادر اموال بطريقك بيت المقدس عند خروجه منها . وسمح للفرنج المدنيين اذا شاؤوا أن

يعيشوا ، أما الحاربون فعلىهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم . وحمل الكهنة ذخائرهم الذهبية ، وخرجوا بها . ولم يتعرض لهم أحد بأذى ، بل قدمت الدواب لكتير من الدين لا يجدون ما يركبونه .

وقد شهد المؤرخون الغربيون - وربما لم يجتمعوا على حق كما اجتمعوا على صفة صلاح الدين - شهدوا بكلم أخلاقه وسماته وبأنه عامل نساء الصليبيين معاملة حميدة ، وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات ، ومعهن أمواهن وأتباعهن وحشمن ، وعامل الاميرات الأسيرات بكل تكريم ، وسمح لهن بإطلاق سراحهن . وبذا الفرق واضحاً بين سلوك الاسلام ممثلاً في صلاح الدين عندما استرد القدس عام ١١٨٧ . وبين ما فعله الصليبيون عندما سقطت في أيديهم عام ١٠٩٩ ، فقد قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين .



كان المسلمون في جميع أدوار الحروب الصليبية<sup>(١)</sup> يتصرفون في حدود مفهوم الاسلام رفقاً وعدلاً في دار الحرب والسلام . كان الصليبيون في الحملة الاولى قد سفكوا دماء المسلمين في المسجد الاقصى بحيث كان الفارس منهم يخوض الى رجل فيه في دماء المسلمين على حد ما سجله للافيس ورامبو في كتابه التاريخ العام . وذهبوا الى أبعد من ذلك حق يقول العلامة ميشو في كتابه تاريخ الحروب الصليبية : انهم قتلوا في معركة النعسان وحدها جميع من كان فيما من المسلمين اللاجئين الى المساجد ، والمخفيين في السراديب وأهللوكوا صبراً (دون قتال) ما يزيد على ألف ومائة مسلم .

يقول ميشو : لقد تعصب الصليبيون في القدس التعصب الأعمى الذي لم

---

(١) راجع الاسلام وحركة التاريخ للمؤلف .

يسبق له نظير حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخיהם . فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعلى البروج والبيوت ويحملونهم طعاماً للنار ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض إلى الساحات حيث يقتلونهم فوق جثث الآدميين . وقد دام الذبح في المسلمين أسبوعاً حتى قتل منهم على ما اتفق في رواية مؤرخي الشرق والغرب سبعون ألف فسمة . كما أحرقوا دار الحكمة في طرابلس ، وكان فيها نحو مائة ألف مجلد من الفكر الإسلامي ، فإذا راجعنا ما فعله صلاح الدين بعد سيطرته على القدس . وكان بها مائة ألف من الفرنجية والصلبيين (منهم ستون ألف راجل وفارس) غير النساء والأطفال لعرفنا كيف كانت ساحة الإسلام .

وكان موقف صلاح الدين من ملوك الفرنجية آية في ساحة الإسلام . فعندما فقد ريكاردوس ملك إنجلترا جواده أرسل له صلاح الدين جوادين عوضاً عنه ، ولما مرض وقادته الحمى أرسل إليه هدية من الثلج والفاكهه .

يقول الاستاذ ايوركا المؤرخ : لا يتأتى برهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر ما عامل به الصليبيين حقاً لقد هدد أصحاب السفن من رعاية الجمهوريات الايطالية ليعيدوا هؤلاء اليائسين من الصليبيين ، وقال المؤرخ مثرو : كان صلاح الدين محباً في الغرب لشhamاته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم ولسلوكي سلوكاً آخر غير سلوك الصليبيين أثار دهشهم وعجبهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح مشهوراً به .

وقد كان للحروب الصليبية آثارها البعيدة المدى . وأخطر هذه الآثار أن العائددين كشفوا لأهليهم وأوطانهم فساد الادعاء بتعصب المسلمين . وتحدثوا في ذرة الإعجاب والتقدير لساحة المسلمين مما كان له أبعد الأثر في إيقاع الكنيسة العقاب بهم وقتل كثير منهم . والامر الأشد خطورة

هو ان الغرب نقل معه الفروسيّة والعلوم ، وتحول الى مدينة الاسلام  
وإنسانيته .

وهنا يأتي السؤال الخطير الذي ألقاه المؤرخون : هل الحضارة الغربية  
هي نتاج المسيحية الغربية التي كان قد مرضى عليها في عصر النهضة ألف  
وخمسمائة سنة . أم ان هذه الحضارة من معطيات الاسلام ؟

## (٥)

لماذا لم تكن المسيحية مصدر الحضارة الغربية ؟ يقول [ليوبولد فلبس] : ليس المفروض في النصرانية أن تكون الهيكل الروحي للمدينة الغربية عقيدة مبنية على الأخلاق المطلقة . كما هي الحال في الإسلام . لا شك أنها كذلك . ولكن حينئذ لا يمكن أن ينطوي خطأً أفح من أن يعتقد أن المدينة الغربية الحديثة نتاج النصرانية .

لقد بقى الروح الأوروبي قروناً طويلاً يرث تحت عباء نظام ديني يطوي في نفسه احتقار الحياة ، واحتقار الطبيعة . ومن الجلي أن مثل هذا النظام لا يحث على نشاط الجمود المتعلق بالمعارف الدينية ولا يتحسس أحوال الحياة على الأرض .

وخلاله القول أن المدينة الأوروبية قائمة على أساس المدينة الرومانية الوثنية . وهي لم تأخذ من النصرانية التي اعتنقها لأسباب سياسية قاهرة سوى الطلاء فحسب . ثم أن المدينة الأوروبية لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة . ومن هنا نجد فارقاً عظيمًا بينها وبين الإسلام .

ويقول العلامة مسمري : إن الدين النصراني ظهر في عصر الامبراطور أغسطسوس وقت ما كان التمدن الروماني في درجة العليا . وكان منشوئ في بيته اليهود ، وما استطاع ان ينتشر منها في بلاد الاغريق الرومانيين

التي كانت أعظم بلاد متقدمة في ذلك الوقت . ومنها كان عليه أن يحفظ ما وجده فيها من المعارف والتقدم ويستمر عليه . أما دين الاسلام فقد كان ظهوره في زمن لم يبق فيه أثر لهذا التمدن الروماني . ومهده كان في جزيرة العرب ، وهي بلاد مقرفة في ذلك العهد . أهل خرافات وأوهام وعبداً أصنام جهمة ليس لعقلهم أي استعداد لهذا التمدن الاغريقي الروماني ولا براعة لهم إلا في قول الشعر . ومع ذلك فترى ان الدين النصراني أطفأ المصباح الذي كان استله عباد الأصنام ، فلما جاء دين الاسلام أضاءه واستنارت الدنيا ، وكان ذلك [تحقيقاً لقانون التمدن الذي مقضاه منع الطبيعة من التقاعد والتقمّر] . ان أساس الدين الاسلامي يقتضي قواعد العلم أرفع من أساس الدين النصراني بالمسافة التي تفصل الاعتقاد بإله واحد مخالف للحوادث والاعتقاد بإله مركب من ثلاثة آله ظهروا على الارض في هيئة انسان ، كما ان مبدأه كان أذعن وأجدى من اخذه ديناً . فدين الاسلام جاء ليوفّق بين جمع عظيم من بني آدم كان يقاتل بعضهم بعضاً بسبب الأديان السابقة . وينشر العلوم بين أمم كانت قبل مجئه غارقة في الجهل .

ان الدنيا كانت في هذا الوقت : أي وقت ظهور محمد ﷺ محتاجة لمن ينقذها من الاهوال التي كانت فيها ، ومن شذّ وقال ان محمد كذاب ، فقد بت في المسألة بدون ان يحلّتها ويبيّن اسباب نجاح محمد . أما نحن معاشر الفلاسفة الحقيقيين . فنقول ان الرجال العظيماء الذين تبقى أعمالهم خالدة مدى الأزلمنة هم من اهل النباهة الفائقة يحيطون لإصلاح العالم ولشفاء عصرهم من مرضه .

ومن تأمل كلام القرآن رأى ان محور الاسلام الوحدانية وقطبيه المؤاخاة وتحسين شؤون العالم بالتدريج بواسطة العلم . فهذه هي حقيقة اسباب نصرة الاسلام . ومن سنة ٧٤٣ من الميلاد أي بعد مائة وحادي عشرة سنة من وفاة محمد . كانت دولة الاسلام اكبر من دولة الاسكندر المقدوني وقدر مملكته

يُصْر تقربياً . وفي عام ١٥٦٦ عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين بفضل ذلك يتضح أن عظمة الإسلام مكثت ألف سنة وان التاريخ يقيناً حقيقتين :

ال الأولى : أن تقدم العلوم في وقتنا هذا حصل رغمَ عن الدين النصراني . أما دين الإسلام فعلى العكس من ذلك، أي لا يمكن ان يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم وتقدمها . فان بين الإسلام والعلوم رابطة كثيرة .

الثانية : أن النصراني اذا صار عالمًا ترك دينه بخلاف المسلم فانه لا يترك الا اذا صار جاهلاً ، فبأي وجه يمكن نسبة التمدن الحالي الى الدين النصراني . وحالما أنه ما جاء الا بعد خمسة عشر قرناً من ظهوره .

ولقد عالج هذه النقطة كثيرون غير العلامة (مسمر) وكشفوا عن الفرق الزمني بين حضارة الغرب وبين ظهور المسيحية ، واستندوا الى وقائع التاريخ التي تثبت ان العصور الوسطى الاوروبية هي فترة ما قبل ظهور الإسلام . وان الحضارة الإسلامية ظهرت وأضاءت العالم منذ القرن السابع الميلادي . وان أوروبا لم تبدأ حضارتها الا في القرن الخامس عشر ، بعد ان صادرت كل منتجات الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي في إسبانيا . وطردت العرب كما طردت الإسلام نفسه .

ومن هنا فلا صلة مطلقاً بين النصرانية وبين الترقي الأوروبي . وان الصلة كل الصلة بين الترقي الأوروبي والإسلام . وان بين نشأة الحضارة الغربية وبين نشأة المسيحية مسافة ألف وخمسمائة سنة . وان المسيحية قدمت لأوروبا الرهبانية ، وان الإسلام هو الذي قدم العلم على حد تعبير ليوبولد فلبيس . وان هناك إجماعاً على ان أوروبا لم تتقدم فكراً ولا ثقافة ولا علمياً الا بعد ان ثارت على سلطان الكنيسة . وتحررت تحرراً تاماً منه . وان للإسلام ايضاً دوره في حركة الاصلاح المسيحي .

ولا ريب ان حركة الاصلاح الديني التي كانت تقوم على إعطاء الانسان حق الحكم الشخصي في قراءة الانجيل وفي الاتصال بالله دون واسطة ، « وتحرير العقول من العبودية التي وضع نيرها رجال اللاهوت » انا ترجع الى مفاهيم الاسلام التي طرحتها في اوربا .

فالاسلام لا ريب أهدى اوربا حركة الاصلاح الديني التي حمل لواءها لوثر وكالفن . ثم أعطتها المنهج العلمي التجاري الذي حمل لواء فرنسيس بيسكون . بل ان الاسلام هو الذي أهدى اوربا الانسنية المدنية في مقابل المموجية .

يقول بارتلمي سانهيلر : أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سراثنا الاقطاعيين الغليظة في القرون الوسطى . وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبسها وأرحمها من غير ان يفقدوا شيئاً من شجاعتهم . وأشك في ان تكون النصرانية وحدها قد أوحت اليهم بذلك منها بولغ في كرمها .

وكان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم . وان هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم . فلا تشارکهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، فالعرب هم الذين هذبوا البرابرة الذين قصوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي . والعرب هم الذين فتحوا لأوربا ما كانت تجده من عالم المعرف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي فكأنوا مدنين لأوربا » .

ولقد كانت الكنيسة تنادي بأنها الصلة الوحيدة بين الله والإنسان ، وبأنه لا يصل الى الله دعاء او صلاة ، او استغفار إلا عن طريق الكنيسة ورجالها ، فأأخذ لوثر وكلفن من الاسلام ذلك المفهوم القائل بأن العلاقة بين الله والانسان مباشرة . وانه ليس لرأي بشري حرمة التقديس وبنظره واحدة الى منشور لوثر تجد مفهوم الاسلام فيه واضحاً وصريحاً . ولا ريب ان تعاليم الاسلام التي ذاعت في اوربا هي التي أمدت لوثر بهذا الضوء الذي ضنه دعوته من القول بأن اتخاذ الصور والتماثيل والسبحون لها أقرب الى الوثنية . وان الكتاب

المقدس هو المصدر الوحيد للدين ، ومن حق كل انسان قادر ان يقرأ الكتاب المقدس ويفهمه من دعوته الى فك عقد زواج الكهنة ، وإلغاء صكوك الغفران . و قوله ان البابا لا يستطيع ان يرفع عن الانسان قصاصات الخطيئة ، ولا ريب ان الاسلام حفظ المسيحية ورسمها في أنقى صوره حين اعتنف بعيسى الرسول ومعجزة ولادته . و كرم جميع الانبياء والكتب .



### **الفصل الثالث**

## **المسلمون والمتوسط**

جاء الاسلام فاصلاً بين عهدين في تاريخ البشرية . وجاءت معطيات الاسلام متميزة عن كل ما سبقة ، وصحح كل مفاهيم التوحيد والاخلاق والاجتاع ، ووضعها في الصورة النهائية انطلاقاً من مفهوم أصيل هو ان ثمار المعرفة الانسانية الحقة ، اغا جاءت بها الأديان السماوية المنزلة ، وهي وإن اختلطت بالفلسفات والتفسيرات البشرية، ومفاهيم الوثنية، والتعدد والعنصرية وعبادة الاجساد والابطال . فان الاسلام قد أعادها مرة اخرى الى وضعها الصحيح ، فلقد جاء الاسلام راسماً المنهج الرباني الذي يهدي البشرية الى الانسانية والتوحيد الحق . ويحرر العالم من زيف نظريات الفكر البشري . ومن اضطرابها وفسادها .

ومنذ جاء الاسلام . فقد وقف التاريخ وقفه حاسمة ، ووضع حدأً فاصلاً بين كل ما سبقة . وبين هذا العصر الجديد ، فقد حددت ولادة الاسلام الفاصل العميق بين حضارتين : حضارة الوثنية وحضارة التوحيد . ومن ثم انشطر البحر المتوسط الى شطرين . فقد بزرت حضارة لها طابعها وذاتيتها

وتشكيلها الروحي والفكري والاجتماعي والنفسى . ومن خلال الإسلام قامت حضارة لها مضمونها الاجتماعى ولها نظريتها الخاصة . ولها أسلوبها فى المعرفة ولهما منهجهما العلمي التجربى الذى قدمته إلى البشرية كلها وقادت عليه الحضارة الحديثة .

وأعظم معطيات حضارة الإسلام : تدين الإنسان وتحرير البشر من عبودية الفكر والجسد وأغلال الظلم والاستعباد الذى كبلته بها حضارات أربع هي : الفرعونية والرومانية والفارسية والمندية .

لقد قامت حضارة الإسلام<sup>(١)</sup> على وحدانية القيم التي هي من وحدانية الله الذى أعطت البشرية وحدة المعيار الخلقي . وأعني به وحدة المعيار بين مختلف الناس بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم .

« ولب هذه الرسالة أن الله موجود وأنه واحد . أما وجوده فمعناه عند العقل العربي . فهو وجود القيم وجوداً مستقلاً عن الإنسان ووجوده ، أعني أنها ليست من صنع الإنسان يصنعها كا تقتضي ظروف عيشه ، ومعناه كذلك عند العقل العربي . إن حياة الإنسان على هذه الأرض لم تكن عبشاً .

أما كون الله واحداً فمعناه عند العقل العربي ان القيم تحمل معياراً واحداً لا يتآثر باختلاف الزمان والمكان . «فالمعيار واحد بكل انسان . أنتى كان وحيثما كان ، فليس لكل مجموعة من الناس معيارها الخلقي ، ومعيارها الذي تعيش به . الحق بل الخير خير بالنسبة لكل البشر . والحق حق بالنسبة للناس أجمعين » .

فالقول بوجود الله ووحدانيته . إذن هو في صميم الاعتراف ب موضوعية

---

(١) عن بحث الدكتور اسماعيل راجي الفاروقى .

القيم وتخليصها من قيود (النسبية) التي تقر اختلاف المعايير باختلاف الظروف .

فالإنسان أمام الله هو الإنسان ، لا اختلاف بين فرد وفرد اذا ما قيس الأقرار بمقاييس الأخلاق الذي هو مقياس الحق . وهذا ما غير العروبة عن سائر أهل الأرض جمِيعاً ، ذلك باعتقاد ان القيم الأخلاقية حقيقة مبعوثة إليه من السماء هداية له في سيره ، على ان تلك القيم لم ترسُل اليه دفعة واحدة ، بل أرسلت على دفعات بواسطة الأنبياء من آدم الى محمد . وكانت الرسالة الأخلاقية تزداد على مر الأئمَّة قوَّة وجلاءً كلما زاد الوعي العربي بها .



هذا التمييز الواضح بين الفكر الذي قدمه الإسلام والفكر البشري الذي كان يصر على الوثنية والعنصرية والهوى .

ومعنى هذا ان الحضارة الإسلامية لم تكن جزءاً من حضارة سابقة . ولم تكن مجرد ناقلة علوم اليونان فقد جاء ذلك بعد أن قدمت قيمها الأساسية . وأقامت بها منهاجاً وذاتية وكياناً . وإنها في كل ما قدمت كانت مختلفة كل الاختلاف عما طرحته الفكر البشري السابق عليها . بل ان بعض الباحثين يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيقرر العلامة علال الفاسي ان العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول لم تكن إلا تمهيداً لإبلاغ الإنسان رشدَه عن طريق إكمال الدين .

ولم يكن محمد بدعاً من الرسل فقد سبقته نبوّات ورسالات كما سبقته دعوات اصلاحية تشمل كل بقاع العالم . ولكنها لم توفق إلى البقاء وأصابها الانحراف الذي يستوجب أن تجده او تصلح لتفتح آفاق التقدم الإنساني . فكان لا بد من بعث الرسول الخاتم الذي يضع الإنسان في جوّ الرشد المبني

على العقل والروح والقلب والجسم . فكل ما سبق من عمليات التاريخ . كان يهدف لغاية واحدة : هي وجود الرسول نفسه . وبذلك يصبح ماضي الأمة ، وકأنه ما قبل التاريخ . أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الإسلامي .



ومن هنا نستطيع أن نقول بزيف دعوى وحدة الحضارة في حوض المتوسط التي يحاول بعض الكتاب اعتبار الإسلام جزءاً منها . كما نستطيع ان نقرر خطأ القول بأن الحضارة الإسلامية امتداد للمجتمع السرياني كا حاول المؤرخ توبيني ان يقول بذلك . وان الإسلام كان اضافه جديدة واضحة ومنهجاً له ذاتيته الخاصة . وأنه قد غير كل شيء بعد ذلك . وأثر أثراً كبيراً في مجرى التاريخ والحضارة . وبلغت آثاره الى قلب أوروبا ، وإلى قلب الفكر الغربي المسيحي . وأنه كان بعيد الأثر في حضارات الهند وفي الاديان والمذاهب القائمة ، وكان أثراً واسحاً حق في الأقطار التي لم تعتنقه . فقد عدل كثيراً من اتجاهاتها . وأدخل اليها الكثير .

وليس أدل من الأثر العميق الذي أحدثه في إسبانيا وفي جنوب فرنسا وجنوبي إيطاليا . وهذا الأثر الذي ما زال باقياً في اللغات والمفاهيم والمجتمعات .



وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوروبيين بهذا الأثر . ومنهم هنري بيرين (المؤرخ البلجيكي) الذي يقول : ان البحر الأبيض المتوسط كان حلقة اتصال مستمر بين الحضارات التي نشأت حول شواطئه منذ العصور القديمة حتى اكتسبت تلك الحضارة طابعاً جاز ان نسميه طابع البحر المتوسط . ولكن الحدث الكبير الذي قلب الوضع رأساً على عقب هو ظهور الإسلام الفجائي

في القرن السابع الميلادي على مسرح الأحداث . وما كان من استيلائه على المواني الشرقية الجنوبية والغربية من (البحيرة الاوربية) !

ومنذ ذلك الوقت أصبح البحر المتوسط سداً وحاجزاً بين الغرب والشرق بعد أن كان معبراً وأداة اتصال على الرغم من أن الدولة البيزنطية بفضل أسطولها استطاعت أن ترد المسلمين عن بحر إيميه والأدریاتيك والشاطئ الجنوبي من ايطاليا . إلا أن البحر المتوسط لم يلبث أن سقط كاملاً في أيدي العرب فظوقوه من الجنوب ومن الغرب بفتحهم المغرب وأسبانيا وباستيلائهم على جزر البليارو كورسيكا وسردينيا وصيقيلية . وتبعاً لذلك فانه منذ القرن الثامن الميلادي حكم على التجارة الاوربية بالموت في تلك المنطقة . وانتقلت حركة النشاط التجاري كلها نحو بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية .

ومن ثم فان هذه الشواطئ التي قامت عليها في يوم من الأيام علائق ترتكز على وحدة العادات وال حاجات والافكار ، قامت فيها حضارات : بل عالمان يواجه أحدهما الآخر .

ان التوازن الاقتصادي الذي قام منذ العصور القديمة . واستمر حياً بعد الفروقات الجرمانية قد انتهى أيام الفزو الاسلامي .

ومن هذه الحقيقة ظهر بالضرورة نظام اقتصادي جديد . ولعل هذا هو السر في تلك الصيغات الملائمة بالحدق التي تنبعت من الغرب ، والتي كانت مصدر الاملاط الصليبية على فلسطين وبيت المقدس ومصر في نفس الوقت الذي اتجهت فيه حملات الفرنجية على الاندلس والمغرب تحت دعوى باطلة . هي إعادة المسلمين الى الجزيرة العربية واستعادة الاجزاء الى ما كانت عليه أولاً في المغرب وسوريا ومصر .

ولا ريب ان المراجعة الصحيحة للتاريخ تكشف عن ان هذه الاجزاء

كانت عربية قبل الاحتلال الروماني بأكثر من ألفي عام . وأن أوربا لم تكن تملّكها وإن كانت قد احتلتها بالغصب تحت ظلم الإمبراطورية الرومانية المستبدة . بل إن هناك ما هو أبعد من هذا . فان هذا الاحتلال الذي دام طويلاً لم يستطع ان يفرض لغة الرومان ولا فكرهم ، ولم تثبت هذه الأجزاء ان عادت الى أصولها التي تربطها بالإسلام لغة وديناً وفكراً .

ولتكن مصر عاشت ألف سنة – منذ دخول الاسكندر لمصر الى دخول العرب – تحت نفوذ الرومان . او على اتصال بثقافة الإغريق ، فان ذلك كله لم يليث ان تبخر في الهواء وذاب كالثلج ، فقد كان الإسلام ليس ثقافة متعلبة كاسحة ، ولكنها كان الفطرة وكان تجديداً للحنينية السمحاء ( دين ابراهيم ) الذي كان قد عاشه منذ ثلاثة آلاف سنة .

ولا ريب ان التوحيد الحالص هو الضوء الكاشف الذي تزول أمامه غواشي الثقافات والفلسفات . وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

أما تلك الثقافات . فقد كانت مضادة للفطرة وللتوحيد، وكانت مفروضة فرضاً مع النظام العبودي القاسي ، وكانت النفس العربية رافضة لها رفضاً واضحاً ، وما زالت تلتمس أي كوة من كوى الضوء في دين سماوي حق . فلما وجدت ذلك في الاسلام تبخرت تلك السنوات الالاف بتراوتها وضاعت وكأنها لم تكن .

لقد انطوت تلك الصفحة نهائياً: صفحة الوثنية والعبودية والتعدد وعبادة النار ، وعبادة الفرعون والمجوسية ، وذابت تماماً وانطوت امبراطوريات أربع وتقوضت تحت ضربات التوحيد ، واكتسحت اللغة العربية كل اللغات ، كما اكتسح الفكر الاسلامي كل فكر سواه ، وخلقت المنطقة مرة اخرى لكلمة الله . ولا عبرة بما يقال من اقتباسات المسلمين من البيزنطيين والنصارى واليهود وصائبة حران . فان ذلك كله لم يكن الا في إطار الصورة القائمة

على التوحيد والعدل والاعان بالغيب ، والتي هدت الى النهج التجوبي . فإذا أعطت حضارة المتوسط القدية شيئاً إلا إضافات ، ولكنها أخذت كثيراً وتجددت وعدلت عن منهاجها .

ولم يكن بالحق دور المسلمين كدور الأبيين والفينقيين واليونان والرومان . ولكنه كان كبيراً جداً . وكان عطاء الإسلام عظيم الأثر . فقد زلزل كل قواعد الفكر والحضارة وجدد العقيدة . وحرر النفس الإنسانية ، وأقام الأمة الوسطى : عالم العرب والاسلام ليحمل كلمة الله الحق .



ولقد كشف جوستاف فون جرونيام كيف أثر الاسلام في أوربا<sup>(١)</sup> : « ظل الاسلام يؤثر في الوضع الاوربي في معظم الأمر بظهوره في ثوب الحظر الدائم . والخواذه صورة محيرة تمثل عالماً مختلفاً قريباً يجعل منها حقيقة مائة » ولما كانت أوربا لم تكفل تماماً عن التطلع جنوباً وشرقاً . فإن وجود الاسلام ومثوله بقوة في الأذهان ظل يبدو لأعين الاوربيين أضخم حقيقة على الدوام تقريباً ، ولم يحدث البتة على مر العصور أن حقيقة مفردة لعبت في صوغ العلاقات الدولية في العصور الوسطى دوراً أكبر من الذي لعبه وجود دولة قوية غامضة لا يمكن التكهن بحقيقةها على الجانب الآخر من ذلك البحر الذي كان العرب كلفين بتسميتها البحر الاوسط .

ثم يشير جرونيام الى السر في عظمة الاسلام: ويرجعها الى مصدرها وهو شعور المسلم بأنه دين هو خاتم الأديان ، وأنه هو الحق الذي لا حق سواه ، وأنه يسير في طريق الخلاص والسعادة السرمدية .

---

(١) حضارة الاسلام بجوستاف فون .

ويصل جروننيام الى القول بأن العالم المسيحي ينحص الاسلام باهتمام يفوق كل ما تلقاه منه .



هذا الاهتمام الذي كان صوراً متعددة من عدوان الغرب الدائم للقضاء على الاسلام واستئصاله في نفس الوقت الذي لم يكن الاسلام عدواً بأي صورة من الصور .

ويؤكد هذا المعنى الكثيرون : ويقول تويني في كتابه الحضارة في فترة اختبار . الاسلام لم يدخل في مرحلة مع رسالة عيسى . ولكن مع الكنيسة المسيحية التي استولت على عقول الروم واستسلمت الى ما دعت اليه الوثنية الإغريقية من الشرك وعبادة الأصنام . وان الاسلام قد استنكر هذا الشرك واسترد عبادة الإله الواحد ، الذي دعا ابراهيم الى عبادته من قبل ، وهكذا حمل الاسلام شعلة التوحيد بين المسيحيين المشركين من جهة ، والهندوس المشركين من جهة اخرى ولا ريب ان الاسلام قد قضى على النزعة العنصرية ، والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الاخاء الاسلامي والمساواة المطلقة بين المسلمين .



وليس شك ان الاسلام هو الذي أدخل العرب التاريخ العالمي حينما حملوا لواءه . وذهبوا به الى أقصى الارض ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يتوجهون خمس مرات في اليوم الى قبلتهم في البيت الحرام . ولا ينسون أبداً ان هناك رابطة تربطهم بكل من يردد لا إله إلا الله في أقصى الارض . وأنهم

يستحقون المطابا الى الطواف بالبيت . ولا يرون أي غضاضة في ان يولوا  
وجوههم شطر المسجد الحرام . ويربطوا أنفسهم بذلك التاريخ الذي بدأ في  
قلب الصحراء .

وليس صحيحاً ما يردد البعض من أن المسلمين قد ولدوا وجوههم نحو  
البحر المتوسط . ولم يولوا وجوههم شطر الصحراء البتة .



## الفصل الرابع

### التاريخ الاسلامي

لا ريب أن الاسلام له منهجه الخاص في فهم التاريخ وتفسيره : هذا المنهج المستمد من جوهر الاسلام نفسه . وان كل محاولة لتفسيره وفق منهج غير منهجه ، إنما تخرج به عن أصوله وحقيقة « فال تاريخ الاسلامي جزء من الاسلام ككل وغير منفصل عنه<sup>(١)</sup> وان التاريخ الاسلامي قبل أن يكون تاريخ حوادث وفکر هو تاريخ عقيدة شاملة لها سماتها وخصائصها المميزة » .

ومن أجل هذا فان دراسته تقتضي النظر فيه نظرة متكاملة ، دون ان يمتد الى مقاطع ، وان محاولة تمزيقه تقتضي بخطأ النظرة وقصورها ، وان النظر فيه يجب ان يجري وفق مفاهيم الاسلام نفسه ، دون الاعتداد على المناهج الوافية ، ذلك ان هناك ضرورة كبيرة لفهم اصول الاسلام ومدى تطبيقها على التاريخ وخاصة في اسس ثلاثة :

---

(١) دكتور عبد الرحمن الحبشي ( دراسة التاريخ الاسلامي ) .

(اولاً) ان الدعوة الاسلامية هي رسالة ربانية سماوية ، وليس سلطاناً أرضياً تنطبق عليه مفاهيم الدول والملوك وقيمهن .

(ثانياً) ان مفهوم الجهاد هو أساس دراسة المعارك والفتح . ومن هنا يت Hutchinson فهم الإيمان بالشهادة في سبيل تعليم انتصارات المسلمين ، ووضع مسألة الغنائم وغيرها في الدرجة التالية لذلك .

(ثالثاً) الاعيان بأن المسلم يرى انه مكلف برسالة الدعوة الى الله وتحقيق المجتمع الرباني في الأرض . وانه تطبيق لغاية استخلاف الانسان في الأرض .

ولقد استطاع غير قليل من الباحثين الغربيين فهم هذه الخطوط الأساسية . ومن هؤلاء : ولفرد كابتول سميث الذي يقول : « ان المسلم يحس بإحساساً جاداً بالتاريخ : انه يؤمن بتحقيق ملوكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه . ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره » ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي او اجتماعي . وكل شعور فردي او اجتماعي بمقدار قريبه او بعده من ذلك النظام الذي وضعه الله ، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملوكوت الله في الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان او اجتماعياً ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضر » .

ويحري ولفرد كابتول سميث مقارنة في فهم التاريخ بين الإسلام والهندوسية وال المسيحية والماركسية فيقول : ان الرجل الهندي لا يأبه بالتاريخ ولا يحس بوجوده لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحسن . والهندي مشغول دائماً بعالم الروح : عالم اللامائية ومن ثم فكل شيء في

عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن . والتاريخ بالنسبة اليه شيء ساقط من الحساب .

●

أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة ، أو في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود . وي sisir هذان الخطان في نفسه متباورين أو متبعدين ولكن بغير اتصال . والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه والخرافه .

●

أما التاريخ في نظر الماركسي : فهو الإعلان بجتمعيّة التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية . ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده ، وكل شيء عده باطل . والماركسي يتبع عجلة التاريخ . ولكنه لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجية عنها .

●

أما المسلم فإنه غير ذلك تماماً .

ولا ريب ان نظرة واحدة الى القرآن في مجال تفسير التاريخ تجد المنهج الإسلامي واضحاً مقرراً ذلك أن هناك<sup>(١)</sup> قوانين معينة ترتقي بقتضاهما الأمم

---

(١) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ .

وتنهار . وان تدهور الامم انما يجيء نتيجة الفساد والبغى والانحطاط ، وقد رسم القرآن هذا القانون منذ أربعة عشر قرناً، ووضع نماذج التجربة كاملة أمام الناس في حضارات عاد وثور وقوم تبع وامبراطورية فرعون وكشف عن صدق هذا القانون : « سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا » « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ولقد قرر القرآن ان الحياة البشرية ذات معنى . وان الانسان هو محور فلسفة التاريخ . والقرآن لا يعتبر الارض مكاناً للعذاب او سجننا سجن فيه البشر الآثمون في أصل تكوينهم لسبب خطيئة اصلية . ذلك انه لا توجد أصلاً خطيئة للبشر ، وان خطيئة آدم قد غفرها الله له ، وأن لا تزر وازرة وزر اخرى .

وان فترة الحياة القصيرة على هذه الارض هي فترة اختبار للانسان . وانه هو الذي حمل الامانة . وواجه التحدي ، فعليه ان يثبت مقدرته على اختيار الطريق الصحيح : « وهدئاه النجدين » والحياة اختبار وامتحان للناس حول هذه الامانة وهذا الاستخلاف « وهو الذي جعلكم خلائف في الارض ورفع بعضاكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيها آياتكم » وتلك عبرة التاريخ كله وقضية الانسان .

وقد فهم روزنتال<sup>(١)</sup> وجة الاسلام في تفسير التاريخ وعبر عنها في وضوح ؛ « ان الميزة التي امتاز بها الفكر الديني في هذا الاتجاه هو الوعي بأن للتاريخ

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين .

نهاية هي يوم الساعة حين يسأل كل واحد عما عمله في الدنيا ويوم الساعة بداية تاريخ آخر يصفه القرآن وصفاً دقيقاً حتى كأنه وقع في الماضي » .

ويؤكد العلامة علال الفاسي هذا المعنى حين يقول : « ان الجبرية غير موجودة في الإسلام لأن الإنسان ليس خارج التاريخ ، بل هو من عوامله الداخلية الفاعلة والمفعولة ، وليس عمليات التاريخ دون غاية » .

ويقول ان الرسول قد ادرك الوجود التاريخي إدراكاً كلياً . ولكنـه لم يكلف نفسه بأن يكون المؤرخ او المدون للتاريخ . وإنما وضع لنا الإطار الذي علينا ان نملأه بما نكتشفه من احداث وما نصنعه من عمليات . « ولم تذكر كلمة التاريخ في القرآن ولا في السنة ، وإن قص علينا القرآن قصصاً للأولين ، لا لنتعتبرها تاريناً بأوقاتها وظروفها . ولكن لنتعظ بما فيها من عبرة لأولي الألباب » .

ولتاريخ في نظر الإسلام مرحلتان لا بد من التوقف عندهما :

(أولاً) مرحلة العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول . وهذه لم تكن الا تمهيداً لإبلاغ الإنسانية رشدها عن طريق إكال الدين بوجود محمد خاتم الرسل . ولم يكن محمد بداعاً من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات اصلاحية تشمل كل بقاع العالم . ولكنـها لم توفق الى البقاء . وأصابها الانحراف الذي يستوجب ان تجدد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الانساني فكان لا بد ان يبعث الله الرسول الخاتم الذي يضع الانسان في سجو الرشد المبني على العقل والروح والقلب والجسم .

وكل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة : هي وجود

الرسول نفسه . وبذلك يصبح ماضي الأمة وكأنه ما قبل التاريخ .

(فانياً) هي نهاية التاريخ الدنيوي والوصول إلى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير أو شر . وبهذا الامتداد التاريخي إلى ما بعد الموت يزول كل تناقض ممكن بين غاية التاريخ وبين أسباب عملياته .



ولاريب أن هذا المفهوم للتاريخ ، وهذا المنهج لتفسيره مختلف اختلافاً جذرياً مع مفاهيم الأديان والفلسفات .

وهنالك ناحية أخرى لا بد من الإشارة إليها وهي أن نظرية التفسير المادي للتاريخ لا تكون صالحة في تعليل بعض الأحداث والظواهر التاريخية الكبرى أو بيان أسباب قيام الدول وسقوطها . وإن هذا المنهج كما يقول العلامة تريتون : يفشل فشلاً ذريعاً في تعليم وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، وقد رأوا أنها لا تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو «الإسلام» رأوا ان الإسلام قوة هائلة فيه حيوية دافعة وميكانيكية حية . وهو علة العمran وسبيل الحضارة وهو الطريق إلى جمع السكامة ونشر السلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب » .



ولا ريب كانت روح الإسلام من القوة بحيث صرفت الناس عن ماضيهم

صرفًا تامًا<sup>(١)</sup> وساعد على ذلك أن الإسلام ليس دينًا فقط ، بل نظامًا اجتماعيًّا . فكان إسلامهم دخولاً في نظام جديد يقطع الصلة التي تربطهم بالماضي .

ولقد شهد المؤرخون المنصوفون بأن فرداً أو أمة دخلت الإسلام لم ترتد عنه أبداً . ذلك أن الإسلام دين وزيادة .

---

(١) حسين مؤنس الشرسى الإسلامي .



## الفصل الخامس

### القرآن والأديان

جاء القرآن خاتمة لرسالات السماء ومكلاً للكتب المنزلة من قبله ومهماً عليها . وقد تيزى إلى ذلك بروز كبرى هي أن الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظه علينا وكلت الكتب الأخرى إلى من أنزلت إليهم للاحتفاظ بها .

ومن هنا فان القرآن هو الكتاب الوحيد في العالم كله الذي حفظ من التحرير . وهو النص الموثق الثابت الذي لم يتغير «والقرآن الذي في المصاحف بأيدي المسلمين شرقاً وغرباً فيما بين ذلك من أول أم القرآن إلى آخر المؤذنين : كلام الله عز وجل . ووحيه أنزله على قلب نبيه محمد بن عبد الله » .

ولقد كان نزول القرآن على محمد ﷺ : في تقدير الباحثين والمؤرخين ، «أعظم حادث في تاريخ البشرية»<sup>(١)</sup> .

فلأول مرة – من بين الكتب السماوية الأخرى يظهر على الأرض كتاب

---

(١) من بحث للدكتور سامي النشار .

ذو كلمات وحروف إلهيَّة ، لم يكتب سطراً من سطوره بشر ، ولم يخط سرقاً من حروفه انسان ، وقد أعلن الكتاب الإلهي [إعلاناً] لا يحيص عنه انه آتى روحانيَّة من السماء ، وإن رسالة السماء أكملت به أكتافها الأخير ، وإن الدائرة الإلهيَّة التي هبطت منها الألواح والصحف والكتب الإلهية الأخرى قد أفلتت نهايَّتها .

والقرآن هو أصل الشريعة الإسلامية وعمادها . وهو النموذج الأعلى لبلاغتها .

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب : القرآن هو سياج اللغة العربية وحاميها الذي حفظ هذه اللغة ، وشغل المفكرين من العرب والمسلمين ببلاغته وبيانه ، ذلك انه أنزل بلغة قويش وكان طبيعياً ان يكون القرآن بلغة قريش أفعى لغات العرب . لأن رسول الله قرشي ، ولن يكون هذا الكلام زعيم اللغات كلها .

ويقول الإمام الشافعي : إن الله أقام حججته بأن كتابه عربي في كل آية ، ثم أكد ذلك بأن نفي عنه - جل ثناؤه - كل لسان غير لسان العرب في آياتين من كتابه . فقال تبارك وتعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه لسان بشوش . لسان الذين يلحدون إليه أعمجي وهذا لسان عربي مبين » « ولو يجعلناه قرآنًا أعمجيًا لقالوا لولا فصلت آياته أعمجي وعربي » .

ولو لم يكن القرآن لما اتفق للعربية الفصحى هذه الوحدة التي تتجدها ولو لاه لتعددت لغات العرب تعدد هجاتهم ، وقد حال القرآن دون تفكك اللغة العربية ، ووقف حائلًا دون تغلب العامية . وحافظ على اللغة من الدخور والضياع .

يقول الباقياني : إن كل كلمة مستعملة في القرآن هي عربية والأعجم هم الذين أخذوها من العرب وحرفوها .

وقد كشف القرآن عن إعجازه وتحدى الله به الخلق جميعاً : وقد حاولوا تقليله فأعجزهم ، وقد أفحى من طولب بمعارضته من العرب حتى يئسوا واستسلموا .

وقد أعطى القرآن للعربية مكانة جديدة يعلو أصحابها على التبعية . يقول الشافعي : ( ومن أولى الناس بالفضل في اللسان من لسان النبي ﷺ ) . ولا يجوز أن يكون أهل لسانه ( أي العرب ) أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان قibus لسانه ، وكل أهل دين قبله ، فعليهم اتباع دينه ) .

وإعجاز القرآن لا ينحصر في دقته وإعجازه البلاغي ، ولكنه يتعداه إلى المجال العلمي والاجتماعي وتلك آيته الكبرى ، وما يزال إعجازه ينكشف يوماً بعد يوم .

## ( ٢ )

ميزة القرآن انه منهج اجتماعي متكامل يشمل الأسس العقائدية والتشريعية والأخلاقية للنظام الإسلامي ، ويقدمها ب مختلف طرائق الإقناع والتدليل العقلي والوجداني والتاريخي . وهو في هذا كله يخاطب العالمين جميعاً لا العرب وسدهم .

ولأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهماً عليها . فقد حقق الأصول الآتية :

(أولاً) استصفى كل ما جاء في الكتب السالفة وخاصة اصول العقيدة .

(ثانياً) ناقش مختلف التفسيرات الباطلة التي أضافها أصحاب الأديان وخرجوا بها بالحذف والإضافة عن اصولها وعن الميثاق الذي يؤكد ظهور محمد عليه السلام بالرسالة الخاتمة . وهو ما جاء في التوراة والإنجيل .

(ثالثاً) فصل أحوال الأمم خلال فترة ما بعد رسالة عيسى الى أن جاء الإسلام فقص قصة أهل الكهف وأصحاب الأخدود وغزوة أبرهة ملكة .

(رابعاً) أخبر عن أشياء لم ترد في التوراة او الإنجليل .

(خامساً) أجاب عن أسئلة ظنها أصحابها تحدياً . ومنها قصة ذي القرنين وغيرها .

(سادساً) أزال اللبس حول كثير من المسائل والأمور . وحددها تحديداً واضحاً .

( ٣ )

أعلن القرآن وحدة الله مقابلًا لكل تفكير يومني غير فكرة الله . سواء أكان صانعًا أو سحرًا ، كما أعلن فكرة الخلق ( إن الله خالق وأنه خلق من لا شيء وأنه أوجد العالم من العدم ) .

وبهذا هدم فكرة قدم المادة . وكما أعلن بهذه الزمان ، فقد أعلن نهايته ، وبهذا أنكر سرمدية المادة وعدم فنائها .

« وإذا كان القرآن ينكر قدم المادة . فقد أعلن حدوثها وحدودت العالم ». وكذلك وضع القرآن ميتافيزيقاً كاملة لما وراء الطبيعة . وصور الكون في صورته النهاية . ولذلك وضع منهج المجتمع « الشريعة » ومنهج السلوك الإنساني « الأخلاق » ولم يترك جانبًا من جوانب الفكر والعمل .

وبالجملة فقد وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله : فهو كتاب الكون من نشأته إلى فنائه .

وقد أعلن القرآن حقائق الكون وحقائق الإنسان . ودعا إلى السيطرة على الحياة ، ووضع المسؤولية الفردية . ورفع الإنسان إلى اكتئاب الأفاق

الكونية وعده مسؤولاً عن كل فعل من أفعاله « من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن ي العمل مثقال ذرة شرّاً يره » وإن الإنسان لا يفتديه إلا عمله وحده وليس التضحيّة من نبيٍّ أو رسول . ولذلك أنكر القرآن صلب المسيح كفداء للمجتمع ، وبهذا أقام ميزان الحياة وترك الإنسان يختار بمحض إرادته بين الخير والشر<sup>(١)</sup> .

---

(١) استخلصنا هذا من بحث للدكتور سامي النشار .

(٤)

جمع القرآن في حياة النبي وحفظه الحفظة . ثم كتب بأيدي طائفة من كتاب الوحي الذين اختارهم النبي وحفظت منه نسخ متعددة . ثم بجمع المسلمين في مصحف واحد « والقرآن قد كتب في زمان تزوله من عند الله مباشرة » آية آية . وكلمة كلمة في نفس الوقت الذي كانت تنزل فيه الآية أو الكلمة . وكتب بطريقة تذهل العلماء ، فهي وحدتها الطريقة العالمية المأمونة للتوثيق . ولم يوجد أى كتاب في العالم يشهد أنه ليس على ظهر الأرض الآن كتاب غير القرآن ، بلغ فيه التوثيق هذا الحد ، والعلماء جميعاً في أنحاء الأرض يشهدون أنه لم يدوّن كتاب كما دوّن القرآن . فكان هناك في زمن الرسول اربعة تخصصوا لأن يكتبوا كل آية تنزل من القرآن بأمر الرسول مبلغها عن الله في مكانها كما هي في المصحف الآن . وكافوا يسمون كتاب الوحي ومن حوالهم عشرات ومئات من الصحابة يكتب كل منهم ما ي يريد » .

والقرآن المنقول بالتواتر لم يكن الاعتماد في نقله على نسخ المصاحف ، بل الاعتماد على حفظ أهل التواتر له في صدورهم<sup>(١)</sup> وبذلك<sup>(٢)</sup> وصللينا النص القرآني كاملاً خالياً من التحرير والتغيير سالماً من التناقض الذي أصاب

---

(١) الأديان في القرآن .

(٢) عبد الصبور شاهين .

ما سبقه من الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل) بحيث اخترط في هذه الكتب ما كان من كلام الله بها هو من حكايات البشر ووضع الكهان وتخيلات أصحاب الأهواء ، على صورة تجعل نسبتها إلى رسالات الانبياء ازدراء بقامة الألوهية والنبوة معًا<sup>(١)</sup> .

وقد كان املاء القرآن بثابة حفاظ ضخم يحول دون تغيير المفاهيم والثقافة . وهو في نظر الباحثين عامل ضخم قدس التاريخ وقدس حروفه «فيحفر القرآن باللغة العربية حفرت مبادئه التفهم بلا خوف من تزييق او ترويج او تفريض او تهديد او تأكلاز او تأملن او تقرنـس الدين<sup>(٢)</sup> » وقد أدى ذلك بـ(لورد سالزبورى) ان يقول : ان المصحف اليوم هو الدلالة الوحيدة على وحدة المسلمين والمرجع الوحيد لمجتمع أمم الإسلام . وكان هذا من الدعامة التي جعلت القرآن ثابت الرواية والإعجاز ، كما جعلته صامداً أمام النقد والتمحيص . « وقد وجدت في العهد القديم والعهد الجديد أشياء كثيرة لا يسيغها المقل . وهي أدفنى إلى الوثنية ، وكثير منها وجد في ديانات سابقة وقد خلا القرآن من كل هذا ، فضلاً عن فقدان الكتب المقدسة التي جاء بها الأنبياء وعدم تلقينها ورواياتها بطريقة متواترة تقطع الشك . ومن هنا فإن القرآن المدون الآن هو القرآن الذي قرأه محمد ﷺ وأصحابه ، لم ينقص منه حرف . ولم يزد عليه حرف ، وقد وضع له علم يحفظ طريقة أدائه والنطق به على ما كانت في عهد الرسول . وليس الأمر كذلك في التوراة والإنجيل<sup>(٣)</sup> .

ومسألة اللغة من أهم مقومات حفظ النص القرآني . فقد اشتمل القرآن على أنه عربي اللغة والبيان أما الإنجليل فإنه لم يتعرض للغة . وقد كتب بألف

(١) عبد الصبور شاهين .

(٢) دكتور اسماعيل راجي الفاروقى .

(٣) عبد الجليل شلي .

لهجة . وقد عمدت الكنيسة الكاثوليكية الى استبدال لغة الانجيل الأصلية بلغة ثانية مقدسة : هي اللغة اللاتينية . وبينما دعا القرآن العلم والنظر في آفاق السموات والأرض ، قال رجال الأديان : ان الكتاب المقدس حاوية على كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعداد: وأشاروا الى أن أساس كل علم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة » فالكتاب المقدس يحوي من العرفان على المقدار الذي قدر للبشر ان ييلوه ، فضلاً عن التسليم بما جاء في الكتاب من وصف السماء والأرض وما فيها وتاريخ الأمم منها خالف العقل ، او خالف شاهد الحسن<sup>(١)</sup> » .

فإذا قدرنا كيف جمع القرآن في دقة ويقظة منذ وقت نزوله اولاً بأول . رأينا (نولده) في كتاب اللغة السامية يقول : ان التوراة جمعت بعد موسى بسبعين عام . وبالنظر لاستغراق تأليفها وجمعها زماناً متطاولاً تعرضت حياله للزيادة والنقص ، وانه من العسير ان نجد جملة متكاملة في التوراة مما جاء عن موسى لأن التوراة لم تدون في عهده ولا في الجيل الذي تلاه .

وتقول دائرة المعارف الفرنسية : تحت مادة (توراة) « ان العلم المصري . ولا سيما النقد الألماني قد أثبتت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات ان التوراة لم يكتبها موسى . وإنما هي من عمل أصحاب لم يذكروا اسمهم عليها ، ألفوها على التعاقب ، معتمدين في تأليفها على روایات سماوية سمعوها قبل أسر بابل » .

ويؤكد الدكتور اسماعيل راجي الفاروقى في كتابه (أصول الصهيونية في الدين اليهودي ) ان التوراة التي بين أيدينا الآن هي هذا الكتاب الذي جمعه عزرا حوالي ٤٢٥ قبل الميلاد وان التوراة كانت كتاباً [له]اً عزيزاً الا

(١) الشيخ محمد عبده .

ان اليهود حرفوها وزاغوا بها عن أهدافها الإلهية ومراميها الأخلاقية العالمية . فجعلوا منها كتاباً تعصبياً عنصرياً حق اسم الله بدل ، فبدلاً من أن يدعى باسم الحق وهو إله العالمين ورب البشر جعلته العنصرية اليهودية ( إله ابراهيم ويعقوب وإسرائيل فحسب ) .

وقد أدخل عزرا الحقد والتشفى والكراهية والانتقام فأخذ يتنفس بأعمال العنف والقتل والتخريب ، بل ويختلق القصص اختلافاً لتمجيد العنصرية اليهودية . ليس الله ، بل عزرا هو القائل : لأنكم عابرون الاردن الى ارض كنعان ، فتطردون كل سكان الارض من أمامكم وتحون جميع تصاويرهم وتخرقون جميع مرتفعاتهم وتلکون الارض وتسکتون فيها لأنني أعطيتكم الأرض لكي تملکوها » .

ويصل الدكتور الفاروقى الى القول بأن عزرا هو بكل حق مؤسس الدين اليهودي كما نعرفه الآن . ولا عجب ان اعتبره اليهود ابنآ الله . وهو الذي اكتملت التوراة بعملية مسحه الوثيقة ، لأنه بعمله هذا بعث الهوية اليهودية .

وقد أشار جان ماز الكاثوليكي ص ١١٥ من كتابه المطبوع ١٨٤٣ على أن أهل العلم اتفقوا على ان نسخ التوراة الأصلية ، وكذا كل كتب العهد القديم ضاعت بأيدي عسکر بختنصر ويقول المشير عزت باشا في كتابه ( الدين والعلم ) « ان الموسويين يعترفون بأن التوراة قد ضاعت » .

ويقول الفاروقى : ان التوراة الموسوية كانت قد فقدت من المجتمع اليهودي لعدة قرون بحيث صار من المعتمل أن يكون نصها الذي كتبه عزرا - (عزيز عند العرب) مختلفاً عما أنزل على موسى ، فيبين الرجلين ما يقرب من ألف سنة من الزمان » .

والامر بالنسبة للانجيل كالامر بالنسبة للتوراة . وهناك اجماع لا اختلاف فيه على ان الانجيل هو ما كتبه الرسل . وليس هو الكتاب المنزل من عند الله على السيد المسيح . والانجيل كلمة يونانية معربة بمعنى (البشرارة) وهو اسم يطلق على الكتب التي «وضعت» بعد زمان المسيح وقصصي أحواله وأعماله وأقواله التي وعظ بها ، ومعجزاته وخوارق العادات التي أجرأها الله على يده ، ويعرف الانجيل بالعهد الجديد تمييزاً له عن التوراة او العهد القديم ، قام بكتابته هذه الاناجيل بعض تلاميذ المسيح وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه حق قيل ان الاناجيل بلغت نيفاً ومائة انجيل . الا ان الكنيسة المسيحية لا تعرف الا بأربعة من هذه الاناجيل . واعتبرت الاخرى منحولة وهي : (متى - مرقس - لوقا - يوحنا) . والنجيل متى هو أقدم هذه الاناجيل . وقد كتب بعد عيسى بثلاثين سنة في اورشليم باللغة العبرية ، أما انجيل مرقص فكتب باللغة اليونانية في روما بعد انجيل متى ونشر عام ٦٦ . أما انجيل يوحنا فكتب بعد موت المسيح بستين سنة<sup>(١)</sup> .

ومادة الاناجيل الاربعة لا تخرج عن ان تكون تاريخاً لحياة المسيح ، وينذهب ابن حزم في كتابه الفصل الى ان أهل الاناجيل مجمعون دون استثناء على انها ليست من عند الله . ولا من عند المسيح . وانه لا خلاف بين أهل الانجيل الاوائل وبين غيرهم على انه لم يؤمن بال المسيح في حياته الا مائة وعشرون رجلاً فقط ونسمعه يقول .... !

ذهب انجيل عيسى وحفظت اناجيل الرسل جانباً من أقواله ، ولكنها لم تحفظها كلها . والرسل لم ينقلوا كلامهم سعاماً منه لأنهم لم يروه . وانا رددوا عن آخرين ليسوا معروفين ، ولا معروف درجة حفظهم ، فهي رواية آحاد ، والاناجيل كتب سيرة ، وليس كتاباً من السباء . ولقد كان القرآن

(١) دائرة معارف القرن ١٩ الفرنسية .

باعجائزه وصححة روایته حفظ على ما جاء في التوراة والإنجیل ، وأبرأ باليهودية والنصرانية من أتباعها . وصدق منها ما كذبه الدارسون المحدثون ». وقد قرر القرآن أن الانجیل قد تناوله التحریف والتبدیل . وان الانجیل المیسیح الذي ذکره القرآن الکریم ، وسلم الى تلامیذه ، وأمرهم ان یبشروا به لا یرسجد الآن ، وإنما توجد قصص ألفها التلامیذ وغير التلامیذ . أما التوراة الأصلی والإنجیل الأصلی فقد فقدا قبل بعثة محمد ﷺ وال موجود الآن بنزلة كتابین من السیر بمجموعین من الروایات الصحیحة والکاذبة . والروایات الموجودة ان صدقها القرآن فھی مقبولة عند المسلمين وان كذبها القرآن فھی مردودة یقیناً «<sup>١١</sup>».

●

ومن هنا نصل الى ان النص القرآني قد وصل اليانا کاملاً . وان الكتب المنزلة الاخری قد أصاہها التحریف . وان ما یوجد منها الآن ليس هو الاصل المنزّل من عند الله ،

وقد تناول كثير من الابحاث ودوائر المعارف قضية التحریف التي هي الاساس الاول للخلاف بين القرآن وبين تفسیرات الادیان في القضايا الخاسمة من دین الله الواحد الحق .

ولا ريب ان اتهام القرآن للیهود بتعدد ما أنزل اليهم من کتبها . وبخاصة التوراة : قد أكدته عشرات الابحاث العلمية العصرية . وأشارت اليه ، وأیدت موقف القرآن . ولم یکن الرسول عليه الصلاة والسلام حين اتصل بالیهود والنصاری في مکة والمدینة – في استطاعته ان یغير دین الله ليرضیهم . ولکنه كان قادرًا على ان یقول الحقيقة كلها .

(١) الادیان في القرآن — للدكتور محمود بن الشریف .

ولقد كان اليهود والمصارى يعلمون برسالة محمد قبلبعثته . وكانت البشارة به واردة في التوراة والإنجيل ، ولكنهم أخفوها إلا قليلاً منهم . ولم يكن محمد في الحقيقة مناقضاً لما أنزل في الكتب المقدسة القديمة . ولكن أهل هذه الكتب هم الذين حرفوها . وإن ما كان بين أيديهم في ذلك الوقت لم يكن هو الكتاب المنزّل . ولكنه كان «التحريف» بالإضافة والمحذف . وإن ما كان يقوله محمد مما نزل في القرآن من عند الله هو الحق ، وما كان بين أيدي أهل الكتاب لم يكن الا هو التحريف ، ولم يكن قول الرسول أن اليهود حرفوا الكتاب مغضّ ادعاء . ولكنه كان هو الحق الذي لا سرية فيه ، وأبلغ ما في هذا التحريف إنكارهم مبعشه ودعوته مع ان ذلك موجود لديهم . وقد كانوا قبل مبعثه يعلمونه للناس ويترقبونه<sup>(١)</sup> (الرسول الذي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ) وقد جاءت الآيات متعددة تشير إلى هذا التحريف : «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » « وأن منهم لغريقاً يلّوون ألسنتهم بالكتاب لتسحبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله » . «قل ما أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيساً تبدونها وتخفون كثيراً » .

●

وهكذا قرر القرآن في وضوحه . إن التوراة المتداولة قد أصايبها التحريف والتتمييل والنسبيان والاختفاء . فهي ليست التوراة الإلهية الأصلية ذات التعاليم المقدسة والشريعة الربانية : «فِيمَا نَقْضُهُمْ مِّيثَاقُهُمْ لِعَنْهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يَحْرُفُونَ الْكَلْمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسَوا خُطَا مَا ذَكَرُوا بِهِ » .

●

(١) هذا رد على ما جاء في مادة تحريف في دائرة المعارف الإسلامية .

وقد أكد الدكتور هريري لوي اليهودي : صاحب كتاب *أديان العالم* الكبيرى : ان هناك عقائد دخيلة انسابت الى اليهودية عن فارس وبابل والإغريق لا سند لها في اليهودية يالذات ويصدق هذا على ما أورده كثير من الباحثين<sup>(١)</sup> من انه عام ٨٥٠ قبل الميلاد . حاول كاتب او راوي او محدث عברי ان يجمع من الفلكلون الكنعاني ما كان شائعاً بين الناس من قصص وأساطير . وروايات عن الآلهة ( ابل ومررووك والبعل ) وطبعي ان يعزز هذه القصص والاخبار الى يهوه ، ثم انه حاول أن يجمع تاريخ قومه بادئاً بقصة الخليفة كما كانت عند البابليين هذا الكاتب سبق الاغريق في محاولة كتابة التاريخ بشكل ملحمة رائعة وأفشت عناصر هلينية .

---

(١) انيس فريحة - مجلة الابحاث .

(0)

يقول الدكتور<sup>(١)</sup> يعقوب صروف : لا يعلم من كتب التوراة اول مرة ،  
ولا الزمن الذي كتبت فيه اولاً .

أما الانجيل فالظاهر ماقاله الأسقف (بابياس) الذي كان في النصف الأول من القرن الثاني المسيحي ان مرقص كان يكتب ما رواه بطرس ، فكتب بالتدقيق كل ما تذكره بما قاله المسيح ، او فعله من غير ان يراعي في ذلك الترتيب التاريخي . وكان ذلك باللغة الأرامية ثم ترجم ما كتبه الى اللغة اليونانية . ونشأت من ذلك الاناجيل الاربعة . والظاهر انها كتبت في عهد الرسل . وكان استعمال البردي قد شاع حينئذ . وكتب عليه اليونان بلغتهم» وأبرز ما يكشف عنه الانجيل : ذلك التناقض والاختلاف في مولد المسيح ونسبه ، وصفاته ومماته . والاختلاف قائم بين التوراة السبعينية . والتوراة السامرية ، وكذلك الاختلاف بين الاناجيل الاربعة «هذا<sup>(٢)</sup> فضلا عن التوراة والاناجيل ترجمت من لغات كثيرة الى لغات اخرى ، وانها كتبت بعد زمان نزولها والرسالة بها ، فليست نص كلام الله ، ولنست كلام المسلمين .

١) المقتطف مجلد ١٩٢٤

٢) الاديان في القرآن .

وإنما كتبها أتباع المسلمين بعد فترات طويلة من رسالتهم « والإنجيل في هذا تختلف عن القرآن في عدة اصول :

أولاً : القرآن واحد ، والإنجيل متعددة .

ثانياً : الإنجليل نسبت إلى واسعها من البشر ( لوقا ويوحنا ومرقس ومق ) وهم الاربعة لم يكونوا من الحواريين ، بينما ينسب القرآن إلى الله سبحانه .

ثالثاً : الاختلالات والاختلافات الكثيرة بين طبعات التوراة والإنجيل وترجماتها . ومنها الاخطاء الناتجة عن عدم الدقة في الترجمة او الطباعة ومنها الاخطاء والتعبيرات المتعمدة بالتحريف والتأويل ، وفيها الاختلالات الناشئة عن طريق النطق بالأحرف المكتوبة . ( وقد حكم ابن تيمية وغيره بأن ترجمة القرآن من العبرية إلى اللاتينية . وهو ما عبر عنه بالنسخ قد أحدث اختلافاً بينما لا يوجد في القرآن أي اختلاط أو احتلال أو خطأ ) . ( ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ) .

رابعاً : الإنجليل لم تكن كلام الله بجماع العالم أجمع . أما القرآن فهو كلام الله ، بل إن الإنجليل ليس من كلام سيدنا عيسى . وعلى هذا فلا يمكن مقارنته بالقرآن ولا بكتاب الحديث<sup>(١)</sup> .

خامساً : إن كتبة الإنجليل لم يكونوا في مستوى الرسالة المنزلة : يقول أرنست رينان في كتابه تاريخ المسيح : إن كتبة الإنجليل أنفسهم الذين رسموا لنا صورة يسوع ، كانوا دون صاحب الترجمة براحل حق انهم لعدم وصولهم إلى علوه كانوا كثيراً ما لا يحسنون التعبير عن أفكاره . ففي كتاباتهم كثير

---

(١) هذه المقارنات استقيناها من كتاب الاديان في القرآن .

من الاخطاء والمتناقضات . وفي كل سطر منها ما يشعر القارئ بأن هناك جمالاً إلهياً ، ولكن الكاتب لا يحسن ترجمته وإبراده لأنها لا يفهمه . ولذلك يبدله بفكرة الخاص ، وجملة الكلام ان تلامذة يسوع قد أضعفوا جهال صورته بدل ان يزيدواها زينة . وكثيراً ما رأموا هذه الرينة فتحولت بين أيديهم ضعفاً » .

وقال لاردنر في بحثه عن الاناجيل : لقد حكم على الاناجيل المقدسة ( من أجل جهالة معتنقيها ) بأنها ليست حسنة بأمر السلطان أغسيطينوس في الايام التي كان حاكماً فيها على القدسية فضلاً عنها فرضحت مرة أخرى . ( وفي هذا دليل على ان النصارى لا يعتقدون كون هذه الاناجيل عن المسيح ، وكونها من تصنيف الحواريين اذ لو كانت من المسيح لما جاز تصديقها ) .

وقال الكهوف : نقلًا عن لسان ساليوسوس الذي كان في القرن الثاني للميلاد : لقد بدل المسيحيون أناجيلهم ثلاث او أربع مرات ، بل أزيد تبديلاً غير جميع مضمونها . وأشار كثير من المؤرخين الى ان نسخ الاناجيل الأصلية في القرن الرابع كانت مفقودة لا أثر لها لأنها كانت قد أحرقت مع كتب النصارى في عهد القيصر ديوقدانيوس .



ويكفي هنا ان نشير الى ظاهرة التناقض الواضحة بين العهد القديم والعهد الجديد من ناحية دين الاناجيل الاربعة ذاتها في كثير من المسائل والقضايا الأساسية .

وأبرز الخلافات بين العهد القديم والعهد الجديد ان الله اليهود غير الله النصارى .

(٦)

من أكبر ما أشار إليه القرآن . الخلاف بين مفهوم الإسلام عن الله سبحانه وتعالى إله العالمين ، ومفهوم اليهودية عن الإله الخاص : إله الحرب وإله بني إسرائيل وحدهم . والإله يهوه كما وصفته التوراة متواحش شرير شغوف بالثراب والفساد وإراقة الدماء (يهوه رب الجنود) . يقول ولديورانت : محمد اليهود إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها ، وجعلوا منه إلهًا صارمًا ذا نزعة حربية صعب المراس ، وهذا الإله لا يطلب من الناس أن يعتقدوا أنه عالم بكل شيء ، كذلك لا يعتبر نفسه معصوماً من الخطأ . وقد استتبع هذا التحرير : تحريف آخر ، بل إن هذا التحرير قد قصد به إلى تزييف الرابطة القائمة بين إبراهيم ومحمد . ومحاولة قصر إبراهيم على اليهود وحدهم ، وتحويل التوراه من الحنيفة إلى المنصرية . وتحريف الأحداث التاريخية بحيث تمحذف العرب وأسماعيل ورحلة إبراهيم إلى مكة وبناء البيت الحرام . وبالتالي البشارة بمحمد عليه السلام ، وقصر ميراث إبراهيم على فرع واحد هو إسحاق ويعقوب . ومحاولة تفسير الملك العظيم الذي أعطاه الله لإبراهيم وأبنائه أنه لليهود وحدهم دون أبنائه وأحفاده جمِيعاً .

ويصور الدكتور اسماعيل راجي الفاروقى هذا التحرير في مقارنة واضحة

بين التوراة والإنجيل فيقول : أظهرت التوراة الحقائق التاريخية في قالب يؤكد (المنصرية) ، أما القرآن الكريم فقد قدمها في قالب يؤكد (الحنفيية) ولكن المسألة ليست مسألة مجرد اختلاف في وجهة نظر الحنفيية إلا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن ، وهذا دليل على أن الحنفية هي الحق كما قال القرآن ، فوجود الحنفية في التوراة بشكل عرف دليل خارجي على صدق خبر القرآن الكريم . «المنصرية تمثل حزباً أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع أفضل من المخلوقات . واتباع نظام أخلاقي يقضي بالمحافظة على سلالة عنصريهم . وعدم الانصهار في أي قبيلة أو شعب أو أمة أخرى .

أما الحنفية فهي تمثل المهاجرين أنفسهم كذري رسالة يحملونها إلى البشر أجمع ويتحققونها بالانصهار في جسم البشرية التي كانوا وبإهداه الدين ينصرفون منهم عن طريق المصاهرة والماواشحة – لغتهم وثقافتهم ورسالتهم . لذلك جاءت التوراة بعد بلوتها المنصرية تقول : بأن إبراهيم هاجر لأن يهوه أمره بذلك ، ولكنها تتمدد السكوت على أمر يهوه . فهي تقول انه أمر تلقائي عرفي ، أي لا سبب له ، فالله في نظرها فضل لأنّه هو ، وقد فضل ذريته لأنّها ذريته ، بل قطع عهداً (لاميثاقاً) [والفرق بين المهد والميثاق ان الأول ذو اتجاه واحد . أي يلزم جهة واحدة] على نفسه بتفضيالها عنها حدث إلى الأبد حق الإله تمثله كله هذا المهر من دون الناس .

«أما القرآن الكريم فجاء يعلن أن الله: إله المسيح ، لا قدرة وقهرأ . بل حباً ورحمة . وجاء يؤكد أن هجرة إبراهيم لسبب رجيه ، هو «التوحيد» وأن الله أعطى له ميثاقاً بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات . وأن الله تعالى سيماقبه أشد العقاب ، بل سيبدلنه

(١) دكتور اسماعيل الفاروقى : مجلة كلية الآداب ٢١ / ١٩٥٩ .

وقومه اذا لم يتحققوا هذه الأمانة» وفي ضوء هذا المفهوم العنصري أعاد اليهود كتابة التوراة وجعلوها منطلقاً لهدفهم .



ويقول ان الأحداث التاريخية من هجرة ابراهيم وأولاده من العراق الى الشام الى مكة ، واختباراتهم في مصر ، واضطهاد فرعون لهم .

ان الأسفار الخمسة قدمت لنا هذا التاريخ من حيث رأته العنصرية . فجعلت لنفسها مركز الشقل . أما القرآن الكريم وهو صوت الحق . فقد رأى هذه الأحداث من حيث رأتها الحنيفة .

ويشير الكاتبان الفرنسيان ( جاك دوماك وماري لورا ) الى وعد ابراهيم فيقولان : انه لو صحت آية التوراة في هذا الوعد ، فإنه ينصب اذا على ابراهيم البكر : « اسماعيل الى العرب » وأشارت الأبحاث الى ان كل ما ذكرته التوراة من تهجير ونقل واستئصال السكان في فلسطين كذب فهو انعكاس لروح العنصرية .. المتمالة في العصور المتلاحقة . ولا ريب ان اخطاء اليهودية في الالوهية متعددة ، وتحريف التوراة عميق وخاصة فيما يتعلق بتجسيد الله سبحانه وتعالى . والتطاول على مقام الانبياء . وتصوير الذات الإلهية في صورة بشرية ضعيفة .

وقد دحض القرآن زيفهم في قولهم ان الله بعد ان خلق الكون في ستة أيام استراح في اليوم السابع . وقد أشار القرآن الى كذب ذلك في أكثر من موضع « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » وكانوا قد وصفوا لهم بأن التسبّب قد هدّه . والنصب والجهد قد حطّه . وكذلك زيف دعواهم في القول بأن لهم [لهم] خاصاً بهم ، وللشعوب

الاخرى آلهة أخرى ، وان إله شعب اسرائيل ليس كبقية آلهة البشر  
الاخرى . وانهم أولاد إلههم وأحبابه .

كما كشف القرآن عن زيفهم في اتخاذ رهبانهم وأخبارهم أرباباً تعبد من دون الله وتشارك في العبادة . « اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » .

هذا بالإضافة إلى ما نسبوه إلى إبراهيم ويعقوب ولوط والمسيح وداود من أكاذيب وما حرفوا به تاريفهم ، وان ما أورده عن الانبياء صلوات الله عليهم يتنافى مع عصمتهم التي حفظها الله سبحانه وتعالى لهم . فالأنبياء معصومون من كل ما أوردته التوراة في حقهم من فساد واتهام . وخاصة قصة لوط وبنته . وقصة سليمان والنساء وقصة داود وقصة إبراهيم وزوجته سارة<sup>(١)</sup> .

---

(١) الأديان في القرآن : محمود بن الشرييف .

## (٧)

وما أثار القرآن : دعوىألوهية عيسى وناقش فرق النصارى المختلفة<sup>(١)</sup> التي اعتنقت وجهات نظر متباعدة ، بخصوص طبيعة السيد المسيح . وأبان بأن التثليث انحراف طرأ على دعوة المسيح الحق . وان دعوته الحقة هي الإقرار بالربوبية والألوهية والتوحيد الكامل المطلق « لقدر كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح » . « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا الله واحد » .

وقد كشف القرآن عن أن عيسى رسول من عند الله ، أنزل الله عليه الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة ورسولاً إلىبني إسرائيل . « وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة » . وانه حمل لواء الدعوة إلى عبادة الله الواحد ، والتبشير بالرسول النبي الأمي<sup>\*</sup> ، وليحل لليهود بعض الذي حرم عليهم .

وقد قرر القرآن ان الإنجيل قد تناوله التحرير والتبديل في مسائل التثليث والخلاص والصلب وألوهية عيسى . فالمسيح لم يصلب ولكنه شُبّه لهم ، وخطيئة آدم ليست خطيئة البشرية . وقد تلقى من ربه كلمات فتات عليه وهدى .

---

(١) راجع بحث الدكتور عرفان عبد الحميد « مجلة كلية آداب بغداد سنة ١٩٧٠ » .

وان المسيحية ليست دينًا عالياً . ولكنها أخر رسالات السماء الى بني اسرائيل ، وان النبي الذي تقدم به الخليل ابراهيم عليه السلام للهداة هو اسماعيل وليس اسحاق كما هو مذكور في التوراة وكما يعتقد المسيحيون . وان المسيح هو عبد الله ورسوله وأمه صديقة وانه ليس إلهًا . وانه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . وأبان عن ان خلق آدم أشد عجباً من خلق عيسى . وقد بين الاسلام خطأ عقيدة التثلية « لئن كفروا الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » .

وأنكر القرآن عقيدة الصليب : وقال ان عيسى لم يصلب ولم يقتل .

## (٨)

كشف القرآن عن أكبر زيف في التوراة . وهو إنكار البعث والجزاء .  
واعتبار أن الدنيا هي كل شيء . وان السعي لها هو غاية الغايات . وانها  
لا تشير إلى حياة أخرى بعد الموت ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود . وب مجال  
اليهودية لهذا العالم وحده دون نظر إلى ما وراء ذلك ، بينما تجعل المسيحية  
من العالم الآخر وحده عالمها ( ان مملكتي ليست في هذا العالم ) . وهي  
لاتتحدث عن خلود الروح بعد الموت او القول بالبعث والحساب والعقاب ،  
وان البعث والجزاء في الدنيا .

ويقول سفر الجامعه : ( ليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كلّيهما باطل ،  
يذهب كلامها إلى مكان واحد ، كان كلامها من التراب ، وإلى التراب يعود  
كلامها ) .

(٩)

أثار القرآن مسائل مختلفة مع النحل المختلفة : وناقش أصحاب الديانات الثنائية من المحسوس كالزرادشية والمانوية . وعارض دعوامهم بوجود إلهين خالقين : أحدهما يخلق الخير ويختفي به . والآخر يخلق الشر ويختفي به « لو كان فيها آلة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » « وما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لله كل ما خلق ولعده بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » .

•

كما بين القرآن حقيقة ديانة قدماء المصريين . وان فرعون كان إلهًا يعبد في نظر المصريين : « فحشر فنادي أنا ربكم الأعلى » . وهذا هو عين ما قاله التاريخ بعد ان أزيح الستار عنه وكشف غواصيه في القرنين الأخيرين ، اذ كان المصريون يقدسون الملك ويعتبرونه كبير آلهتهم . وكانوا يسمونه (حورس الحي) .

وقد أشار القرآن في سورة الشعراه الى خطاب فرعون الى موسى :

« لَنْ اخْلُتْ إِلَّا غَيْرِي لِأَجْعَلُنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ » وفي سورة القصص في خطاب فرعون إلى شعبه : « وَقَالَ فَرْعَوْنَ يَا أَيُّهَا الْمَلَوْدُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي » . كما وصف ديانة المصريين على لسان يوسف . « يَا صَاحِبَيَ السُّجُنِ أَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ التَّهَارُ » وكانوا يعبدون أرباباً متفرقة حتى إن لكل بلد إلهها الخاص .

(١٠)

أثار القرآن مسألة النسخ التي أنكرها اليهود ، إذ زعموا<sup>(١)</sup> أن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، وهي ابتدأت بوسن وتمت به فلم تكن قبله شريعة . وقالوا فلا يمكنون بعده شريعة . وقد ناقشهم القرآن بتوله : « ما ننسخ من آية أو ننسها نات بغير منها أو مثلها » . « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » .

---

(١) من بحث للدكتور هرمان عبد الحميد ( كلية آداب بندراد ) ١٩٧٠ .

(١١)

كيف زيف القرآن ما أوردته الفلسفة اليونانية . فعارض الفكرة التي تقول بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات . ومن ذلك قول أرسطو في نفي الارادة والتدبیر والعلم المجرئ عن الله . وقد نبه القرآن الى ان الله تعالى لم يصنع ما صنع ثم تركه دون عناية او رعاية . او دون علم تام بما يكون به ، بل انه قد أحاط بكل شيء علماً .

«ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» . «يدبر الأمر يفصل الآيات» . «يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه» . «وعنده مفاتح الفيسب لا يعامتها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر» .

يقول باركلي : لقد تراءى لبعض الفلسفه مع اقتناعهم بحكمة الخالق وقدرته بما يتجلی في خلق هذه الاشياء المتناسقة وتدبیرها وإيجاد نظام يحكم العالم انه قد تخلى عن هذا العالم بعد ان ضمن نظامه وبعث الحركة فيه كما يتخلل الصانع عن الساعة التي صنعتها . غير ان هذه اللغة التي يتحدث بها الله علينا تبرهن ليس فقط على وجود خالق لهذا الكون ، بل على وجود مدبر له يولي عنایته به وحاضر حضوراً مباشرأً وباطنةً فيه ، لا يعزب عنه أية رغبة من رغباتنا او أي حركة من حركاتنا ، دائم العناية لأقل فعل من أفعالنا ولأنفه مشروع من مشروعاتنا طوال حياتنا كلها<sup>(١)</sup> .

(١) عن نص للدكتور يحيى هويدي .

## (١٢)

ان أخطر ما يتسم به القرآن في مجال النظر الى الكتب السماوية الاخرى هو ما عبر عنه القرآن نفسه بأنه هيمنة القرآن التاريخية والعلمية . « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » والقرآن له طابعه الخاص في التاريخ حيث يتناول الحوادث تناولاً يدل على استقلاله العلمي ، وله في وسطها أسلوبه الخاص الذي يدل على هذا الاستقلال<sup>(١)</sup> فقد ذكر أشياء لم تذكرها التوراة ولم يذكرها الانجيل .

أولاً : ان توحيد ابراهيم وتحطيم الاوثان التي كان يقدسها أبوه وأهله لم تذكر في أي أثر وصل اليانا قبل القرآن الكريم .

ثانياً : التوراة لم تتناول حياة ابراهيم بين скلداينين وبين وداته لافتاتهم بوجود إله واحد ومحاولة نشر دعوته وتحطيم أصنامهم وقذفهم في النار ونجاته منها . ولم تتناول علاقته بوالده وما دار بينهما . كما لم تتكلم عن إعادة بناء ابراهيم واسمعائيل للبيت الحرام بينما تناول القرآن هذه الموضوعات .

---

(١) الأديان في القرآن : محمد بن الشري夫 .

ثالثاً : التوراة لم ت تعرض لكيفية براءة يوسف مما نسب اليه بشأن امرأة العزيز ، بينما شرحت القرآن شرحاً وافياً . وإن واحداً من أهلها شهد بالحق ، وقد ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ليكون أوجب للحججة وأوثق لبراءة يوسف .

رابعاً : فسر القرآن ما حار فيه الناس عن الاسلوب الذي حفظ به يوسف القمح سبع سنين من التلف والسوس .

خامساً : انفرد القرآن دون التوراة في مسائل كثيرة . ومنها مسألة موسى :

(١) الشرط الذي اشترطه شعيب على موسى لتزويمه أحدي ابنتهيه وقضاء موسى الأجل .

(٢) إيان السحرة الذين اخذوا موسى وسحورهم الله وصلب فرعون لهم وتمذيبهم .

(٣) امرأة فرعون وإيابها خفية . وأمر فرعون لآهaman ان يبني له صرحاً ليطلع إلى إله موسى .

(٤) انتشال جثة فرعون بعد غرقه .

(٥) مؤمن آل فرعون الذي أخذ يهدى الشعب .



وليس هيمنة القرآن هي هيمنة قارئية فحسب ، ولكنها هيمنة في مختلف النواحي التشريعية والأخلاقية والتربوية والاجتماعية . فضلاً عن الحقائق العلمية والفلسفية والطبية التي ما زالت تتكشف أسرارها الباهرة يوماً بعد يوم . ومن ذلك ما أورده القرآن عن جلوه الكافرين « إن الذين

كثروا بآياتنا سوف نصلفهم ناراً كلاماً نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها  
ليذوقوا العذاب » .

يقول الدكتور عبد العزيز اسماعيل في كتابه (الاسلام والطب والحديث) :  
الحكمة في تبديل جلود الكفار ان أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية . أما  
الأنسجة والعضلات والاعضاء الداخلية . فالاحساس فيها ضعيف ، لذلك  
فإن الحرق البسيط الذي يتتجاوز الجلد يحدث ألمًا شديداً بخلاف الحرق  
الشديد الذي يتتجاوز الجلد إلى الأنسجة لأنه مع شدته وخطوره لا يحدث  
ألمًا كبيراً<sup>(١)</sup> .



---

(١) استئننا في هذا الفصل بنصوص من كتاب (الأديان في القرآن) .

(١٣)

حرص الاسلام على الحيلولة دون رفع محمد الى مرتبة الالهة « فقد أعلن الاسلام صراحة ان محمدأ بشر عادي ، وانه عبد الله ورسوله ، ولا سيطرة له على الناس » لست عليهم بمسيطر « وانه لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه خرآ ولا نفعا ، بل كثيراً ما عوتب النبي في القرآن عتاباً شديداً »<sup>١١</sup>.

أما المسيحيون فقد خلطوا بين الخالق والخلوق فصادموا العقل والفطرة ، « ولقد كانت<sup>١٢</sup> ولادة عيسى من غير أب مثار خلاف واسع بين اليهود الذين تطرفوا الى الجهة السفلی فزعموا انه لقيط . وان امه بغي وبين المسيحيين الذين تطرفوا الى الجانب الآخر فزعموا انه إله في صورة بشر .

أما المسلمين فقد توسيطوا فنفوا عن أمه الزنا . وبذلك خالفوا اليهود . كانوا نفوا عنه الالوهية . وبذلك خالفوا النصارى . وفرق المسلمون بين الخالق والخلوق ، وبين الالوهية والنبوة .



أما الاسلام فقد اعترف بالاديان المنزلة كلها ، واعترف بالرسل . أما

---

( ١ و ٢ ) من بحث للأستاذ عبد الحفيظ القرموطي عن الفكر الاسلامي .

اليهودية واليسوعية فلم يعترفا بالإسلام ، وبينما وضع الإسلام نظاماً للتعايش مع الأديان . ورفض رفضاً باتاً إكراه أحد على الخروج من دينه . فقد جاء في الانجيل « اجبروهم على اعتناق دينكم » وحرص المسلمون على حماية كنائس المسيحيين وبيع اليهود ، وهي من قتل رهبانهم وصبيانهم ونسائهم . وحفظ لهم أداء طقوسهم ، أما اليهود والنصارى فعاملوا المسلمين أقسى معاملة في مثل هذه الحالات .



## البَابُ الثَّالِثُ

### الاسلام والأديان

الفصل الاول ، معلم الاسلام

الفصل الثاني ، التوحيد

الفصل الثالث ، تمدن البشرية وتحرير الانسان  
من العبودية

الفصل الرابع ، بناء المجتمع والانسان

الفصل الخامس ، الاسلام والأديان



## الفصل الأول

### معالم الاسلام

#### التوحيد :

- (١) الإيمان بالله وحده دون اشراك او تلذية او تعدد .
- (٢) الإيمان برسالة جميع الأنبياء والرسل والكتب المزلة .
- (٣) الأقرار بوحدة البشرية ووحدة الدين ، ووحدة الأخلاق وثباتها .  
انكار مفاهيم الحلول والاتحاد ، وإقرار وحدانية الله ، وتفرده بأنه سبحانه  
الأول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده شيء ، وإن هذا  
الكتون كله من صنعه ، وهو ليس متخدأً به .

وقد جعل الاسلام العلاقة بين الانسان وربه علاقة مباشرة بدون وساطة .  
والتوحيد هو العامل الاول الذي يعطي المسلم شهور المزة والكرامة ،  
والارتفاع على الاحداث والاخطر .

( ٢ )

الجمع بين العقيدة والتشريع والأخلاق في كل متكامل والربط بينها بحيث لا يجوز تجعل تجزئه هذه العناصر الثلاثة . ولذلك لم يفرق الاسلام بين المقيدة كعبادة - والشريعة كقانون - والأخلاق كسياج كامل تتعرّك فيه كل القيم - وفرائض الاسلام لا تزيد عن الطاقة - ولا يقر الاسلام الإسراف ولا البخل .

( ٣ )

### حرية الفكر :

بروز قاعدة حرية الفكر ؛ « لا إكراه في الدين » وأكبر تحرير للتفكير في الاسلام هو تحريره من الوثنية والمادية ، والاسلام أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين فيكون المسلم صحيحاً الاسلام . وفي نفس الوقت حر الفكر .

( ٤ )

### لا تز وازرة وزر أخرى :

ليس الانسان مسؤولاً عن خطيئة أحد ، وليس هناك خطيئة لأحد منها كان ، تلصحب على الناس جميعاً ، او البشرية كلها ، بل ناط الاسلام بكل انسان تبعة اعماله وتصرفاته .

وقد أقام الاسلام حرية الاختيار ، وتبعة الاعمال ، وقرر ان الاصل في الانسان الخير على خلاف ما تقول به اديان أخرى ، من أن الانسان خلق خاطئاً ، او كان في اول أمره إنساناً بينما يقرر القرآن ان الانسان خلق ظاهراً وخلق تاماً . وليس في الاسلام ان الخطيئة موروثة في الانسان قبل ولادته . ولا انه يحتاج الى التوبة عنها الى كفاره من غيره .

يقول جوستاف غرونياوم : ان الانسان الاسلامي على خلاف غيره لا ينوه تحت وطأة الخطيئة الاصلية التي تحكم عليه وعلى نفسه بالسوء والفساد .

( ٥ )

في الاسلام ترابط بين العقيدة والاخلاق . فلا تنفصل الاخلاق عن العقيدة ، ولا تقرر الاخلاق الا من داخل إطار اليمان بالله .

( ٦ )

### المجاهد :

المجاهد : ذروة سنام الاسلام وأعلى مقرراته وفريائه . وال الحرب في الاسلام جهاد مقدس في سبيل الدين والحق ، ودعوة الى احترام العهود والوفاء بالمواثيق ، ولا تستخدم القوة الا لرفع ظلم او اصلاح معوج .

والسلم في الاسلام قاعدة ، وال الحرب لا تكون الا لضرورة ، والسلام لا يقاتل غير المسلمين الا اذا حاربوا دعوتهم . وقارموا فكرتهم ، واعتدوا على أرضه ، وعمدوا الى إيناد أهلهم . ولا يمنع من إقامة العلاقة معهم اذا لم يحاربوا الاسلام والمسلمين .

( ٧ )

### الإيمان بالآخرة :

الإيمان بالآخرة والبعث والجزاء . وان الدنيا هي دار التجربة والعمل والإيمان بارتباط الدنيا والآخرة .

( ٨ )

### المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي :

اقرار المسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي وها موضع الحساب . كما قرر الاسلام المسؤلية الشاملة للطبقة المستضعفة في ان تأخذ وترد : والرقابة في الاسلام لا تأتي من شخص على شخص ولا من هيئة على هيئة . وانما هي رقابة المسلم لربه .

( ٩ )

الجمع بين الثبات والتطور : فهناك الثوابت التي لا تتغير ، وهي الاصول التي تقوم عليها حركة الاجزاء .

( ١٠ )

الشريعة الاسلامية : شريعة عالمية صالحة لكل زمان ومكان وهي إطار

ثبتت القوائم مرنة وأصول عامة . وقواعد كلية لا تقبل التطور او التغيير . وهي تبيح حرية الحركة ، وتسمح بالتشكل من الداخل على النحو الذي يوافق ، ويحوز فيها الاجتهاد بين عصر وعصر وبيئة وبيئة أخرى . وقد فتح الاسلام للناس باب الاجتهاد في تفهم الحقائق . والشريعة الاسلامية جعلت الجزاء مقتصرأً على صاحب الذنب وحده ، ولم تشدد كاليهود ، ولم تتساهم كالنصارى ، بل وقفت موقف التوسط فأباحت المنفعة وحرمت الضار .

## ( ١١ )

للمعرفة جناحان : روح وعقل ، او وحي وفكر . الوحي أساس : والعقل في حدود مهمته وقدرته خادم للوحي . أساس منهج المعرفة : المفهوم القرآني . وليس منهج الفلسفة . وقد دعا الاسلام الى المطالبة بالبرهان والدليل ، ونهى عن تحكيم الهوى او العصبية في الكشف عن الحقيقة . وقد فتح الاسلام باب الاجتهاد في فهم الحقائق . فلم يقصرها على طائفة خاصة من الناس .

وقرر دستور العلم فدعا الى عدم الانخداع بالأوهام ، ولا يغتروا بالظن . وأن يسألوا أهل الذكر ، ولا يقولوا بغير دليل . وأن يعملا عقو لهم فلا يقلدوا أحداً ، وأن يكونوا أحراراً في النظر لا يصدمن عن ذلك شيء . وقرر الاسلام ان لا كتمان للعلم : بل دعوة الى اذاعته وبشه في الناس . وعقاب من يكتمه . ولم يبطل حرية البحث بل أطلقها ، وجعل السلطان للحججة والبرهان ، ودعا الى التحرر من التبعية والتقليد .

(١٢)

العالم ليس سردياً ولا أزلياً ، بل هو حادث ، وكل شيء فيه له  
أجل مقرر .

(١٣)

فصل الاسلام بين الالوهية والبشرية ، كما فصل بين الله والعالم . ولا يقر  
الاسلام : الاشتراك والتناسخ او الحلول والاتحاد . وليس هناك من يسقط عنه  
التكليف ، ولو بلغ أعلى درجات العبادة .

(١٤)

أقام الاسلام : أصول الاخوة العالمية ، أساسه الترابط والمساواة ، هادماً  
للعبودية ولنظام استعلاء الطبقة الخاصة ، لاغياً للرق والسيطرة ، وحرراً  
للمعبد ، ومدخلاً ايام بشق الأساليب في نطاق الاخاء الانساني .

والاسلام لا يقر أي فروق في الجماعة على أساس اللون او الجنس او اللغة .  
وقد سوتى بين الأجناس . فلا يرى لأبيض على أسود فضلاً الا بالتفوى .  
وأقام وحدة عالمية تجمع مختلف العناصر والاقوام ، بصرف النظر عن الفوارق  
في اللون او الدين او اللغة .

ويعارض الاسلام نظرية ان يكون هناك جماعة معينة بينما دين الله عقداً  
خاصاً ليكون مسودة على العالم ، ويقرر ان عقد الله مع الناس هو التقوى .  
وبذلك شجب الاسلام الدعوة العنصرية القائمة على الدم والانساب . ومنع

التناضل بها ، ولم يحتمل الانساب والدماء ميزاناً لتقدير الناس والناس في  
الاسلام تكافأ دمائهم وأموالهم .

(١٥)

اعترف الاسلام بالرغائب البشرية وأباحها في إطار الضوابط الشرعية  
والاخلاقية ، والاعتراف بالخطأ ، وتقدير مدى الطاقة ، فلا يكلف الله نفساً  
إلا وسعها . وهناك المغفرة والمغفو . « فَنَمَضَتْ غَيْرُ بَاغِ وَلَا عَادَ فَلَا إِثْمَ  
عَلَيْهِ » وفي نفس الوقت الذي اعترف الاسلام فيه بالرغائب البشرية ، حرر  
الانسان من عبادة الشهوة ، او عبادة الاجساد ، او عبادة الفرد ،  
او عبادة ما سوى الله الواحد الأحد الحق . فقد دعا الاسلام الى تهذيب  
مدخل هذه الشهوات ومخارجها فوقف بها عند الحد الذي لا يؤذي الفرد  
ولا المجتمع . وبيبح قسطاً معتدلاً من المتعاق داشر ضوابط تحول دون تحطم  
الشخصية الانسانية .

(١٦)

الدعوة الى الانفاق .

(١٧)

تفرقه واضحة بين البيع والربا ، تحريم قام للربا ، « واحل الله البيع  
وحرم الربا » .

(١٨)

قرر الاسلام ان للمجتمعات نواميس ثابتة ، وان للوجود الانساني سننًا : هي سن الله في الكون . هذه السنن التي لا تبدل فيها ولا تغير ، وهي التي تحكم الحضارات والمدنيات وقد جاء في القرآن قبل أن يتمخليها أهل الارض تخليا : « سنة الله في الدين خلوا من قبل ولان تجد لسنة الله تبلا » .

(١٩)

إقرار مقوم «التقدم» على انه تقدم جامع ، مادي ومعنوي معًا . وليس تقدماً مادياً خالصاً وانه خالص الله . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً » .

والنجاح المادي يقره الاسلام ويرتضيه . ولكننه لا يراه غاية في ذاته ، بل هو مرتبط بالتبعية الادبية والغاية من مختلف أنواع النجاح ان يكون خالقياً .

الاسلام لا يعارض التقدم ، بل يدفع اليه دفعاً . فهو يدفع الى التميز العلمي والمعقلي ، والنظر في ملوكوت السموات . وقد حمل على الجهل والخرافة والكهانة والسحر .

(٣٠)

ليس هناك أثيوبيا خيالية : بل هناك واقع متصل بطبيعة الانسان ، لا يدفعه إلى الزهادة والاعتزال ، ولا يدفعه إلى التحلل والترف . وليس في

الاسلام تناقض بين المثل الاعلى . والواقع العملي للناس . ولا ما يصادم العقل البشري ، او الذوق او الفطرة ، او العلم .

(٣١)

هناك ترابط واضح بين العربية والإسلام ، وبين الأرض والأمة . وهناك وحدة الفكر التي تضم المسلمين جميعاً وتوجههم في اتجاه واحد ، قائم على التكامل والعدل والحق .

(٣٢)

لا يقر الاسلام الزهادة والرهبانية بمعنى اعتزال الحياة . وليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولكن الزهادة هي أن تكون بما في يد الله أو ثق منك بما في يدك .

وأقوى صور الزهد هو التضحية بالنفس في سبيل الجماعة . وقد دعا الاسلام جميع أبنائه الى الاندماج في المجتمع ، وقهرهم قهراً على الاخذ من منافع الدنيا بنصيب . وكل إيقافٍ للحياة على العبادة والزهد والتسلك مخالفة صريحة لمفهوم الاسلام لأنه ابتعاد عن الحياة العملية التي هي المحك الرئيسي الدقيق لمعرفة مدى إيمان الانسان بالإسلام . ويدعو الاسلام الانسان الى الزهد في وسط مغريات الحياة وليس بالعزلة عنها . وقد دعا الاسلام الى حفظ الدنيا وتنميتها في إطار التقوى وتوجيهها الى الله .

(٣٣)

ربط الاسلام بين المادي والمعنوي ، ولم يهمل الجانب المادي في سبيل

الجانب المعنوي ، ولم يحتقر الامور الدنيوية في سبيل إعلاء الروحيات .  
والاسلام لا يحتقر الامور الدنيوية . ولكنه يرمي الى منهج جامع بين الدين  
والدنيا بعيد عن النفعية والرهبانية . ( اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ،  
واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ) .

## (٣٤)

الفرد جزء من المجتمع . والمجتمع هو كل الأفراد : فالمجتمع للفرد والفرد  
للمجتمع . لم يصبح الإسلام بالفرد من أجل المجتمع ، ولا بالمجتمع من أجل  
الفرد ، وإنما أقام منها معه نظاماً متسقاً متاماً متكملاً فيه التقانة كامل وتوازن  
واضح .

وقرر الإسلام تضامن المجتمع في المسؤولية عن كل أفراده . وتحمل  
الضعفاء والفقرااء ، وأقام العدل الاجتماعي على أساس التضامن والمساواة  
والأخوة .

الإسلام يفرض كفالة مشتركة بين أهله . ويحمل العجزة والضعفاء  
والمحرومين موضع تقدير كبير ، ولا يطالب بإسقاطهم او قتلهم ، بل على  
العكس يطلب لهم حمايات وصيانت كاملة . ويعتبرهم موضع الرزق « إنما  
ترزقون بضعفائكم » .

## (٣٥)

في الإسلام يلتقي الدين بالعلم . والاسلام هو الذي دفع المسلمين الى  
الخروج من دائرة المنهج اليونياني القياسي الى انشاء منهج التجربة . فأنشأ

المسلمون : المنهج العلمي التجاري . وقد دعا الاسلام الى النظر في الكون ، والتأمل في الكائنات ومعرفة أسرار الوجود .

وقد جعل الاسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسئلة وفرض على الامة ان ترتب اقواماً لتعليم الناس . وحث الاسلام على العناية بتنمية العقل الانساني . وقد فضل الله العلم على العبادة وفضل العلم على إطلاقه ( علم الدنيا وعلم الدين ) . ومن هنا كشف الاسلام عن حقيقة هامة هي : انه لا يعارض بين حرية الفكر وبين ان يكون المفكر متديناً .

وقد وصل المسلمين الى غاية الغايات في العلم والثقافة . وظل بجرى عقولهم قائماً على الإيمان بالله . والعلم في الاسلام يزكي بالإنفاق . وقد أخذ الله الميثاق على من يعلم أن يبين ما يعلم للناس . وقد أطلق الاسلام حرية البحث ، وحث على الاجتهاد ، وقرر ان المخطيء أجرين اذا أصاب وأجرين اذا أخطأ وحرم التقليد .

ويحرر الاسلام دستور العلم فدعا الى عدم الانخداع بالأوهام او قبول الظن ، او اعتبار أي قول بغير دليل ، ودعا الى استعمال العقل وسؤال أهل الذكر . فلا يقلد أحد أحداً . وان يكونوا أحراراً في النظر لا يصدّهم عن ذلك شيء .

(٣٦)

اعترف الاسلام بناموس الترقى : طالب الاسلام بترقية الشخصية الانسانية بالضرب في الأرض وتعرف أحوال الامم وطبائعها . ودراسة ما هي عليه . واعتبر ان الانسان مسوق الى غايات من المدنية بعيدة لم ينزلها اليوم . وجعل للعاملين الخالصين ثواباً وأجرأ : من سنّ سنتَ حسنة فله أجرها وأجر من

عمل بها . كا دعا الاسلام الى تعمير الأرض واستخراج كنوزها وذخائرها .  
والتنافس في الصنائع والعلوم النافعة .

(٣٧)

أقام الاسلام الفطرة . ودعا الى نقاها . وشدد بالنهي عن إفسادها  
بالتعاليم الضارة . ونبيه الى ضرر التقليد الاعمى للآباء والقادة ، وأمر بطلب  
الدليل المقنع على كل عقيدة يتقىد بها داع لنجده .

(٣٨)

دعا الاسلام المسلمين الى التحرى عن الحق ، ودعهم الى ان يغيروا رأيهم اذا  
ظهر لهم وجه الصواب ولا يأنف المسلم ان يأخذ الحقيقة من اي واحد يأتيه  
بها ولو كان مخالفًا له في دينه ولغته . وألا يتبعصب لرأي ولا مذهب تعصبا  
يعنيه عن نظر ما عسى أن يكون فيه من خطأ .

(٣٩)

جعل الاسلام ضوابطه في الاساس مستهدفة عدم استهلاك الانسان لطاقةاته  
الجسدية والمادية بالدعوة الى القصد لا الإسراف .

(٤٠)

أكيد الاسلام قيام الصلة بين الانسان وخلقه دون وساطة أحد من الناس .

(٣١)

أكمل الاسلام انه ليس فيه سر ولا تناقض ولا أمر يعرفه أحد من دون المسلمين جميعا .

(٣٢)

ليس في الاسلام رجل دين له حق يزيد عن حق الانسان العادي ، ولا يخول الاسلام لطائفة من الامة حق السيطرة عليها في الاعتقادات والمعاملات.

(٣٣)

تكريم الانسان وتحريره من الرق والعبودية ، ورفعه الى درجة تليق به بوصفه مستخلفا في الارض .

(٣٤)

قرر الاسلام ان المال وسيلة لا غاية ، وطريق لا هدف ، وان المال وحده والانسان مختلف فيه استخلاقه للانتفاع به وتوجيهه في سبيل الله ومصلحة المجتمع . وقد كرم الاسلام العمل والانفاق والمال تظاهره الصدقة ، والزكاة ركن وهو نظام للتضامن الاجتماعي . ويرمي الاسلام الى تداول المال بين الناس دون تداوله بين طائفة خاصة . وقد قيد الشرع حق التصرف بالانفاق . يمنع السرف والتقتير . وقيد تنمية الثروة بمنع الغش والربا والقمار والاحتكار .

كما تضمن الدولة من لا مال عنده ولا عمل ، وتنتوى إيواء العجزة وذوي العاهات . وأنكر الإسلام احتكار الثروة في طبقة واحدة . وانكر احتكار التجارة في الأسواق العامة . وينع كنز الذهب والفضة ، ويحرم أكل أموال الناس بالباطل .

(٣٥)

أبرز معطيات الإسلام : الابحاثية المتفائلة برحمه الله ، وليس في الإسلام طابع الانهزام او اليأس او التساؤم الذي نراه في الفكر الغربي .

(٣٦)

دعا الإسلام الى المطابقة بين الكلمة والسلوك . والإيمان والعمل ، وربط بين العقيدة والعلم وجعل العلم متطلعاً الى معرفة الله .

وقد اتصل ذكر الإيمان في القرآن بذكر العمل الصالح أكثر من خمسين مرة « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ولا ريب ان أخطر الأخطار هو انفصال العلم عن العمل . وبقاء العلم دون ممارسة في العبادة او المعاملات او تحول الإيمان الى ايمان زهادة وليس الى إيمان اجتماعي .

والإسلام لا يريد المفاهيم والأفكار بعزل عن العمل والتطبيق وإنما يريد لها قوى دافعة لبناء حياة كاملة في إطارها وضمن حدودها .

(٣٧)

أعطى الإسلام المرأة مكانتها الإسلامية وحقها في أن تملك وتزاول التجارة

وتعقد العقود وتملك كل أنواع الملك ، ولها ان تنمي أموالها . ولا تحرم المرأة حقوقها الا اذا ثبت انه يلحق ضرراً بالمجتمع . وقد رد عنها الاسلام كثيراً من الاخطار . فقرر عدم كفاءة الفاسق للزواج بالمرأة المغيبة ولقد حرص الاسلام بقراراته للمرأة ان يجعل منها حصن ل الاسلام لا ينال . ولما كانت المرأة تضمن استمرار النوع فانها من اقوى المواجه التي تحمي قواعد الاسلام من التحلل والانهيار .

(٣٨)

سيادة الإنسان في الاسلام : ليس في سيادته جسماً ومادة ، بل في سيادة القيم الانسانية فيه .

(٣٩)

جعل الاسلام الجزاء مقتصرآ على الذنب وحده ورفع أساليب الظلم القديمة ، وحرم في الحرب قتل الشيوخ والأطفال والنساء والزهاد .

(٤٠)

دعا الاسلام الى الأخذ بالأسباب ، فان الله ربط الاسباب بالأسبابات .

(٤١)

ليس في الاسلام طبقة تدعى رجال الدين لهم في علاقتهم بالاسلام حقوقاً ليست لغيرهم وإنما يوجد علماء متخصصون في الدين .

(٤٢)

يقوم الاسلام على فكرة التضاهية والتقوى بينما يقوم الفكر الوثني على فكرة الرفاهية ويعدها المثل الأعلى له بما يتعارض مع البذل والفداء .

(٤٣)

التكوين الفردي في الاسلام أساس التقدم وليس التقدم العلمي .

(٤٤)

قدرة الاسلام على اعطاء مفهوم الحركة والتقدم والنماء والتوليد ، والأخذ والمعطاء . وعلى امتصاص كل ما يزيده قوة ، وطرد كل ما لا يتفق مع طابعه.

(٤٥)

أقام الانسان الوحدة الانسانية على أسس جديدة . قوامها الأخوة العالمية والتسوية بين الناس على اختلاف أسلتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات ومحو العصبية الوطنية وقتل النتنة الجنسية . وتعد سفرة الحج عاملًا قويًا في تطبيق مبدأ الوحدة الانسانية .

(٤٦)

أقام الاسلام نسباً محددة لكل ناحية من نواحي الحياة ومطلبًا من مطالبيها . وقرر ترتيبها بحسب أهميتها فجعل لكل من العبادة والجهاد والزكاة

والكسب حصة ونسبة . وجعل للجسم والعقل والمال واللذة واللهو والعمل  
وضعاً ومقداراً .

(ΣΥ)

دعا الاسلام الى الانصاف من النعس : وإقرار الحق بالنسبة للقريب والبعيد وجعل شرعيته تتساوى أمامها الامير والاجير . « ولا يجرمنك شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » وهو في هذا يواجه خطأ الحضارات التي تتصف أهلها ولا تتصف الفبر ، وعبر الرسول عن هذا عندما جاءه من يلتمس تخفييف المقوبة عن المخزومية التي سرقت وحكم الرسول بقطع يدها حين قال : (إنما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وائم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .



## الفصل الثاني

### التوحيد

جاء الاسلام مجدداً دعوة التوحيد التي هي الكلمة الاولى في كل الاديان السماء ، والاساس الثابت لكل الاديان ، والحقيقة الخالدة التي انحرفت بها تفسيرات الذين في بعض الاديان فخررت عن أصلها الاصيل .

ولقد كانت البشرية منذ أقدم عهودها على التوحيد الخالص ، وان الوثنية كانت عرضاً ملازماً لها . وليس كما تحاول بعض النظريات المطروحة الان في مقارنات الاديان والتي تقول بالتطور من الوثنية الى التوحيد .

وقد أثبتت الابحاث التاريخية والعلمية والانثropolوجية نظرية التوحيد ، وأكدها أكبر باحثيها من أمثال الدكتور ماكس مولر فتكشف اللغة السنسكريتية في قوله : « ان الناس كافوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص . وان الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينين بغياً بينهم ،

وفي ذلك دحض لفكرة النشوء والارتقاء التي تدعى ان الناس عبدوا الاصنام أو لا ، ولم يصلوا الى التوحيد الا أخيراً .

ولا ريب ان عقيدة الوحدانية هي أرقى ما وصلت اليه الانسانية . وقد أكد هذا المعنف العلامة «لانج» الذي اعتمد في رأيه عن التوحيد بما كشفه «هويس» عن الموجود الأسمى في قبائل استراليا الجنوبية الشرقية واستراليا والإله الأسمى لدى قبائل افريقيا وذلك في قوله : « ان كل انسان يحمل في نفسه فكرة العلية . وان هذه للفكرة كافية لتكوين العقيدة ان ثمة آلة صانعة وخالقة للكون . وان كل انسان لديه فكرة عن صنع الاشياء ، انه بعتقد في وجود صانع يفعلها ، ولا يستطيع هو ان يفعلها نحمد لدى الاهي القدماء الاعتقاد في خالقه » .



وحقيقة التوحيد التي جاء بها الاديان المنزلة ، وأكدها الاسلام ، أسقطت النظرة كانت موجودة حول الإله : الإله الحليف الجبار الذي يشعر أمامه بالضعف والذل والخوف من غضبه ، وأقام المفهوم الحقيقي لله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي يقبل التوبة ويدعو الى المغفرة ولا يجعل التكليف إلا على قدر الاستطاعة حيث لا يكلف الله نفسها إلا وسعها .

وكما حرر الاسلام البشرية من فكرة الإله الغير : إله الحرب كذلك حررها من تعدد الآله ، وأصل الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وقد أشار المؤرخ تويني الى هذا المعنف حين أشار الى إله المسيحية : الذي يوصف بأنه إله مخلص يضحى بنفسه فداءً للبشر وقال : ان الاسلام أعاد توكييد وحدانية الله في مقابل الضعف البدائي في تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية . وأشار الى ان المسيحية لم تلبث ان تغلبت

فكرة اليهودية عن الإله الغير ، وهي فكرة قادت المسيحية الى التهمصب الأعمى عوضاً عن فكرة المسيحية ويقول : ان هذه الوردة قد كبدت المسيحية خسارة روحية وجسمية ، ويعني هذا ان المسيحية الجديدة قد واجهت بين فكرتين متناقضتين : (الاولى) فكرة البطش وعدم التسامح وهي صفة إله اليهود (يهوه) ومن سماته الغضب والقسوة والغيرة . و(الثانية) فكرة الحبة والتسامح التي تقوم عليها دعائم المسيحية .



ويشير الباحثون الى أن الانحراف الذي أصيّبت به البشرية قد أدخلها في تعدد الآلهة « حق<sup>(١)</sup> » أصبح هذا التعدد عاماً في جميع الثقافات القديمة : قال به القدماء المصريون وقال به الآشوريون والبابليون والفرس والهنود والصين واليونان على اختلاف في عدد الآلهة ومكانتهم واختلاف في تصوّر صلة الآلهة بعضهم ببعض ، او صلتهم بالبشر » .



ولقد كانت الفلسفة اليونانية وثنية متعددة ، وكان مفهومها عن الله مضطرباً غاية الاضطراب : « ليس في اسلوبها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنح والرحمة . لم تثبت له الا الخلق الاول . ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة ونَسَمَت الصفات . وقررت كليات كلها حظّ من قدر الخالق وقياس على الخلق ، ومفهوم أرسطو يخرج الإله عن دائرة تدبير العالم ، بل حتى عن مجرد العلم .



(١) دكتور ابراهيم بيومي مذكور في بحث عن الفلسفة الاسلامية .

ولقد انحرفت اليهودية عن مفهوم التوحيد الذي جاء به موسى ، واصطنعت  
مفهوماً مغاييرآ<sup>(١)</sup> فاليهودية تعد الله فكراً مجردة ، وقوة خارقة مخوفة ، حق  
انها لا تتنطق ذكر اسم (يهوا) حين يرد في النص رهبة ورعباً وتنطقه باسم آخر  
هو (أدوناي) حين تقول المسيحية بأن الله تجسد في السيد المسيح . وان الله  
نزل الى الارض بصورة انسان ، وبذلك خرجت اليهودية الى التجريد ،  
وخرجت المسيحية الى التجسيم . وهناك أديان أله رسالها ودعاتها بعد موتهم  
وعبادوا : فأله بودا وزرادشت وال المسيح . ومن هنا كان حرص الاسلام على  
ان لا ينحرف الى التجريد او التجسيم . وان يؤكّد الفوارق بين الالوهية  
والنبوة ، وكان تأكيد محمد ﷺ الدائم وتأكيد القرآن على انه بشر  
يوحى اليه .

---

(١) دكتور اسحاق موسى الحسيني .

## ( ٢ )

الوثنية « هي<sup>(١)</sup> أحيط أنواع الشرك . وقد ذكرها القرآن أكثر من غيرها ، لأنها كانت منتشرة في العالم قبل الإسلام ، طقوسها تحكم المخصوص المشين والعبودية الضالة للأصنام على أنها تنفع وضرر وعلى أنها يقصد إليها في قضاء الحاجات » .

وأهم ما تمثله الوثنية<sup>(٢)</sup> « ان المعبود فيها بجوس ومن طبيعة الجوس ان يكون متعددًا ومتغيراً وغير مستمر النفع والضرر » .

ومن هنا توصف الشعوب الوثنية بأنها ضعيفة الإدراك وبدائمية . وقد كانت آلة الوثنية متعددة ، ومن هنا هاجم الإسلام تعدد الآلهة ، ودعا الإنسان إلى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه ولا تحد حقيقته لأنه فوق الطبيعة ، وجعل الطاعة لغير من يجوز عليه التغير والفناء ، ولا ريب أن تشخيص المعبود يؤدي إلى تقليل قداسته ، وارتفاع بالبشرية عن عبادة الشخص المحدود المتغير الفاني ، وفي هذا إشعار الإنسان بعكرامته . وتآلية البشر إنما يعني التبعية للشخص دون المبدأ . وقد ارتبط تعدد الآلهة بعبادة الأبطال

---

(١) مولاي محمد علي ( الدين الاسلامي ) - ١ .

(٢) دكتور محمد البهبي .

منذ وقت بعيد ، وقد تراوحت الوثنية بين التعدد والثلث . ويرجع ارتباط عبادة الابطال بالثلث الى ان الجماهير كانت تعبد البطل الذي يقوم بعمل ما ثم يتم خد البطل له روحه فتحتل معه مكان الاولوية . ثم تصل البطولة الى اكبر ابناه . فيتم الثالوث ، والبابليون هم أول من قال بالثالوث في الالف الرابع قبل المسيح . وكان البابليون يديرون بتعدد الآلهة .

ولقد ظلمت البشرية تتراوح في الوثنية بين التعدد والتمثيل حق ردها  
الاسلام الى التوحيد ، ومن هنا يمثل الاسلام أعلى مراحل ارتقاء البشرية الى  
الرشد والنضوج ، وقد جاء القرآن واضحاً في موقفه مع الوثنية المتعددة  
بكل أنواعها وجاء بالحقيقة الكبرى الناصعة ، فقرر ان الله واحد . ونفي  
كل أنواع التعدد ، وقرر انه لا يشبهه شيء من خلقه ، وانه متصف بالكلالات  
كلها متنزه عن الناقص كلها . وقرر انه غير مستطاع للعقل البشري ان يدرك  
كنه ذاته وحقيقة صفاته . كذلك تناول القرآن مختلف الشبهات التي لخصت  
معنى الالوهية من أدران الامم السابقة . فكشف عن زيفها ونقضها ، ودعم  
ذلك بالحجج الدامغة ، وأكى الحقيقة التي تقررها الفطرة عن صلة الانسان  
بالله . وكيف انه مربوب الله . وان الله مع الناس أينما كانوا وانه هو الذي  
يرحمهم وينهزم .

• ፳፻፲፭፻፲፭

وتنحصر العقائد الوثنية في أمرين<sup>١١</sup> : الاول تأليه الطبيعة او جزء من أجزائها كالشمس او القمر او بعض انواع الحيوان . والثاني : تأليه البشر ( فرداً او اسرة او جماعة ) . وذلك كعبادة الملوك والقادة ، والأنبياء والابطال والقديسين وال الأولياء . « اخذوا أحبارهم ورهبائهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مرريم » وقد عبَد الرومان واليونان والمصريون والفرس

١١) محمد المبارك .

والهندو أبطالهم وملوكهم : عبدوا الفرعون والقيصر والإمبراطور والبرهامي ، وهناك تأليه بعض الكائنات الخفية كالملائكة والآرواح والجن . وهناك آيديولوجيات محددة تعبد الدولة ، أو تؤله العقل .

•

والشرك من انحرافات الوثنية « ومداول<sup>(١)</sup> الشرك هو إشراك غير الله مع الله في الألوهية والربوبية والاتجاه والطقوس مع الاعتراف بالله كما يمكن ان يفهم من معنى الكلمة ، او الجمجمة بين الاعتراف بالله كإله أعظم وبين عبادة الملائكة شفاعة مع جعل الاولان رموزاً ادية لهؤلاء وقد ارتبطت الوثنية بالأصنام وببناء الهياكل التي عرفت في مصر وأثيوبيا والشام وبابل وعرفها الفراعنة والأشوريون واليونان والروم ، وكان الأشوريون صنعوا كل كتب لم يترك المصريون شيئاً إلا ألهوه .

•

---

(١) درردة عصر النبي .

### (٣)

يقول الفريد مز في كتابه : El, Yahve, et Jessus ( ايل - يهوه يسوع ) ان يسوع ألغى الاعتبار اليهودي وأعاد اعتبار ( ايل الكنعاني ) الفينيقي الذي عرفه العبرانيون بعد مجئهم الى أرض كنعان .

وان يهوه هو الإله الصحراوي الضيق الآفاق : الإله الذي كان يتميز بقسوة وعصبية قبيلته وان ( ايل الكنعاني الفينيقي ) كان حياً زمن يسوع ، وان تعاليمه التي كان قد طمس اليهود معالماها عادت مرة اخرى الى الظهور على يد يسوع . ومعنى هذا ان رسالة يسوع وتعاليمه وفكرته عن الله وعن الانسان لم تكن تكُن تَمْتُ بصلة الى الدين اليهودي .

ومهما يكن مفهوم الفريد مز فانه يتافق مع تاريخ الأديان في ان اليهودية حرفت مفهوم الإله وان السيد المسيح جاء مصححاً لمفهوم الله سبحانه وتعالى الذي جاء به ابراهيم وموسى : الله الواحد ، غير ان تفسيرات المسيحية للإله الواحد وللتوحيد لم تثبت ان انحرفت فأقامت اليهودية الإله القومي الخاص . وأقامت المسيحية الإله المحسد . ومن هنا فقد جاء الاسلام مصححاً للانحرافين .

جاء الاسلام مصححاً ما انحرف ( من أصول الدين الحق . وقد قضى الاسلام على الوثنية التي كانت سائدة في بيته ) وتصدى لليهودية والنصرانية فرد أصولها الى حقائقها . وقوم نظر الآخرين بها ونسخ ما بطلت الحاجة

اليه منها . ودعا العالم كله الى وحدة الدين ووحدة الوجهة والغاية مؤسساً دعوته على أصل ثابت : هو ان الله واحد ودينه يحيي خلقه واحد . « وهذا يعني ان الاديان متعالفة . فاما حدث ذلك من فعل قادتها والقائين بشرسها وتأويلها فطالب كل آخذ بها بالرجوع الى أصلها . وأصلها هو الاسلام الذي أوحى الى كل الرسل السابقين والى خاتمهم محمد على فترة منهم وشفع هذا البيان الحاسم بنظام اجتماعي حكم أقامه على الفطرة والمقل وأودع ذلك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

●

وقد أثبتت القرآن ان السيد المسيح عيسى بن مریم « بشر » وانه رسول مؤيد بوصي إلهي وانه نادى بعقيدة التوحيد . فدعوا الى عبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وقرر انه لم يقتل ولم يصلب بل وقاه الله .

وقد عرض القرآن زيف عقيدة التثليث على أي نحو من ألحانها : وأنكر دعوى الوهية المسيح او بنوة المسيح . وأعلن مفهوم العبودية : عبودية الناس والأنبياء لله سبحانه وتعالى ، مزيقاً نظرية الأبوة المدعاة « لقدر كفر الدين قالوا إن الله هو المسيح بن مریم » ، « لقدر كفر الدين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من الله إلا إله واحد » ، « ما المسيح بن مریم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » ، « لقدر كفر الدين قالوا إن الله هو المسيح بن مریم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يملك المسيح ابن مریم وأمه ومن في الأرض جميعاً » .

●

وقد أثبتت عشرات الباحثين من راجعوا هذه العقائد انه ليس<sup>(١)</sup> في كتب

---

(١) الأديان في القرآن .

النصارى ما يدل على ان المسيح قال بهذه الأقانيم الثلاثة بل فيها ما يدل على انسانيته وبشريته وعبوديته ووحدانيته لله وان المتصفح للإنجيل ليرى في عبارات صريحة واضحة ان الله واحد وان عيسى مرسى وانه ابن الانسان لا ابن الله .



وقد أوردت دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت مادة (ثالوث) : ان عقيدة الثالوث وإن لم تكن موجودة في المهد الجديد (الإنجيل) ولا في أعمال الآباء الرسوليين ، ولا في تلاميذهم الأقربين . الا ان الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستنти الواقع مع التقليد يزعمون ان عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحية في كل زمان رغم اvidence من أدلة التاريخ التي تبينا كيف ظهرت هذه العقيدة . وكيف قمت وكيف علقت بالكنيسة بعد ذلك ؟ نعم ان العادة في التعميد كانت ان يذكر اسم الآب والابن والروح القدس ، ولكن هذه الكلمات الثلاث كانت لها مدلولات غير ما يفهمه الان نصارى اليوم .

وان تلميذ المسيح الاولين الذين عرفوا شخصيته وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد انه أحد الاركان الثلاثة المكونة لذات الخالق . وما كان بطرس أحد حواريه يعتبره الا رجلاً موحى اليه من عند الله .

وكان الشأن في تلك العصور ان عقيدة انسانية عيسى كانت غالبة مدة تكون الكنيسة الاولى من اليهود المتنصرين، فان الناصريين والاثيوبيين وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهودية ، اعتقادت ان عيسى انسان محض مؤيد بالروح القدس ، وما كان أحد اذ ذاك يتمهم بهم بأنهم مبتدعون او ملحدون .



والثلثيات<sup>(١)</sup> في العقيدة المسيحية هو لون من لوان العبادة الوثنية والشرك ، فهو ليس بطارىء على العقيدة المسيحية ، ولكنه يمتد بمحذور عميق في أرض العقيدة إلى الوثنية العالمية القديمة ويتصل بها بأقوى الوسائل والصلات .

فالعقيدة المسيحية التي زعمت أن الله ثلاثة أقانيم : (أب وابن وروح القدس ) هي نفس العقيدة التي كان يدين بها قدماء المصريين في ثالوثهم (ايزيس وأوزوريس وحورس ) وهي نفس الثالوث الجاهلي العربي (اللات والعزى ومناة ) وهي نفس الثالوث البرهني في الديانة الهندية (براها وسيفا وفشنو) وهي نفس الثالوث الإلهي لقبائل الباانتو الأفريقية: (ميزيرو وببيبو ومولنجو) .

ويقول سير أرتور فندلاري : إن نفس العبارات التي قيلت لأوزوريس نسبت إلى السيد المسيح ولما أضيف اسم عيسى إلى قائمة الآلهة الخالصين أصبحت كل القصص التي قيلت عن الآلهة الوثنية تقال بالمثل تماماً عن عيسى المسيح : ومنها قصة الولادة من العذراء ، قصة المحاكمة قبل الموت ، طريقة الاعدام ، طريقة القيامة ، طريقة الصعود ، قصة القيامة بالجسد .

---

(١) الأدبان في القرآن : محمود بن الشريفة .

( ٤ )

والاسلام يبرئ السيد المسيح من الصليب ، ويقرر في وضوح وتأكيد ان المسيح لم يقتل ولم يصلب : « وقولهم إنا قتلنا المسيح بن مریم رسول الله وما قتلواه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفی شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلواه يقيناً بل رفعه الله إليه » .

وقد شكلت نهاية المسيح على هذه الصورة لتفق مع فكرة الفداء والخطيئة ، والاسلام يقرر انكار هذا المفهوم من أساسه : مفهوم انه نزل ليقتدي البشر ورضي بأن يصلب ويُعذب ليكون فداء عن أخطاء البشرية .

وكتير من العقول المسيحية المتحررة أنكرت فكرة صلب المسيح من أمثال مرقبون وستروس ورنينيان وقالوا : ان سمعان القبرواني رضي ان يصلب بدلاً من المسيح ولذلك جعل الله هيئة مثل هيئة المسيح .

ويقرر الباحثون : ان<sup>(١)</sup> عقيدة الفداء والصلب في المسيحية مردها الى العقيدة الوثنية في الديانة البرهنية التي سبقت المسيحية بأجيال ، وأوضحت المقارنات ان الهندو يعتقدون ان كرستنا صلب ومات على الصليب كما يقول

---

(١) الأديان في القرآن لعمود بن التسريف ، وراجع محاضرات النصرانية لأبي زهرة ، رأظهار الحق لرحمة الله الهندي ، والأسفار المقدسة للدكتور وافي .

المسيحيون . وان الہنود الوثنين قالوا عن يوذا انه ابن الله وانه تجسس بواسطه حلول روح القدس في العذراء ماريا . كما ان النصارى قالوا ان المسيح ابن الله وانه تجسس بواسطه حلول الروح القدس في العذراء مريم .

وتند عقيدة الحلول المسيحية الى عقائد الصابئين الذين يقولون بالحلولية . وهم الذين يزعمون وحدة الإله ، وانه يحل في الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها ويتشكل بأشكالها .

ولا يقر الاسلام ما يسمى بـ «الخطيئة الاصلية» التي ارتكبها آدم وورثها عنه البشر وينكر وجودها كليه ويحرر العقل البشري من شرورها التي توالت مدي القرون ونشأت من أجلها الحروب والمعارك .

فالقرآن يشير الى ان آدم عصا ربها فخوى ، وان الله قبل توبته ، ثم اجتباه فتاب عليه وهدى . والإسلام يقرر انه ليس هناك خطيئة موروثة . وان أعمال الآباء لا يؤخذ بغيرتها الابناء . وان كل امرئ بما كسب رهين . وذلك يتعارض مع التقسيميات التي ليست من أصول رسالة المسيح ، والتي تدور حول خطيئة آدم حينما عصى ربها فعوقب بالنزول الى الارض ، وتعرض لغضب الله فعوقب بالأمراض والموت . ثم شمل الغضب ذرية الانسان، وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة في نسله هذا وان كافة الانبياء والرسل الذين جاؤوا قبل المسيح كانت مهمتهم الإعداد لإنقاذ البشرية من الخطيئة والتهميد لظهور المسيح .

ومن هنا فان الانسان يولد مذنبًا خاطئا حاملا لما يسمى بخطيئة آدم وان صلب المسيح انا وقع للتکفير عن خطيئة البشر ، وان الله كان على ان يعاقب ذرية آدم بسبب هذه الخطيئة لولا توسط ابن الله ووحيده وقبوله ان يظهر في شكل انسان ثم يصلب ليکفر عن خطيئة البشر . وتعتمد الكنيسة في عملية الإنقاذ على رموز دينية تعرف بالاسرار السبعة . وعن طريق ممارسة تلك

الاسرار تحضن الكنيسة المسيحية من المهد الى المهد . وان التعميد هو السر الذي قصد به الى إزالة الخطيئة الاولى ونحو الولادة الروحية الثانية . وتذهب تفسيرات المسيحية الى أن الطفل شرير بطبيعته وانه يولد مملاً بكثير من الشرور والآثام فيجب ان يقمع ذلك بالشدة والعنف وان يسلك به سبيل التعذيب واليتم .

وقد نسف الاسلام هذه المفاهيم وزيفها وكشف عن انها ليست من اصول الدين الحق ، واغا من أوهام البشرية التي حلها بعض الدعاة وانها تتعارض مع الفطرة والعقل .

وقد كشف الاسلام عن الحقيقة في ان كل مولود يولد على القطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه . وقد استمد جان جاك روسو وجون لوك هذا المفهوم من مفهوم الاسلام فقال روسو معارضًا لـ تفسيرات المسيحية ان الطفل خير بطبيعته وان عقليته كالصفحة البيضاء يسيطر عليها المرء ما يشاء .

وقد كان لفاهيم الخطيئة أثرها البعيد في الأدب والفكر الغربي مما لا يزال قائماً ومتداً الى الان ، وأبرز هذه الآثار خلق مذهب التشاؤم الذي كان مصدر روح السلبية واحتقار الانسان .

ويرسم الدكتور محمد مندور الصورة المسيحية للمثل الأعلى فيقول : ان مفهومهم يقوم على أساس ان الطبيعة البشرية فاسدة : أفسدتها الخطيئة منذ نشأتها . ومن ثم فواجبنا ليس إصلاحها بل القضاء عليها ، لإعادة خلقها ، يجبر ان يقبل في أنفسنا الرجل القديم بتعذيب الجسم ، أعني ان ثوت لنحيانا من جديد حياة أخلاقية . وان تربية الفرد ليست في تعهد ميلوه بالناء ، بل في اقتلاع ميله الاساسي الى الافة وتطعيمه بميل جديد مضاد للطبيعة ويقول في الحق ان النظرية تكلف الطبيعة البشرية فوق ما تستطيع بحيث لا يمكن

إملاؤها على الأغلبية من البشر<sup>(١)</sup> .

ومن هنا تبرز للخطيئة آثار بعيدة المدى في الفكر الغربي كله وفي الفلسفات والمذاهب والآيديولوجيات الحديثة جمِيعاً . ذلك أن التعاليم الأخلاقية المسيحية في ضوء مفهوم الخطيئة تنص على بعض الجسد وعلى الفلو في كبح شهوات البدن الطبيعية . وهذه من شأنها أن تؤدي إلى افساد أخلاق الأفراد وتعالمهم النفاق والكذب وإرغامهم على خادعة المجتمع والظهور بظاهر الفضيلة . ومن هنا كانت الرهبانية وأخطارها البعيدة المدى . ومن هنا فإن هذا التحول الخطير في تفسيرات المسيحية المعارض للفطرة والعقل قد أحدث آثاراً بعيدة المدى .

أما الإسلام فيرد المسائل كلها إلى طبائعها الأصلية . فالخطيئة في لغة العرب المجاهلين . ثم في لغة المسلمين لا تحمل شيئاً من معانها ولو ازماها في لغة النصارى ، وإن كان اللفظ واحداً ومعصية آدم عند المسلمين كسائر المعاصي تحوها التوبة ، وخطيتها كسائر الخطايا تغسلها المغفرة . والمغفرة يملكتها الله تعالى . وقد تلقى آدم من ربِّه كلمات فتَابَ عليه وهدى ، فكانت توبَةَ آدم ماحية لمعصيته في الدنيا والآخرة لا تستتبع عقوبة باقية . وإن الله سبحانه كتب في صحف إبراهيم وموسى : «أن لا تُرِدْ وازرة وزر أخرى» ، فلا يرث مولود خطيئة والد (وان ليس للإنسان إلا ما سعى) وإن هذا الضرب من الخطأ فيه لا أصل له في عقيدة المسلم ، بل هو منهي عن أن يعتقد توارث الخطية<sup>(٢)</sup> .

والمعروف أن فكرة الخطية قال بها (بولس) ولم تثبت بعض الجامع ان

(١) الدكتور مندور : من المواطن القديم .

(٢) محمود محمد شاكر : الرسالة ١٩٦٤ .

اعتبرتها جوهر الایمان المسيحي وقد ارتبطت في التفسيرات المسيحية فكرة الخطيئة بفكرة الخلاص .

وهنا يبدو الفارق الواضح بين نظرية الاسلام ونظرية المسيحية الى الانسان: فالمسيحية ترى ان الانسان خطئ بطبعته ومحاج الى غفران الخطيئة بالفداء. أما الاسلام فيرى ان الانسان حر الاراده، وان ارادته تلزمته التبعه والمسؤوليه أمام ربه والالتزام الاخلاقي أمام الناس . وان ذلك كله يرتبط بالبعث والجزاء الآخروي .

(٥)

فرق الإسلام بين الالوهية والنبوة تفريقاً واضحاً ، فالله هو خالق كل شيء والنبي بشر من خلق الله ، منحه الله هبة ميّزته عن الناس ، حيث اختصه الله بالوحى اليه ليحمل رسالته الى الناس . وقد أشار القرآن ( وهو كلام الله المنزل ) وخاتم كتبه والنون المؤتى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن الأنبياء والرسول جميعاً هم من خلق الله . وأنهم لا يملكون أن يدعوا الألوهية ( وما كان لنبي أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ) وقد أرسل الله لكل أمة رسولاً من أنفسهم ، وأيدهم بالبينات والمعجزات الباهرة ، وقد اختارهم الله من صفة خلقه وأعدهم اعداداً خاصاً يؤهلهم لحمل الرسالة الخطيرة . وهي دعوة الناس الى التوحيد ، وما من رسول أرسل إلا وقد أوحى الله اليه . وأنزل معه صحفاً أو رسالة أو كتاباً . وغاية إرسال الرسل من الله هي اقامة الحجۃ على العباد .

والوحى مصدره الوحيد هو الله . ومن هنا فليس النبوة كالبطولة ، وليس الوحي كالإلهام الذي يكون لغير الأنبياء . ولن泥土 الرسالة او النبوة بما يكتسب بالرياضيات او المغادرات وليس النبي او الرسول زعيماً او مصلحاً او عقرياً استطاع أن يستوعب فكر عصره . وحمل لواء الدعوة للإصلاح المجتمع ، كما يتعدد في مفاهيم الفلسفة المعادية المنكرة للقيادات ، والأنبياء معصومون عن ارتكاب الذنوب وعن التحرير وإن كانوا كثيرون يتعرضون

للمرض والضعف والموت . ويحوز في حقهم الصدق والأمانة والتبلیغ والفطانة  
ويستحیل في حقهم : الكذب والخيانة والکثبان والبلاده .

وقد أوضح الإسلام مفهوم النبوة على نحو بعيد كل البعد عن الشبهات والريب . وأكَّد القرآن صفة النبي بما يحمله (بشر آيوحى عليه) وذلك لتحرير العقل البشري من أي تداخل بين الألوهية والنبوة، وإفساحاً للمسافة الشاسعة بينهما . فهو يوحى إليه بإذن الله ويعطى المعجزات بإذن الله . وما جعل الله ليشر من قبله الخلد، ويجوز في حقه ما يجوز في حق البشر من الأكل والشرب والنوم واليقطلة والزواج والتزاوج . فهو بشر من حيث يستحيل عليه أن يكون إلهًا ، ثم هو يتميز عن البشر بهذه الأمانة التي حمله الله إليها . وله مظاهر أساسيات: الوحي والمعجزة والوحى شرعاً معرفة يحملها النبي في نفسه مع اليقين أنها من قبل الله تعالى بواسطة سمع أو غيره أو بلا واسطة . والمعجزة أمر خارق للعادة، مقرر بالتحدي على يد مدعى النبي موافقاً لدعوه على وجه يعجز المشكك عن الإتيان بهشه . وأن الله تعالى هو الذي يخلق المعجزة مباشرة وبدون واسطة ليبين للناس صدق رسالته ، ويفتح لهم باب النظر فيها جاؤوا به . والعصمة من شأن الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله لرسالتهم وتزهُّمُهم عن الشبهات وعصمتهم من المعاصر (١١).

والفرق واضح بين النبوة والعبقرية ، ذلك أن العبرية هي أمر دون النبوة وهي من الذكاء والبراعة والقدرة على اكتساب الزعامة والتصدر في مجال الفكر أو العمل وهي تختلف عن النبوة وتقل عنها وهي أقرب إلى الإلهام والقدرة على الابتكار وحل الأمور في براعة ومرونة . والعبقرية أطلقها العرب على الإلهام بغير نبوة ، وأثر عن الرسول قوله : لقد كان فيما قبلكم محدثون ( أي ملمون في إصابة الحق والصواب وفي حل المضلات وفي ابتداع ما لم

١) رسالة في التوحيد : كمال الدين الطائي .

يسبقوا اليه ) . فإن يكن في أمي أحد فإنه عمر بن الخطاب .

وفي صحيح مسلم : ملهمون : وهي الإصابة بغير نبوة . وقد وصف الرسول عمر في بعض المناسبات بالعقبالية « ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحال على عزبًا . فلم أر عزبًا يفري فريه » ومن هنا فإن العقبالية التي يوصف بها عمر لا يجوز أن يوصف بها النبي المؤيد بالرحى ، وسيدنا عمر قبة القمم في باب العقبالية . ولكن أين العقبالية من النبوة .

والفرق كذلك بين الرحى والإلهام واضح . فالوحى مصدره الوحد هو الله ، والإلهام اكتساب وهو لغير الأنبياء . وقد وصف الإلهام بأنه وجدان يالأ النفس وينساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى ، أما الوحى فإنه يكون محسوباً بيقين النبي بأذهنه من قبل الله تعالى . ولقد ذُكر في على بعض الناس الفارق العميق بين النبوة وبين الملائكة . ومن ذلك أنه لما أسلم أبو سفيان ابن حرب ليلة الفتح . قال النبي للعباس خذ أبا سفيان وقف به عند خطم الجبل وذلك ليرى جيش الفتح . فترت كثائب الله وفيها التكثيرية الخضراء ، فلم يتناكل أبو سفيان أن قال : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا . وقال له العباس : إنما النبوة يا أبا سفيان ، نعم والله إنما النبوة ، وهكذا تليق البطولة بمني والزعامة بمعاوية والقيادة بخالد والعقبالية بعمر . ولكن الذي يصبح أكبر من ذلك بكثير وأسمى من أي مصلح أو زعيم أو قائداً أو عبقرى <sup>(١)</sup> .

---

(١) راجع بحث الدكتور محمد أحمد الغمراوي ( مجلة الشبان المسلم . ١٩٦٧ ) .

( ٦ )

والسيد المسيح عيسى بن مریم انسان ورسول ، قدر الله سبحانه وادته على نحو خاص ليكون ذبراً على قدرة الله التي تضع السنان والقوانين و تستطيع أن تخربها حين تشاء . ولليمم الناس ان الله على كل شيء قادر ، وان ما كانت تدعيه الفلسفة اليونانية من ان الدنيا تتحرك في حدود قوانين صارمة ومنطق محدد . هو زيف من شأن الله تبارك وتعالى ان يتباوازه .

وان المراجعة الواضحة لهذه التفرقة بين الالوهية والنبوة والانفصال بينهما تكشف عن مكانة السيد المسيح الحقيقة . وتكشف عن ان مسيح الاناجيل ومسيح بولس شخصان لا يتقانان .

وقد أشار الى هذا المعنى كثيرون في مقدمتهم الدكتور راشد شناس كارليل الذي قال : ان قراءاته للكتاب المقدس أثبتت ان المسيح ليس إلهًا ولم يدع الالوهية . والحق ان ترجمة السيد المسيح الموجودة في الاناجيل كتبت بعد وفاته بوقت طويل ، هو مائة سنة على الاقل ، وان تاريخ ولادة المسيح قد غيرت مراراً الى ان استقر الاسر على أنها وقعت يوم ٢٥ ديسمبر وهو أحد الاعياد الدينية المتأصلة في الدولة الرومانية . وانه ليس هناك من المادة التاريخية ما يعين على رسم صورة كاملة لحياة السيد المسيح . وان جواب كثيرة ما زالت غامضة وغير معروفة . أين هذا من تلك الدقة العجيبة في

مقررات وقائع سيدنا محمد ﷺ حق يمكن القول انه ما من حدث صغير او كبير في حياته الا استوعبته السنة . ويدهش لهذا كتاب الغرب أنفسهم ويجهلونه موضع مقارناتهم وتعليلاتهم فيقول ( رلور نديسورت سميث ) في كتابه محمد والحمدية : قد لا نعلم من سير الأنبياء الا شذرات ، الا نبي الاسلام فأمره واضح ليس فيه سرٌ مكتوم عن أحد ، ولا غمة ينبعها أمرها على التاريخ ، ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، والأمر كله واضح وضوح النهار كأنه الشمس عند الضحى يتبيان تحت نورها كل شيء .



أما حياة السيد المسيح فان هناك ثلاثة آراء يرويها المؤرخون حولها .

(١) رأي يقوم على التفريط في حق المسيح ﷺ فيذهب الى حد القول بأنه شخص غير تاريخي . وان سورة المسيح التي نزد الكنيسة ان تناقشها في عقول الناس وقلوبهم . اغا هي سورة مزورة ورثها الناس عن الوثنيات القديمة وان كل ما في المسيحية له أصل في ديانات الوثنين التي جاءت قبل المسيحية بآلف السنين . ويقول بهذا الرأي : ج.م. روبرلشون ، وجان هارنكتون ، والدكتور فريزر و ج.د. بارسونا وادورز كانيتر .

(٢) والرأي الثاني : قائم على الإفراط في حق المسيح ﷺ ورفعه الى منزلة الألوهية .

(٣) والرأي الثالث : قائم على أساس الاعتدال فيعترف للمسيح بالوجود القاريحي ويترمه وأمه عليهم السلام عن الصفات المريمية ويحفظ له المكانة التي وضعه بها الله عز وجل .



ويضع الاسلام مفهوم العبودية لله مصححاً لمفهوم الاية ، فالاب الكبير لا وجود له في الاسلام ولا وجود للإله الخاص ولا للإله المضحي بالفداء من أجل الخطيئة . ويؤمن المسلمون بأنه لا (إله) إلا الله وحده الرحمن الرحيم . وان التثليث والأية والخطيئة والفداء تتعارض مع التوحيد الخالص .

( ٧ )

يقرر الاسلام حقيقة أساسية ينفرد بها في مقارنات الاديان . تلك هي انه ليست هناك وساطة بين الله وعباده فليس الاسلام هيئه لاهوتية او رجال دين يكرون بيدهم الشفاعة او الوصاية او الولاية او التخلص بين الله وعباده ، ويقرر الاسلام ان الصلة بين الله والانسان لا فجوة فيها ولا حلقة مفقودة على حد تعبير بعض التفسيرات ، ومن هنا فلا يمترأ الاسلام بهيئة كهنوتية . ولا مؤسسة ولا حكومة ثيوقراطية على النحو الذي عرفته اوربا في القرون الوسطى .

وفي بعض الاديان « ادعى رجال الدين ان الله اختصهم من بين عباده ليكونوا وسطاء بينه وبين الناس » وقد طلبوا من الناس الخضوع والطاعة العميماء ، وحالوا بينهم وبين الكتاب المقدس وحرموا عليهم النظر في الكائنات وفهم أحداث العالم ، وتمتصروا للنصوص الدينية وفسروا كل شيء على مقتضاهما ، .

ومن هنا وضعوا هذه المؤسسات أصول الملم وفروعه وفصلت في جميع المسائل الجوهرية كخالق الانسان وطبيعته . والغاية من حياته . ونتج عن

هذا اعراض عن الدنيا وكراهيته لها . وعمت الاحرافات والكلمات . وكانت أخطر النظريات التي قدمتها هذه الفلسفات والتفسيرات :

ان الانسان مؤلف من عنصرين : هما النفس والجسم ، وان هناك نزاعاً مستمراً بينهما . وان الكمال الروحي الذي ينشده الإنسان لا يتم له الا اذا فارقت الروح الجسد . وان هذه النظرية المرتبطة بنظرية الخطيئة ما تزال تلاحق الفكر الغربي وتؤثر فيه آثاراً بعيدة المدى .

وقد ارتبط وجود المؤسسة بالفساد والاسرار السبعة وع祌مة الرئيس الأعلى . وقد قيل ان كنيسة روما أسست بتفويض من المسيح نفسه ، وقد أصدر الامبراطور عام ٤٤٥ قراراً يجعل رئيس أساقفة روما رئيساً عاماً للكنائس المسيحية : وقد استولى جريجوري رئيس أساقفة روما على السلطة السياسية (٤٤٠ - ٤٦١) في روما ، ومنذ ذلك الوقت ظل السلطان في يد البابوات اثني عشر قرناً « ومن ثم استولت كنيسة روما على السلطة السياسية للامبراطورية الى جوار السلطة الروحية . وكونت الكنيسة بذلك دولة ، وادعت الحق في أن يمتد حكمها فيشمل جميع المسيحية في كل البقاع . وان مكانتها أعلى من مكانة الملوك والأباطرة ، وان البابا له السيادة العليا في القضاء والادارة . وانه المشرع والمفسر النهائي لكتاب المقدس ، ومن ثم سيطرت الكنيسة على القضاء . واستعملت حق الحرمان كأكبر عقوبة تنزلها بمخالفتها . واجتمعت في يد الكنيسة جميع شؤون الاسرة كالزواج والطلاق . وعد رجال الكنيسة أنفسهم بمثيلن الله . فأخذوا حق قيادة أفكار الناس وأعمالهم » .

وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية منذ القرون الاولى ان البابا معصوم من

الخطأ في أمور الإيمان وآداب الدين . وفي ظل هذا النظام حلت الكنيسة لواء حدثين من أخطر أحداث التاريخ . الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش .

ولقد تجهّث الكنيسة منذ أن بلغت ذروتها إلى اضطهاد مخالفيها ، وقامت بتعذيب ألوف الناس قسراً ودفعه واحدة . كما أنها دست في الكتب الدينية معلومات بشرية ومسامات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، كما دسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس . وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ويفسرها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية . وصاغوها صيغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها . وأبین كل ما يعارضها<sup>(١)</sup> ، وكان من نتيجة ذلك انه حين أعلنت الكشوف العلمية « قامت قيامة الكنيسة وكفروا العلماء واستحلوا دماءهم وأموالهم . وأنشأوا محاكمة التفتيش التي تعاقب - كما يقول البابا - أولئك الملحدين والزنادقة . فجحدت واجتهدت ما لا تدع في العالم النصراني عرقاً نابضاً ضد الكنيسة . وأثبتت عيوبها في طول البلاد وعرضها وأحصت على الناس الأنفاس ويقدر ان من عاقبته هذه المحاكمة يبلغ عددهم ثلاثة ألف أحراق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء كان منهم العالم الطبيعي برونو . وعوقب العالم الطبيعي الشهير ( غاليليو ) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس »<sup>(٢)</sup> .

(١) التدريسي: ماذا يخسر العالم بالمخاطر المسلمين؟

(٢) نفس المصدر.

وهكذا يبدو طابع الاسلام الذي قام وانتشر من غير هيئة لاهوتية ولا رجال دين . والذى قرر أساساً « انه لا وساطة بين الله وعباده » يبدو هذا الطابع واضحاً جلياً فيها رفع به الاسلام البشرية الى الاماam خطوات وحررها من قيود . وان إلقاء نظرة واحدة على الصراع الذى قام في أوربا بين الكاثوليكية والبروتستانتية ليكشف عن صورة مريرة مظلمة أشد قساوة وعنفأ ، وتمثل معركة سانت بارتلمى صورة واحدة من صور هذه الحركة التي امتدت عامين متوالين .

وقد وقعت معركة سانت بارتلمى في القرن السادس عشر وفي عام ١٥٧٢ على التحقيق . وفقدت فرنسا بها زهرة رجالها من أهل العقل والفضيلة والحرية والعلم والصناعة .

وقد جاءت نتيجة ظهور المذهب البروتستانتي الذي ظهر في ألمانيا في أوائل القرن السادس عشر وامتد الىسائر ممالك أوربا . وقد حدث أن انحراف في فرنسا الى البروتستانت كل من كان ناقماً على سلوك الكنيسة الكاثوليكية اذ ذاك . هنالك جرت مقتلة عامة على يد الكنيسة الكاثوليكية ، فلما دقت الكنائس أجراسمها ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧١ كان ذلك إثارة للجنون والمنطوعين بالبدء في الفتك بالبروتستانت . فدهروا بيوتهم وفي أيديهم المشاعل تضيي ، الطريق في الليل الدامي ، وأخذوا يفتكون بالأبرياء مرتكبين من القسوة والوحشية ما يندر مثله في تاريخ البشر ، حيث يقرروا بطوفن الحوامل وأخرجوا الأجنة ثم ألقواها الكلاب والخنازير . وكانوا يسلمون الأطفال الذين في المهد للصغار الذين في سين العشر سنين من أولاد الكاثوليك ويأمرونهم بقتلهم جزآً من عناقهم في أسواق باريس . ولم يزالوا كذلك حتى سالت شوارع المدينة بالدماء . وعجبت الا صوات الى السماء ، وتكرر حدوث ذلك في كثير من مدن فرنسا ومن أعجب ما وقع ان الكنائس دقت مرة أخرى في اليوم التالي . فظن اتباع الحق الدينى بأن ذلك كان أمراً مجدداً

باستئناف القتال فأخروا على إخوانهم قتلاً ونهباً وتمثيلاً بأشد مما فعلوا بالأمس. واستمرت المجزرة إلى اليوم الثالث؛ ثم استحالات إلى مذابح فردية طوال شهري سبتمبر وأكتوبر في باريس وغيرها.

هذه الصورة القاسية متساوية إلى الصور الأخرى تكشف عن مدى ما قدمه الإسلام بالتوحيد إلى البشرية.

## ( ٨ )

وموقف الاسلام من عقيدة البعث متسق مع طبيعته ومنهجه وتكامله ، وحيث تحاول التفسيرات اليهودية ان تنكر البعث والجزاء الآخرولي التلغى المسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي . وتطرح مفاهيم التحلل والترف والعبء من الحياة دون تقدير لمهمة الانسان في الحياة . ومسؤوليته في المجتمع وارتباط عمله في الدنيا بالمرحلة الأخيرة من حياته وهي مرحلة الجزاء الآخرولي .

وعقيدة البعث اثنا تتمثل واحداً من المفاهيم الاساسية لترابط الدين والمجتمع ولتكامل الشخصية الانسانية في رسالتها وغايتها ، وانها عميقة الجذور في هذا التركيب بحيث لا يمكن فصلها عن الدين الحق . وهي عالمة واضحة على واقعية الاسلام ونظرته الى حياة الانسان ككل متكامل وفهم عميق لحقائق الحياة الانسانية التي تجمع بين الجوانب المادية والروحية معاً .

فالاسلام لا يقر «الرهبانية» التي تعزل الانسان عن طيبات الرزق ، ولا يقر في نفس الوقت الإباحة والتحلل الذي يحطم كيان الانسان ، وهو حين يفعل ذلك اثنا يضع الانسان في مكانه الحق من حيث هو بشر له أمانته ومسؤوليته وإرادته الحرة وحسابه وجزاؤه على أفعاله .

ولا ريب ان محاولة التشكيك في عقيدة البعث اثنا تهدف الدعوة الى التحلل ، ودفع الناس الى الشهوات ، وتدمیر الضوابط التي تحول بينهم وبين

الفساد والإباحة « فلا يرى المرء ان له حياة الا هذه الحياة ، وانه اذا لم يمتنع نفسه بكل الشهوات خسر اناً مبيناً فاندفع يقترف هذه الشهوات من كل سبيل » ومن حيث يفقد الانسان الامان يهزء الاعمال فانه لا ريب تستوي عنده الحسنة والسيئة ، و اذا سقطت عنده عقيدةبعث . وآمن أن الحياة تغفي بلا جزاء فان غرائزه تتفتح الى التهام كل شيء .

ولا ريب ان الاعيان بمقيدة البعض والجزاء الآخروي هو باعث الحيوية والعامل في استمرار حركة الحياة نحو هدفها وغايتها . والانسان مع هذه المقيدة يذكر دوماً ان الجزاء واقع لا محالة . ومن هنا شدد الاسلام كثيراً على قضية البعض واليوم الاخير وما يقع فيه من جزاء ، ووضعها دائماً نصب الاعين والقول والافهام . بحيث تجري من خلالها كل اعمال الدنيا . وقد قرر الاسلام ان البعض ليس الا خلاقاً جديداً ، ليس بينه وبين الخلق الاول أدنى فرق ، والقادر على الخلق الاول قادر على إعادة الخلق والب่ม بالروح والجسد وحياة الآخرين بالروح والجسد وان الله يجمع الاولين والآخرين في يوم مقداره ألف سنة .

وأن الدين الحق يلتقي في عقيدة البصائر واليوم الآخر مع الفطرة والعقل، ذلك أن النفس الإنسانية تشعر شعوراً عميقاً بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى «تحتتحقق فيها العدالة التي فقدت في الدنيا»، وبينما فيها الإنسان جزاء عمله، وأن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يقنع البشر بأمر ما فإنه يغرس فكرة الاقتناع به في غرائزهم. وأن الشوق إلى الخلود إحساس شائع في نفوس البشر.

و لا يمكن ان تكون غاية الانسان الذي و هب له المقل والعلم ،  
وكشف أسرار الكائنات و حمله الأمانة ، كغاية سائر الحموان ، بل

تفتضي حكمة الله ان يجعل وراء هذه الحياة : حياة أخرى يستثمر فيها أعماله . ويوفي فيها أجره وجزاءه<sup>(١)</sup> .

ويقول أمير علي : عقيدة الحياة بعد الموت تقوم على أساس ان كل انسان سيكون ملزماً بأن يقدم حساباً بعمله وأفياً ، وسعادة او شقاء الأفراد تعتمد على الطريقة التي أنجزوا بها فرائض خالقهم . وان نهاية العالم متفق عليها في كافة الديانات والمذاهب ، وان الحياة الأخرى بعد فناء العالم قد اتفقت عليها جميع الكتب السماوية المنزلة .

---

(١) التصوير الاسلامي .

( ٩ )

لا يقر الاسلام وحدة الوجود ، ولا الاتحاد او الحلول والتناسخ . ذلك ان القول بوحدة الوجود نفي للألوهية ، وإثبات للكلائنة وحدتها ، وان وحدة الوجود تعبير عن نظرية مادية الكون التي تقول بأنه مادام لا يوجد شيء وراء هذا العالم فان القول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بشكر انه .

والقول بوحدة الوجود تفكير هندي قديم ، وأصحابه يتصورون ان العالم أزلي أبيدي ، وان الأرواح تخرج من أجسادها لتعود في أجساد أخرى وقد تكون أجساد حيوانات ، وان قصة الحياة تدور في هذا النطاق المخصوص . وتبداً من حيث تنتهي ، بل ان الباحثين المسلمين يرون ان القول بوحدة الوجود هو مذهب يأتي على الاخلاق من قواعدها ، اذ لا معنى المسؤولية الأخلاقية التي هي مناط الثواب والعقاب وكيف يكون أخلاقياً من يقول : ما دام الله قد اتخذني مظهراً له وهو الذي فعل حقيقة ما يظن انه فعل لي . فكيف يستقيم ان أكون أنا المسئول<sup>(١)</sup> . وان المسلمين يؤمنون بأن هناك

---

(١) الدكتور محمد يوسف موسى : كتابه : «فلسفة الاشلاق في الاسلام» .

واجِب الْوِجُود وَمُكْنِن الْوِجُود : أَمَا وَاجِب الْوِجُود فَهُوَ اللَّه سَبَّحَانَه وَتَعَالَى  
الَّذِي لَا يُسْبِقُه شَيْءٌ وَهُوَ وَاحِدٌ سُرْمَدٌ لَا يَحْدُثُ زَمَانٌ وَلَا مَكَانٌ .

أَمَا مُكْنِن الْوِجُود فَهُوَ كُلُّ مَا يُصْدِرُ عَنْ شَيْءٍ يُسْبِقُه .



ويروي المسلمون ان فكرة الخلول تنقض رسالة الاسلام في وحدة الله  
وتنزيهه عن الخلق وهي لكونها تستتبع فكرة التناسخ تجعل من الله موجوداً  
منتقاً . وذلك يتنافي مع بعض صفاتاته : كالبقاء والقيام بالنفس . ومن هنا  
فإن نظرة الفربين إلى التصوف تنبئ من معنى جزئية المسيحية في مقابل  
تكامل الاسلام . وإن الوقوف عند الصفاه الروحي للفرد ينقض مفهوم  
الاسلام الكامل المترابط . وإن فكرة الخلول إنما تؤكي فكرة تأليه عيسى  
المسيح لأنها لا تفصل بين الله والكون ، او بين الأولوية والنبوة ، او بين  
الله الخالق والإنسان المخلوق .



كذلك يرفض الاسلام مفهوم الاتحاد : الذي يعني اتحاد المخلوق بالخالق ،  
او حلول الخالق في المخلوق ، او تجسُّد الخالق وهي من المعتقدات التي  
تناقض مبدأ التوحيد . وفي الاسلام توحيد الاولوية وتوحيد الريوبية . أما  
توحيد الريوبية فهو من عمل الإله : كالخلق والأماتة والرزق وقد أقرّ به  
المشركون في عصر النبي فلم ينفهم ذلك .

أما توحيد الاولوية فهو من عمل الانسان كالعبادة بجميع أقسامها .

ويدخل فيها الاستعانة والاستغاثة والعبادات التي لا توجه إلا لله تعالى .  
وهو ما لم يقر به المشركون في الجاهلية . فأخذوا يوجهون العبادة إلى  
أصنامهم فلم ينفعهم ليمانهم بتوحيد الربوبية وبقي كثير منهم على الشرك  
ومات عليه .

ولاريب ان الاقرار بتوحيد الربوبية أمر فطري . وان الشرك  
أمر طارئ .

( ١٠ )

ويقف الاسلام موقفاً واضحاً متميزةً من مفهوم المثل الاعلى في مواجهة مختلف المفاهيم التي تقدمها العقائد في هذا المجال . فالله تعالى « هو<sup>(١)</sup> » المثل الاعلى لكل من آمن بالإسلام . فمن اهتدى بهدي الاسلام حق عليه الاقتداء بالله ومحاولة التحلي بصفاته الحسنى » .

أما المسيحية فهي تصور المثل الاعلى « في القدس المتبول الذي يقضى حياته كلها في التأهب للآخرة ، فيعيش زاهداً في طلب الدنيا . او راهباً يمتهن الناس في دير متجلبها بصفات الدعوة والمسكنة والاحلم والصبر ولين الجانب ونحو هذا من فضائل سلبية ، بل يتقبل ظلم الناس ويتحمل إهانتهم راضياً مسروراً ، بل لا يقنع بهذا وانما يرغم نفسه على حب ظالمه وأعدائه والمعتدين عليه ويستغفر ربه من أجلهم<sup>(٢)</sup> » .

أما الاسلام فلم يصور المثل الاعلى في انسان ، بل صوره متمثلاً في الله سبحانه وتعالى وفيه يجتمع من الكمالات المطلقة أقصى ما يستطيع عقل بشري ان يتصوره ، ومن يتطلع الى مثل أعلى يهتدي بهديه كان عليه ان

---

(١) دكتور توفيق الطويل ... مبحث مطول عن المثل الاعلى في فلسفة الاخلاق .

(٢) نفس المصدر .

يقتدي بالله تعالى في صفاته الحسنة ، « ولله المثل الأعلى » النمل ، « ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » الرؤم .

•

أما الفلسفات فقد أخذ فريق بفكرة الواجب عن طريق العقل وهو ( فريق المثاليين ) وقد أخذ فريق الواقعيين بفكرة المنفعة وهي المنفعة النسبية المتغيرة بتغير الزمان والمكان .

ولم تثبت الفلسفة الاوربية ان ثارت على المثل الاعلى المسيحي ودعت الى مثل أعلى قاسٍ عنيف مستمد من مفهوم الإله اليهودي : فأعلن نيلشه صورة السوبرمان التي تمثل (الانسان<sup>١١</sup>) الطاغية المستبد الأناني الجبار الذي يعمد بالظلم والقسوة والجبروت ويحتقر الصير والحلم والدعة . ويطالب بالقضاء على الضعفاء والمرضى والمحاجين ) حق لا يبقى الا الأقوياء كما يحدث في عالم الحيوان . وقد قسم الأخلاق الى أخلاق عبيد وأخلاق سادة . أما أخلاق العبيد فهي أخلاق المسيحية من صبر وحمل ودعة . أما أخلاق السادة فهي ارادة القوة والعزم واحترام الظلم والقسوة . وأقام الأخلاق أساساً على الارثة والأنانية ، وكان هذا هو نقطة التحول في الفكر الغربي من المفهوم المسيحي الى المفهوم اليهودي التلمودي الوثني الذي نزلت الاديان لحاربته والقضاء عليه وإراسمه مفهوم تكافل المجتمع وترابطه بكل عناصره الضمية والقوية والفنية والفقيرة .

وهيئنا طرح الاسلام مرة أخرى على البشرية مفهوم المثل الأعلى القائم

---

(١) دكتور توفيق الطويل ~ نفس المصدر .

على الرحمة والتكافل واحتلال المجتمع لكل طبقاته . وإذا كانت الرحمة في المسيحية رأس الكمالات . وإذا كانت القوة عند نيتلشة قمة الفضائل ، فقد جمع الله تعالى بين الرحمة والقوة في تعادل وتوازن ، فالله تعالى رحمن رحيم ، ودود غفور ، وهو تعالى في نفس الوقت قوي قادر منتقم قهار جبار ، وصفات الرحمة والمحبة فيه تعالى لا تطغى على صفات القوة والجبروت .

كما أن صفات القوة والجبروت لا تطغى على صفات الرحمة والمحبة والغفران والله تعالى يأمر عباده بـ زاولة حياة القوة والبطش ، حين يدعو الداعي إلى القوة والبطش ومبشرة الرحمة والحنان حين تنس الحاجة إلى الرحمة والحنان . قال : « عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء » وهو يصف عباده بـ ز العدوان وان حرم عليهم الا يبدأوا بالاعتداء . « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه مثل ما اعتدى عليكم » « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » . وقد دعا إلى المصابرة والمرابطة والإعداد والثبات .

المصابرة : هي مغالبة الاعداء بالصبر على المكاره في الحرب .

المرابطة : هي الإقامة في الشعور متربدين للعدو متأهبين للغزو .

الإعداد : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .

الثبات : اذا لقيتم فتنة فائتبوا .

وبهذا رفض الاسلام الاستكانة والخنوع والذلة والمسكنة . وأكد سبحانه وتعالى فكرة القصاص : « كتب عليكم القصاص في القتلى :

الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » « ولكم في التصالص حياة » .  
وهكذا « جمع الاسلام بين الرحمة والمحبة والجبن ، ودعا الى القوة .  
وحرر المؤمن من استخدام قوته في الاعتداء على غيره . وان أوجب عليه  
ان ينهمض لرد العدو ان<sup>(١)</sup> » .

---

(١) نفس المصدر .

## خاتمة

قدم الاسلام «التوحيد» الى البشرية من جديد بعد ان انحرفت في طريق الوثنية والشرك والتعدد ولا ريب ان البشرية بالتوحيد قد تحررت من آصار قيود العبودية الفكرية والاجتماعية . وبالرغم من ان الاديان السماوية جميعاً قد دعت الى التوحيد الخالص . فان الاسلام قد بدأ مجدداً بهذه الدعوة بعد ان بعد بها العهد حق يقول جوستاف لوبيون : انه يمكن للإسلام ان يدعى شرف كونه اول من دخل التوحيد الى العالم ، ويرى بارتلاند سانهليز : ان دعوة التوحيد التي حمل لواءها الاسلام قد أطلقت العقل البشري من قيوده التي كانت تأسره حول المآباد وبين أيدي الكمنة فارتفع الى مستوى الاعتقاد بمحبة وراء هذه الحياة وانه خلص الفكر البشري من وثنية القرون الاولى . واضطرب العالم الى ان يرجع الى نفسه ، وأن يبحث عن خالقه . ويرى العلامة مسمر : ان التوحيد الذي هو أساس الدين الاسلامي ، كان السبب الأول في نجاح دعوة محمد . وان إعلان محمد هذا التوحيد في عصر مللت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت كان أفضل ما جاء به وأفعله بالعقل حق انه ما يكاد يفووه بالدعوة الى توحيد الله حق استئنار بدعوته تلك : العالم كله . وفضل الاسلام يظهر بما فاه به «محمد» وهو يسقط الاصنام التي كانت حول الكعبة

(جاء الحق وذهب الباطل) قوله : (لا فضل لمري على أعمى إلا بالتقوى او لعمل صالح لكم لآدم وآدم من تراب .

ويرى هامilton جب : ان عقيدة التوحيد التي جاء بها الاسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم ، وان في بقاء الاسلام أمل العالم كله . وان شعيرة الحج تمد عالماً قوياً في تطبيق مبدأ توحيد العالم فهي رمز للإخاء الذي يربط المسلمين بعضهم البعض دون تفرقة لونية او عنصرية .

●

ومفهوم التوحيد في الاسلام آية من آيات النقاء والنصاعة . فالله سبحانه وتعالى هو خالق الانسان وخالق الكون وال موجودات «والله وراء الموجودات جميعاً وفوق العالم كله» ، والإدراك الانساني ينخوض في تصوره خطوات . ومع ذلك لم يكشف عن ذاته وحقيقة كاهي . والله واحد : والوحدة هنا دليل على الاطلاق . وعدم القابلية للتتجديد ، كما ان التشخيص هناك في الوثنية آية على التعدد والكثرة » ، والله سبحانه هو واضح نراميس الكون وهو القادر وحده على خرق هذه النواميس وهو الذي يحيط بالموارد التي لا تخفي على البشر . وأبلغ مثل لتصور الله سبحانه وتعالى هو : «ليس كمثله شيء» وهو يمسك هذا النظام المترابط في كل لحظة . وانه لو تخلى عنه لتلاشى وانتهى العالم كله من خلقه ولكنها لا يدور بنفسه . «ان الله يمسك السموات والأرض ان ترولا» ، المسلمين يعتقدون ان الله يعمل في العالم دائمًا . فكل ما يصير وكل ما يتتجدد من عمله مستمر «وعنه مفاتيح الغيب لا يعلمه إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تستقر من ورقة إلا يعلمه . ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» ، وفي ذلك دحض لشبهة القول بأن الله يعلم الكليات فحسب «والله في الاسلام : هو الواحد

الْأَحَدُ الْفَرِدُ الصَّمَدُ ، لَا نُعْبُدُ إِلَّا إِلَيْهِ وَلَا نُشَرِّكُ بِهِ شَيْئًا . وَاللَّهُ هُوَ الْمُعْدُ  
وَالْحَقُّ ، وَهُوَ الْأُولُ وَالْآخِرُ .

وتستلزم فكرة التوحيد الحالص الى جانب الاعتراف بأن الله هو خالق  
السموات والأرض اليمان بالوحدانية . وهو ان يكون الحكم لله وحده في حياتهم  
ومجتمعاتهم . وان يتلقوا منه الحلال والحرام ، وان يكون هو وحده مرد  
أمورهم كلها في الدنيا والآخرة ، وان يتحاكموا الى شريعته<sup>(١)</sup> وان على  
المسلمين إفراد الله بالألوهية والإقرار له بالعبودية، وان الاسلام وحدة لا تنقصها  
عبادة ( سواء أكان عبادات أم معاملات ) فالعبادة تتناول حياة الانسان  
العملية .

وقد قرر الاسلام « ان هناك ألوهية<sup>(٢)</sup> وعبودية . «اللوهية» ينفرد بها  
الله سبحانه وعبودية يشترك فيها كل حي وكل شيء ، كما قرر تفرد الله  
 سبحانه بخصائص العبودية وتجدد العبيد من هذه الخصائص . ان من مقتضيات  
 توحيد الألوهية إفراد الله سبحانه وتعالى بخصائص الألوهية في تصريف حياة  
 البشر كإفراده سبحانه بخصائص الألوهية في اعتقادهم وتصورهم وفي خصائرهم  
 وشمائرهم على السواء .



ولقد كان الانسان – في محاولة الفكر البشري خارج مفهوم الدين الحق ،  
غير قادر على تصور الألوهية على حقيقتها ، ويحول بينه وبين التصور الحقيقي  
عجزه عن التخلص من الهوى . والمطامع والشهوات . وتلك من طبائعه التي  
 لا مفر منها ، ولذلك فقد جاءت الفلسفات والمذاهب كلها قاصرة عن بلوغ

(١) دكتور محمد البهبي ،

(٢) راجع كتاب التصور الاسلامي .

حقيقة الالوهية عجزاً مصدره قصور المقل البشري نفسه . والاهوى الذي هو أخطر تحديات مناهج المعرفة ، ذلك ان هوى الانسان من شأنه ان يحول دون التصور الصحيح لله تبارك وتعالى ، ومن هنا جاء الفارق بين الله الحق ، وبين الإله او الآلهة . ومن هنا كانت الحاجة الدائمة السرمندية الى الأديان ، للتعرف الى الله سبحانه تعرضاً صحيحاً . ولما كان البشر عاجزين عن التخلص من الاهواء ، وكانت عقولهم غير قادرة على التفكير في ذات الله . فقد أمرنا الاسلام بأن نفكك في خلق الله .

ولا ريب ان كل الاديان السابقة للإسلام جاءت بالتوحيد الحق بالله إله العالمين . والإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من جزاء . ولكن التفسيرات التي وضعت قد حرفت هذا المفهوم .

ولا ريب ان التوحيد الذي جاء به الاسلام قد لقي معارضة شديدة من كثير من العقائد التي سبقت الاسلام لأنه جاء فاصلاً في قضايا كبرى قامت عليها أعمدة تلك التفسيرات المذهبية أهمها :

(أولاً) إنسكار الوساطة بين الله والعباد .

(ثانياً) إنسكار فكرة تعذيب النفس والزهد في متاع الحياة الدنيا .

(ثالثاً) إقامة الفاصل الواضح بين الالوهية والنبوة وبين الله سبحانه الخالق وبين العالم المخلوق .

ولا ريب ان التوحيد هو المصدر الاول للقضاء على العبودية والعنصرية والوثنية جميعاً فهو الذي حل لواء المساواة بين الناس وجعلهم من درجة واحدة . وهو الذي أقر حرية الفكر وفتح لها الآفاق ودعا الى التخلص من عبادة الاصنام وتآلية الفرعون والقيصر والامبراطور والبرهمي وعبادة الاخبار والرهبان ، والتحرر من الاساطير والسحر . كما أنكر التوحيد : جزئية

الدين كرسالة أخلاقية ، او كعبادة فيحسب ، وهو الذي حل لواء التكامل بين العقيدة والشريعة والأخلاق وجمع بين الدين والدولة ، وألغى فكرة الأبوة ، وفكرة الصراع بين الجسد والروح . وربط بين الفرد والمجتمع والعقل والقلب والدنيا والآخرة وقرر انه ليست هناك خطيئة أصلية . ولا جزاء للبشرية من أجل خطيئة آدم التي ثاب الله عليه منها . وكما فصل الاسلام بين الله والعالم ، فصل بين الالوهية والبشرية . فلا يمكن ان يرقى الانسان الى مرتبة الالوهية . وكذلك ألغى الوساطة بين الله والعبد ، وهو لا يقر الوساطة سواء عن طريق الصالحين او الوسائل الروحية وفضلاً عن ذلك فان الاسلام لا يقر مظهراً إنسانياً لطبيعة إلهية . كذلك أنكر ان يسقط التكليف عن أي مسلم منها بلغ درجة من الإيمان والتکلیف لم یسقط أبداً ، بل لم یسقط عن النبي الذي هو أرقى المسلمين إيماناً .

•

والله خالق الاذسان هو صانع المنهج للانسان وللبشرية . ومن هنا یشجب الاسلام خطأ الادعاء بأن الانسان یستطیع ان یمرف طریقه دون معین خارجي من وحي ودين ، والادعاء بأنه قادر على أن يكون راشداً بغير مرشد .

•

ولا ريب ان الاعيان بوحданية الله یحرر الانسان من العبودية للبشر ، او العبودية لشيء من الاشياء . « وقد علم الاسلام البشر أصول السعادة الحقيقة التي لم تكن معروفة عند المصريين او اليونان او الرومان وأهمها صقال العقول بصدق التوحيد الخالص وتطهيرها من صدأ الخرافات والاوہام ليكون الفكر مستقلاً فيها یعتقد یرفض التقليد ویعتمد على البرهان » .

وقد بين ان للكون سنناً وذواقيس ثابتة ينبغي ان يهتم بها الانسان في سيره العلمي والعملي دون ان تنسيه هذه السنن والذواقيس موجودها الحق ، وقدرتها بالعجزة على خرقها متى شاء .

والاسلام في مجموعه متكامل متوازن قوامه التوحيد ، وهو بذلك ليس مزجاً ولا تركيباً على النحو الذي عرفته العقائد حيث يقال : ان عقيدة الغربي ما هي إلا مزاج الفلسفة اليونانية والقانون الروماني والدين المسيحي .

ومن هنا يبدو ان الدين ليس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي خرجت من الارض ولكنها حقيقة من الحقائق الكبرى التي يعجز الانسان عن تشكيلها . والذى هو في حاجة الى هداها : والتي هي عطاء الله سبحانه وتعالى للانسان : « لَقَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ الْأَنْبَاءِ نُورٌ وَّ كِتَابٌ مُّبِينٌ » ومن الحق ان يقال ان الاسلام جاء بما يعد تصحيحاً للتفسيرات التي وقعت فيها الاديان والعقائد ، ورداً حاسماً لكل ما أثير من شبكات وانحرافات وأخطاء مما كان قبل الاسلام وما وجد بهذه كذلك . وصدق ربعي بن عامر الذي قال المفرس : « إِنَّمَا جَئْنَا لِنُخْرُجَ النَّاسُ مِنْ عَبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عَبَادَةِ اللَّهِ . وَمَنْ جُورَ الْأَدِيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ وَمَنْ ضَيقَ الدُّنْيَا إِلَى سَعْتِهَا » .



## الفصل الثالث

### تمدين البشرية وتحرير الإنسان من العبودية

لا ريب ان التوحيد هو الذي حرر العقل من الوثنية ، وحرر البشرية من العبودية لغير الله ، والاسلام هو الذي فتح الطريق الى تمدين الانسان وتحريره عقلياً وجسدياً ، وكسر ذلك الحاجز العبودي الذي أقامته الحضارات الفرعونية ، والفارسية ، والهندية ، والرومانية ، واليونانية . وبررته الفلسفات والأديان والعقائد التي قامت على نظام الطبقات .

فالاسلام هو الذي أعطى البشرية المدنية . وحرر الحضارة من قيود الوثنية والعبودية ، وحرر العلم من المادية . وردّ المناهج الاجتماعية والفكرية جميعاً الى ان تكون خالصة لله .

ولقد جاء الاسلام والبشرية تقاسياً أشد ألوان الظلم والاستبداد والعبودية . وتهين الكرامة الانسانية فيها امتهاناً مذلاً لا مثيل له .

- البراهما سادة والباقي عبيد .
- في فارس عبادة الامبراطور .
- في اليونان والرومان عبادة القيسار .
- في مصر عبادة الفرعون .

وفي كل مكان لا يصح للعبيد ان يصبحوا براهمة او سادة او قياصرة . ذلك ان الطبقة مصدرها العرق وسيادة الجنس . وقيام الطبقات مرتبطة بنصوص مقدسة لا يصح إزالتها ولا تغييرها ، والطبقات العليا لا تعمل لأن العمل لا يليق بمكانتها السامية . وإذا وضع العبد في موضع السيادة فهو عبد . وإذا وضع السيد في موضع العبد فهو سيد . والبرهيمي اذا ولد وضع في الصف الاول من صنوف الدنيا ، وكل ما في الدنيا ملك للبرهيمي وللبرهيمي اذا افتقر ان يملأ مال العبد الذي هو عبد له . وفي فارس كان الناس ينظرون الى ملوكهم على انهم آلهة اصطفاهم الله للحكم بين الناس . وليس للناس قبلهم حقوق ، ومنها ولدت نظرية الحق الإلهي في عهد الملوك الساسانيين ، وكان الأسرة يزعمون ان لهم الحق وحدهم في ان يلبسوا تاج الملك بما يحرري في عروقهم من دم إلهي .

أما عبودية الرومان فهي شيء مرير ، وهي امتداد لعبودية اليونان التي دافع عنها سocrates وأفلاطون وأرسطو .

وفي الامبراطورية الرومانية دافع عن النظام العبودي شيشرون وتأسنياس وسنكا . وقد عرف عن الرومان القسوة التي لا تعرف الحدود والظلم الذي يصل الى أبعد الدرجات في معاملة العبيد وبيعهم بيع السلع ، وكان الرومان<sup>(١)</sup> يعتبرون أنفسهم سادة العالم بالحق المقدس ، وكان هدفهم غزو العالم ،

(١) علي ادم : بحث عن قسوة الرومان .

والاستيلاء على كل خيرات الأرض . ولم يحجموا في سبيل ذلك عن أي عمل ، واستباحوا كل خطة واستحلوا كل منكر . وكثيراً ما كانوا يذبحون سكان المدن التي يستولون عليها ويقتسمونها كما تذبح الشاة بعد جلد هم وضرفهم ضرباً مبرحاً . ولما كثرت المصارعات واتسع مجالها : كان الأسرى لا يقتلون وإنما يسلمون للمدن المختلفة لاستخدامهم في الاعمال .

وفي المدن المchorة كانوا يحمون ما بالمدينة من المؤن والعتاد ، ويحرم العبيد من الطعام ويضطرون إلى أن يعيشوا على الحشائش والاعشاب ، وكانوا يعمدون إلى رمي العبيد إلى الوحش الضاربة . والاستمتاع برأها . وهي تفترس الآدميين ، وكان الإعدام باللقاء إلى الوحش في عهد الامبراطور أغسطس قيصر : عقوبة قانونية ، ولما صدرت القوانين بتخفيف الأحكام عن العبيد . كان ذلك عملاً اقتصادياً ، فقد قلت المصادر التي يحيط بها الرقيق بعد استقرار الامبراطورية . وفي نفس الوقت الذي بدأت تتحسن فيه أحوال العبيد تزايدت صرامة العقوبات وطرائق تنفيذها وأساليب الاعدام كانتزاع اللسان وصب القصدير المغلي المذاب في أفواه الجرميين . هذا فيما يتعلق بالعبيد . أما للرقيق فقد كان أشد قسوة .

يقول سيد أمير علي : العادة السائدة قبل الاسلام ان أسرى الحرب يقطعون بالسيوف ثم يصير نساؤهم وأولادهم عبيداً أرقاء . ولكن محمد (ص) نهى عن ذبحهم والتمثيل بهم ، وأمر بأن لا يبقى في الأسر إلا من أخذ في حرب نظامية حتى تدفع له الفدية ، وتعد الفدية وتحرير الاسرى في الاسلام من الاعمال الصالحة . ولم يسمح بحال من الأحوال بفصل الوالدين عن أولادهم ، وإذا حملت امرأة أسريرة في طفل من سيدتها تصير حرمة ، ويصيير للطفل حقوقه الشرعية على الوالد . وعلیهم ان يقارزوا بذلك ما كانت عليه أوربا في القرن الخامس عشر .

وفي الامبراطورية الرومانية قبل الاسلام : كان الامبراطور ليس أي مخلوق على وجه الارض مساوياً له ، لم يكن في نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس ، والامبراطور كان يعد في الحقيقة إلهًا : الإله قيصر .

وقد أقيمت العبادة للقيصر على انه ضرورة لإدامة الدولة التي كانت هي العالم .

أما الأديان فقالت ان الامبراطور انسان ، وان الحكومة ليست أزلية او مطلقة التصرف . غير ان العالم الغربي لم يلبث ان انتقل من نفوذ القيصرية الى نفوذ البابوية التي يجمع فيها شخص واحد سلطتي الحاكم والبابا .



أما الرق فقد أباحه كتاب العهد القديم ، وقد انتشرت تجارة الرقيق في العالم كله على أيدي اليهود . ولما جاءت المسيحية أقرت ما كان موجوداً في القانون الروماني : ولم يكن القانون الروماني يعتبر الرقيق انساناً له شخصية ذات حقوق على الإنسانية ، بل يعتبره شيئاً من الاشياء كسائر السلع التي يباح التجار بها .

يقول الدكتور جورج بوست في كتابه (قاموس الكتاب المقدس<sup>(١)</sup>) « ان المسيحية لم تتعارض على العبودية من وجهاً سياسياً ولا من وجهاً اقتصادياً . ولم تخرب المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم من جهة العبودية حق ولا على المباحثة فيها . ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد . ولا حركت العبيد الى طلب الاستقلال ، ولا بحثت عن مصادر العبودية ولا عن قساوتها ، ولم تأمر بإطلاق العبيد حالاً ، وبالإجمال لم تغير النسبة الشرعية

---

(١) ص ٦٠٦١ طبعة بيروت سنة ١٩٠١ .

بين المولى والعبد بشيء ، بل بعكس ذلك أثبتت حقوق كل من الفريقين وواجباتها » .

ولا ريب ان الرسالة التي جاء بها السيد المسيح كانت تحمل كل معانٍ مقاومة العبودية . ولكن تفسيراتها التي عبرت اوربا كانت خلواً من ذلك المفهوم ، وتقول موسوعة ( بيير لاروس ) أكبر موسوعة في القرن التاسع عشر ( ١٨٧٠ م ) .

لا يعيّب الانسان من بقاء الاسترقاق واستمراره بين المسيحية الى اليوم فان نواب المسيحية يقررون على صحته ويسلّمون بهمروعيته .

وقال القديس تومايس : ان الطبيعة خصت بعض الناس ليكونوا أرقاء . ونادي ( بالي ) من كبار الفلاسفة بصحبة الاسترقاق ومشروعيته واستند في مشروعيته الى الاصحاح الحادى عشر .

وقال الاسقف الالماني بوفييه : بمعادلة الاسترقاق في فتاواه اللاهوتية . ووافق على وسائل النخاسة . وكانت اليهودية تعتبر الرق من أصول الثروة .

وكان المصريون يستحلون ظلم غير المصريين ، وكانوا يعاملون الرقيق معاملة سيئة . ومن ذلك تسيير الألوف المؤلفة في بناء الاهرام . وهكذا لا تجد شريعة وضعيّة او تفسيراً محرفاً لدين ، قبل الاسلام يساوي بين الناس ، او يرفع الإصر والأغلال عن الطبقات الفقيرة والعاملة المستفيدة .

ويؤكّد الباحثون استفحال ظاهرة الرق في العالم قبيل الاسلام بصورة شاملة ، وفي المجتمعات الحضارية الاربعة الكبرى الفرس والروم والفراعنة والهنود ، حيث كان العبيد يشكون ظلم الأمراء واستعباد السادة .

ويقول ناجي معروف في كتابه « اصالة الحضارة العربية » ان الأغريق لم

يُكَنُ الرُّقُّ مُحْرِماً عَنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَنْكِرًا ، وَكَانَ فِي لِسُونِهِمْ أَرْسَطُوا  
يَقُولُ : خَلْقُ الْعَبْدِ لِلْخُضُورِ وَالطَّاعَةِ وَعَلَى الْأَحْرَارِ أَنْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْهُمْ ،  
وَكَانَ يُرَى أَنَّ الرُّقِيقَ هُوَ الْأَلَّةُ الْحَيَاةِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي لِلْمُوَاطِنِ الْحَرَانِ يَتَأَوَّلُهَا .  
وَالرُّقِيقُ فِي رَأْيِهِ مِنْ وَسَائِلِ الانتِاجِ الضرُورِيَّةِ الَّتِي لَا غَنِيٌّ عَنْهَا لِلْمَدْنِيَّةُ . أَمَّا  
أَفْلاطُونُ فَكَانَ رَأْيُهُ أَنْ يَكُونُ الرُّقِيقُ مِنْ غَيْرِ اليُونَانِ . وَلَمْ تَنْكُرِ اليُهُودِيَّةُ  
وَالْمَسِيحِيَّةُ ذَلِكَ الْاسْتِرْقَاقُ ، وَلَا تَنْكُرِ الْعَبُودِيَّةُ ، بَلْ كَانَتِ اليُهُودِيَّةُ تَشْجِعُ  
الْمُتَاجِرَةَ بِالرُّقِيقِ . وَلَا سِيَّما اولَئِكَ الَّذِينَ قَعَدُوا عَلَى إِخْضَاعِهِمْ مِنْ الْأُورَبِيِّينَ  
وَتَصَدَّرُهُمْ إِلَى بَلَادِ الْمَشْرُقِ لِيَبِاعُوا فِي أَسْوَاقِ النَّخَاسِينِ ، وَكَانَ النَّخَاسُونَ  
مِنَ الْيَهُودِ فِي أُورَبَا يَسْرُقُونَ النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ لِبَعْثَمِهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ .

وَقَدْ ازْدَهَرَتْ تِجَارَةُ الْأُورَبِيِّينَ بِالرُّقِيقِ الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ عَلَى أَيْدِيِّي  
الْمَسِيحِيَّةِ قَرْوَنَّا عَدَةً وَلَا سِيَّما فِي عَهْدِ الْفَتوَحَاتِ وَالْأَسْتِكَشَافَاتِ فِي افْرِيْقِيَا  
وَآسِيَا وَأَمْرِيْكَا مِنَ الْقَرْنِ السَّادِسِ حَسْنَرَ إِلَى الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ .

وَكَانَ مُونْتَسْكِيُّو الْقَانُونِيُّ الْفَرَنْسِيُّ الْكَبِيرُ يُرَى أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَرَى  
الْإِنْسَانُ لِلْأَفْرِيْقِيِّينَ ذُوِّيِّ الْبَشَرَةِ السُّودَاءِ ، وَأَنَّهُ لَا يَمْكُنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّ  
اللهَ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ ذُوُ الْحَكْمَةِ السَّامِيَّةِ قَدْ وَضَعَ رُوحًا طَبِيعَةَ دَاخِلَ جَسْمِ  
حَالِّكَ السُّوَادِ . وَقَدْ قَابَعَ الْغَرَبِيُّونَ بِعِمَدِ الْمَسِيحِيَّةِ سِيَاسَةَ رُومَا وَأَثِينَا  
الْعَبُودِيَّةِ . وَسَيَخْرُقُ الْغَرَبِيُّونَ الرُّقِيقَ وَأَذْلُوهُمْ . وَكَانُوا يَقْتَصِرُونَ النِّاسَ لِتَشْغِيلِهِمْ  
فِي مُسْتَعْمَرَاتِهِمْ . وَيَسْنُونَ الْقَوَانِينَ الَّتِي تَعِينُ مَوْقِعَهُمْ مِنْ أَسِيَادِهِمْ وَتَحْرِمُ  
عَلَيْهِمُ الْوَظَائِفِ وَالرِّوَاجِ وَالْتَّعْلِيمِ . اه .

أَيْنَ هَذَا مِنْ مَفْهُومِ الْإِسْلَامِ لِتَحرِيرِ الرُّقِيقِ وَالْإِنْسَانِ عَامَّةَ حَيْثُ يَقُولُ  
عُمَرُ : ( لَا تَضْرِبُوا وُجُوهَهُمْ وَأَبْشَارَهُمْ وَلَا تَجْلِدُوا الْعَرَبَ فَتَذَلَّلُوهَا )  
أَوْ قَوْلُ ابْنِ خَلْكَانَ : ( أَنَّ الْبَشَرَةَ السُّودَاءَ لَا تَقْلِلُ مِنْ شَرْفِ النَّفْسِ الطَّاهِرَةِ  
وَلَا تَنْقُصُ مِنْ عِلْمِ الْعَالَمِ وَلَا مِنْ سُوْفَ الْمُفَكَّرِ ) وَمِنْ قَلْبِ الْإِنْسَانِ انْطَلَقَتْ

صيحة الحرية والكرامة التي غيرت وجه أوربا والفكر الغربي كله والإسلام هو الذي حرر العبيد في كل مكان وألغى ما بين الأسود والأبيض . وللنفي أوضاع البشرية التي تجعل للجنس او لمال او العرق والعنصر المقام الاول .

وقد عرفت البشرية قبل الاسلام ضرورة من الرذائل وامتهان حرية الإنسان وكرامته ، وكان الناس على اختلاف عناصرهم يحملون الحق للقوة . فكان القوي يتحكم في الضعيف فيسرقه لمنفعته او يبيده . وكانت الشعوب الضعيفة تخدم الشعوب القوية تحت تأثير الأسر المكتسب بحق الفتح ، وكان الناس يعتبرون عبيداً لحكومتهم . وكان الناس يسرق بعضهم بعضاً فيؤخذ الأبناء والبنات من أحضان آبائهم كرهًا ليباعوا في الأسواق . وكان الناس لا يعتبرون للمرأة حقاً فلا يعلمونها ولا يورثونها . وكان الناس يستحلون دماء بعضهم بعده اختلافهم في العقائد<sup>(١)</sup> .

---

(١) بتصرف عن بحث لفريد وجدي .

( ٣ )

جاء الاسلام فألقى الضوء الكاشف في أعماق هذا الظلم . وكانت دعوته في صيغتها الى توحيد الله وتحرير الانسان ، فألقى العبودية وقاوم الرق ، ودحر الظلم وأعلن الأخوة العالمية ورفع راية الوحدة البشرية فوق الألوان والدماء والأجناس ، ووضع قاعدة العتق وتحرير الرقيق والقضاء على المسخرة .

وقد صور هذا المعنى العلامة فبشر في كتابه « تاريخ أوربا » وفي بيات حسن قال : « أفاق العالم الغربي على نور الاسلام وكان يغط في نوم الجحالة والظلم » .

وقد كان الاسلام العامل الاول في القضاء على الرق بوضعه في مجال التصفيية . وأول عوامل التصفيية انه جعل له مدخلًا واحدًا هو الجهاد . وألغى مداخله الأخرى المتعددة . ومنها البيع والمفامرنة والنهب والسطو ووفاء الديون والقرصنة ، فألقى الاسلام كل هذه المداخل ما عدا مدخل الجهاد . ثم وضع تنظيمًا لأسرى الحرب . كما اعتبر الاسلام الرق عارضًا وعمل على إزالته . وفي نفس الوقت الذي دعا فيه الى حسن معاملة الرقيق ، دعا الى مكتبة العبد لتحريره بدفع مال يقدمه لسيده . ولم يكن من اليسر ان يبطل الاسلام الاسترقاق لأنه كان ظاهرة قائمة في المجتمع البشري ، ولكنه وضع

خطة<sup>(١)</sup> للقضاء عليه بالتدريج ويعد تربية النفوس على احترام الإنسان وتحديد ما له من حقوق وما عليه من واجبات . وقد وضع الاسلام قواعد عامة في هذا السبيل :

أولاً : حسن معاملة من تحت أيديهم من الرقيق : فعلى المسلمين انت يمسكوهם بمعرفة ويعاملوهم بالحسنى .

ثانياً : الترغيب في تحرير الرقيق : فقد نص القرآن على إيجاب تحرير الرقيق ( سورة التوبية - سورة النور ) وجمل من مصارف الزكاة تحرير الرقاب ، وجعل الاسلام تحرير الرقيق فدية عن أمور كثيرة ، وبذلك عجل بإخراجهم من دائرة الأسرى . وكان الأسرى قبل الاسلام يلبثون آماداً طويلاً وقد يستردون إلى الابد . وقد جعل<sup>(٢)</sup> الاسلام من مكارم الأخلاق : فكاك العاني وهو الاسير وإطلاق سراحه ، وحرص على ذلك الرقاب بأن جعله من أبواب الزكاة وجعل عتق العبد كفاراة عن الذنوب والآثام . وكفاراة عن عقوبات القتل الخطأ ، وكفاراة عن الحلف بالأيمان . كما جعل العتق كفاراة عن الظهار وعن الإفطار في رمضان .

ومن تشريعات الاسلام لتحرير الرقيق : شراء جميع العبيد الذين هم بيد غير المسلمين من أموال الزكاة وعتقهم في سبيل الله . كما قرر الاسلام تكافؤ الحر والعبد (من لطم بملوكاً له أو ضربه ففكفارته عتقه) ومنع الاسلام التفريق بين العبد وعائله ، وألزم السيد إكمال عبده وإطعامه . ومنع عمر بيض أمهات الأولاد . ونهى الرسول عن مخاطبة العبد بكلمة عبئي أو أمة . ونهى العبيد أن يخاطبوا سادتهم بكلمة رب .

---

(١) اصالة الحضارة العربية : ثابي معروف .

(٢) نفس المصدر .

ثالثاً : وضع قاعدة المعاملة بالمثل في الحروب الدولية فيما يتعلق بالأسرى ، ومبداً الاسترقاق . وجعل الاسترقاق الشرعي ما يقع في حروب يراد بها إعلاء كلمة الله .

رابعاً : ليس في التشريعات الإسلامية نص واحد يأمر باسترقاق الناس او اتخاذهم عبيداً او الاتجار بهم في أسواق النخاسين .

خامساً : أعلن الإسلام إطلاق سراح أعدائه اذا أسلمو حالاً .

فعل المسلمون هذا بينما لم يفكّر الغرب في تحرير الرق إلا في القرن السابع عشر . أي ان الاسلام سبقهم في ذلك بنحو ألف سنة . ومع ذلك فقد ارتدت أوربا في العصر الحديث الى الدعوة لسيادة الأجناس ، وغالب في ذلك غلوأ شديداً . وكانت عملية تهجير الزوج السود من افريقيا الى العالم الجديد التي شملت عشرات الملايين من أكبر المأساة التي تدخل تحت أسلوب النخasse . وما يزال ملايين الزوج يعاملون حق الان ينتهي القسوة في العالم الجديد . وقد أشار المؤرخ الزنجي دووير الى أن عدد الزوج الذين اختطفتهم النخasse لحساب المستعمرين بلغ مائة مليون زنجي . وقد استمرت هذه التجارة أربعة قرون وارتكتبت فيها من الفظائع ما لا يمكن تصوّره .

وتقول السيدة بنالكدرин ترويّها في كتابها ( تاريخ الزوج ) ان قصة تجارة الرقيق الإفريقي تمثل سجلـاً من أحـملـكـ السـجـلـاتـ في تاريخ العـالمـ الغـرـبـيـ . فقد كان النخasse الذين يعملون لحساب المستعمرين يقومون باصطياد الأطفال والشباب من حقوق الـذـرـةـ . وذلك بطاردتهم جماعات حق يسقطوا في الشباك . ثم يحملونهم الى الموانئ ، حيث تنتظـرـهمـ السـفـنـ الانـجـليـزـيةـ ويـحـشـرونـ فيهاـ بالـآـلـافـ . وقد ربطوا بالحبال حق لا يلقـواـ بـأنـفـسـهـمـ الىـ المـاءـ (١) .

---

(١) نقلـاـ عنـ حـسـنـ درـوحـ : مجلـةـ الـكـوـيـتـ ١٩٧٢ .

يقول ويستر مارك : ان المؤرخين الغربيين بالغوا في زعمهم ان الكنيسة عاملت الرقيق برفق ، فقد جاء القرن الثالث عشر ، وللسيد على عبده الحق المطلق في إحيائه وإهلاكه ، وكان يباع في جميع بلاد النصارى كـ تباع السلم ، وكانوا ينحوونه من تعلم القراءة والكتابة ، ويعاقب من خالف ذلك عقاباً شديداً.

ويشير سامي داود الى فشل الكنيسة في القضاء على التفرقة العنصرية في أوربا في ضوء نظام الاقطاع الذي عانى في ظله سواد الشعب قساوة كبيرة من الحكام . وحيث كانت أوربا تقيم الأبراج لأمراء الاقطاع الذين كانوا يفاخرون بأنهم أمميون لا يقرأون ولا يكتبون .

يقول : عندما نادي الاسلام الى المساواة بين الشعوب والاجناس أمام الدولة وأمام الله ، نادى بتحرير العبيد ب مجرد قيام الدولة الاسلامية . وكان نفس النداء قد ظلل يقرع أسماع أوربا قروناً طويلاً عن طريق دعاء المسيحية والمبشرين بها . والرجل المسيحي الابيض يعيش بنفس عقليته الوثنية وتفكيره العنصري : وكانت الكنيسة في أوربا هي التي تحمي الحق المقدس للملوك والأشراف فتقرب بذلك التفرقة العنصرية وتعترض بشرعية السبي والاستعباد وإغلاق السجون والمطابق على العبيد والاستضعفين » .

### ( ٣ )

ويتصل بعبودية الرجل في مجال المضارات الجنس الكبرى : ( اليونان ، والرومان ، والفرس ، والفراعنة ، والهنود ) عبودية المرأة في مجال البغاء . فقد كانت المرأة تقدم الى المعابد . وكانت الديانة البابلية توجب على بعض الفتيات ممارسة البغاء [ كرامة ] للآلهة . وكانت الديانة توجب [ ببعض أدوارها على كل امرأة على الأقل نظرياً ] أن تمارس البغاء باعتبار أنه من الشعائر الدينية ، وفي بعض أنحاء الهند كانوا ينظرون الى البغاء هذه النظرة ويعتبرونه من الفروض الدينية .

واليهود كانوا يمارسون البغاء ويقدسونه . وكانت مصر وفيينيقية وأشور وببلاد الكلدان وفارس وغيرها تقيم الشعائر الدينية المزوجة بجميع ضروب الخلاعة والفساد ، وكانت عبادة إيزيس وسولك وعشتروت وملائتها وغير هذه من أحاط ضروب الخلاعة وأقبحها بل ان المعابد الخاصة بتلك الآلهة لم تكن سوى مسارح لاحاط ضروب الشعائر الشهوانية التي كان القوم يمارسونها باسم الدين .

وقد أنشئ معبد خاص باسم أفروديت . وهي من أساطير القوم . وهي إلهة الشهوات وزخر المعبد بكاهنات يمارسن البغاء باسم الدين .

وفي العصر الروماني أنشئ نظام الكاهنات المدارى لخدمة المعابد . ولما

جاءت المسيحية وقفت موقف الرأفة بمحترفات البغاء ، وعملت الامبراطورية الرومانية على إعادة الحقوق المدنية والاجتماعية لمحترفات البغاء . وتزوج الامبراطور يوستينيانوس بالبغية ( بشودورا ) .

وقد اعترف آباء الكنيسة وفي مقدمتهم القديس أغسطينوس بأن البغاء شرّ لا بد منه وبأن إزالته بتاتاً قد يفضي إلى انتشار الرذيلة على وجه أشد ضرراً بالمجتمع .



أين هنا من موقف الاسلام من المرأة ومن إكرارها على البغاء ومن تحريرها من قيود الإذلال والعبودية .

يقول سيد أمير علي : ليست المرأة أتعس حظاً ما هي فيه عند الأمم المسيحية . وما هو مركز المرأة الشرعي حسب الدين حق في أول البلاد النصرانية تقدمًا .

ان المرأة الملتزمة لم تكن لها حقوق مستقلة عن زوجها الى زمن قريب حق في إنجلترا ، على أن الرسول الذي ظهر في بلاد كانت تُؤَدِّي فيها البنت حية . وفي عصر لم يعرف في أي بلد آخر أي نظام وأي طائفة تحول المرأة الى حق ، فسواء كانت فتاة او عذراء او زوجة او أم ، هذا الذي أكسب المرأة حقوقاً لم يعترف بها الا بضغط شديد لدى الأمم المتقدمة في القرن التاسع عشر وكفى محمدًا فخرًا حق لو لم يفعل أكثر من ذلك في سبيل الإنسانية ، بيد ان المرأة المسلمة يعتبرها المتفقون في الدين أحسن حالاً من المرأة الاوربية .

ولقد لبث ملوك النصارى وزعماؤهم يرغمون المرأة على التزوج بنى يشاوون من رعاياهم عدة قرون بعد ظهور الاسلام . بينما كان الاسلام قد أعطى المرأة

البالغة الحق في أن تتزوج بإرادتها ، وان لا يتدخل الزوج في ثروتها . كما انه لا يسوغ له ان يسيء معاملتها بالطرق الوحشية . فهي مقى كانت بالغة سن الرشد تتصرف في جميع شؤونها وثروتها كما تشاء بدون تدخل زوجها او ابنتها . فاذا ذهبنا ننظر الى صورة المرأة على الإجمال قبل الاسلام وجدنا صورة قائمة مهينة « كانت المرأة من أهل أثينا » ، وهم اكثر الأمم القديمة مدنية وعلمياً تعتبر من سقط المتابع حيث كانت تباع وتشرى في السوق ، كما كانت منزلتها في الدرك الأسفل ، اما كانت تعتبر رجساً من عمل الشيطان لا شأن لها ، وكان مصراً للواحد من أهل أثينا ان يتزوج بأي عدد يشاوه من النساء وكان ( ديموشنستس ) يفاخر بأنه توجد في أمتة ثلاثة طبقات من النساء ، كانت طبقتان منها تعتبران الزوجات الشرعيات والشبيهات بالشرعيات .

اما في (اسبارطة) فقد كان مصراً للمرأة ان تتزوج بأكثر من رجل ، وكانت جميع النساء تقريباً يمارسن هذه العادة . وكانت عادة تعدد الزوجات موجودة في البلدان المجاورة لدولة الرومان وكان من أثر الفتوحات التي قام بها الرومان مضافاً اليها الرفاهية التي تمسكوا بأذياها ، اذ نالوا ذلك الجد الباذخ - كل هذه الاسباب جعلت عقدة الزواج المقدسة مجرد كلمة من قبيل لغو الكلام عند الرومان ، غير ان كبراء روما أرادوا ان يتمتعوا بمزايا الحرية وترفها فانعموا في شهوات الحب والهوى ، فأفضى ذلك الى ان أصبح الزواج أشبه بالفسق العادي . ثم ان الحكومة اعترفت بالزنا في قوانينها فصار هذا نظاماً مرعياً الجانب ، وقد أفضت حرية النساء وانفصام عرى الرابطة التي كانت تربطهن بالرجل تنقل المرأة بين أحضان الرجال ، كل ذلك أفضى الى عادة تعدد الزوجات ، ثم ان اتخاذ الخليلات لم يكن قاصراً على الطبقات الارستقراطية ، حتى ان رجال الاكتيروس أنفسهم كانوا يتخذون

لهم أكثر من زوجة شرعية او غير شرعية بالرغم مما تقضي به قداستهم .

●

جاء الاسلام والبشرية على هذا النحو من عبودية الرجل وعبودية المرأة ، فلم يلبث ان فرض للمرأة حقاً وحرية وكرامة ومكانة لم تكن تحلم بها ، حيث أعلن الاسلام حقها في الحياة وحريتها في الزواج والتملك ، وإدارة عملها ، وجعل للرجل عليها درجة واحدة ، فهو قد نقلها من حيث كانت لا تختسب عادة إلا من متاب الرجل الى حيث جعلها شخصية كاملة ، ورفعها من حيث كانت مستعبدة في البغاء والرقى الى حيث جعلها تستطيع ان تختار لنفسها زوجها . ثم وضع لها الحدود التي تحول بين الناس وبين استعبادها وامتهانها . فنهى عن ان تستغل او تسترق او تقدم للبغاء « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا » ونهى عن وأدها « إذا الموعودة سنت بآي ذنب قتلت » وكرمتها وحصنتها وجعل هناك قانوناً للدخول عليها : ثلاث عورات ، يستأذن فيها عليها ، ودعا الى تعليمها وفرض لها في الميراث وجعل لها نصف شهادة الرجل ، ووضع حدأً للتعدد حيث كان لا حد هناك للتعدد . وحرم زواج الاخت او الأم او زوجة الأب والأخت في الرضاعة . وأقام لها نبراساً من الكرامة والخلق والحفاظ على العرض لا يرقى اليه نظام ولم تصل اليه مدنية ما .

لقد رفع الاسلام شأن المرأة الى مرتبة عالية بعد ان انحط مقامها الى الدرك الأسفل عند اليهود ، وعرب الحاضرة . اذ كانت الانسنة بثابة الخادمة حق في دار أبيها عند الموسويين ، وكان لأبيها الحق في بيتهما . اذا كانت قاصرة ، فاذا توفي يتحقق لأخواتها الصبيان ان يفعلوا بها ما يشاؤون . ولم تكن

لتراث شيئاً الا اذا لم يكن للوالد ذرية من البنين . أما عرب الجاهلية فقد كانت المرأة تعتبر عندهم من سقط المتابع ، وكانت جزءاً لا يتجزأ من ثروة أبيها او زوجها ، وكانت أرامل الرجل يصرن إرثاً لابنه او بناته كأي جزء آخر من التركة ، لذلك حرم الاسلام بتاتاً نكاح المقت ، وهو اقتران المرأة بابن يعلها و نحو ذلك . وقد وصل شأن الخطاطر المرأة عند عرب الجاهلية الى وأدهم بناتهم وهن على قيد الحياة ، فحرم الاسلام هذه العادة ، وكانت منتشرة بين عرب قريش وقبائل كندة . واعتبرها من قبل الظلم والاعتساف ، وكان العرب يعملون بها ، اذ يقدمون بناتهم قرباناً للآلهة اقتداء ببعض الأمم . وكان مقام المرأة منحطًا في الهيئة الاجتماعية في دولتي الفرس والبيزنطيين ، وقد حمل المتعصبون المتخمسون على المرأة حملة شواء ، وهم الذين صاروا القديسين فيما بعد لدى العالم المسيحي فقالوا : إنها مثار الشرور ، ونسوا ان الشرور التي نسبوها الى المرأة ليست إلا نتيجة تضليل أفكارهم . في ذلك الحين حين سقطت الهيئة الاجتماعية في حماة الرذائل من جميع الجهات وارتقت الأصوات مستغيرة بأن التجارب برهنت على فساد كل النظم والشرائع القديمة ثم ظهر محمد صلى الله عليه وسلم بتعاليمه للملائكة الأعلى داعياً للخير وهو يقول : ( ولن مثل الذي عليهم بالمعروف وللرجال عليهم درجة ) .

كرم الله مقام المرأة بصفتها طاهرة نقية وزوجة صالحة ، وقد حرمت القوانين الاسلامية بتاتاً عادة الزواج المشروط ، ودخول الاسلام للمرأة حقوقاً لم تكن لها من قبل ، وأكسبها مزايا لا تعرف قيمتها حق المعرفة إلا بعد زمن طويل ، فقد ساوت الشريعة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنية والأعمال ، ونفت عن تعدد الزوجات ، اذ حددت عددهن ، وقضت على

على الرجال بالمساواة التامة بينهن « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » « ولن تستطعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » .

فالعدل هنا هو العدل التام ، وما ورد في القرآن في هذا الصدد اما يقصد به النهي عن هذه العادة<sup>(١)</sup> .



أما بالنسبة للتعدد الزوجات فقد كانت عادة تعدد الزوجات منتشرة في جميع الأمم الشرقية القديمة . فان ممارستها بواسطة الملوك والأمراء الذين يقدسهم الناس جعلها أمراً مقدساً في نظر الشعوب ، وقد ظلت هذه العادة منتشرة بين الهندوس منذ العصور الخالية . وكان للرجل مطلق الحرية في أن يتزوج بأي عدد من النساء ، وكان تعدد الزوجات شائعاً عند الاسرائيليين قبل عصر موسى . وان محمدأ قد جاء وتعدد الزوجات منتشر ليس بين قومه فقط بل كان منتشرأ أيضاً بين الأمم المجاورة لهم حيث كانت هذه العادة شرآفات الهيئة الاجتماعية .

نعم ان قوانين الدولة المسيحية حاولت ملاشاة ذلك الشر ، ولكنها لم تتبعج في ذلك . وظل تعدد الزوجات معمولاً به بدون واق منه . وكانت النساء التعسات الباقي كان ذلك من سوء حظهن، وفي إيران لم توجد قاعدة مرعية في قوانينهم المقدسة تحديد تعدد الزوجات الباقي يحق للرجل التمتع بهن . فقد كانوا ينغمسمون في حمأة الخاذ الخليلات . وعلاوة على شيوع عادة تعدد

---

(١) سيد أمير علي : المرأة في الاسلام .

الزوجات عند العرب والميود الأقدمين . فقد جرت عليهم عادة أخرى : هي الزواج المؤقت فأفضت إلى الفوضى الأخلاقية وانتشار الفساد<sup>(١)</sup> .

نعم لقد جاء الإسلام ولا حدّ لتعدد الزوجات فيحدد هذا التعدد وجعله في أربع ، ثم وضع له قاعدة صعبة تحول دون التعدد جملة . « ولن تستطعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » .

---

(١) المصدر السابق .

## ( ٤ )

ان اعظم معطيات الاسلام في مقارنات الاديان هو القضاء على الاباحية والرهبانية جيئماً فقد كانت استباحة المحرمات والدعوة الى شيوعية النساء والاموال وإباحة نكاح البنات وغيرها مما يدعو اليه كثير من الملل والنحل وتفسيرات الاديان . وأحل مزدك شيوعية النساء والمال ، فاعتنق مذهبة آلاف النساء إرضاء لشهوتهن ، وقادت مجتمعات على الإفراط في اللذات واللهو الخبيث وخاصة حضارات فارس واليونان والهند والروماني .

وفي نفس الوقت قامت تفسيرات بعض الاديان على قمع الشهوات وتجريد النفس و Zigzag her عن كل رغبة من الرغبات الطبيعية القائمة في الكيان البشري ، ومنها اديان لم تكن لها عقيدة في الإله . كالبوذية والبرهمية . ومنها اديان سماوية انحرفت عن غايتها ، وقد اتسمت هذه الدعوات بالسلبية وحطمت المجتمعات التي عاشت فيها حين دعت الى قتل الرغبات الطبيعية في الكيان الانساني ، وأنكرت ما في الحياة من زينة ومسرة ، وقالت بأنه لا خير في الجسد لأنه محل العاهات وأنه لا قيمة للأفراح والثروة والجاه والملك ، ودعت الى قضاء الايام في استعمال الموت تحت الشمس الحرقـة ، وفي الزهد عن ملاذ الدنيا . وترك العمل رغبة في استعمال الفناء .

وقام في آثينا وأوربا والهند والصين وافريقيا واستراليا قبل الاسلام

ما يسمى بالبغاء المقدس حيث كان مفروضاً على الفتاة ان تقدم عذارتها الى الإله ، وان تبغي مرة في الميكل لتجمع مبلغاً من المال فتقدمه الى الميكل وتخرج ، ويحدث هيروديت ان الجميلات لم يكن يطلبن الإقامة ، ولكن الفتاة الكثيبة المنظر كانت مضطرة للبقاء سنوات لجمع المال . وكان هناك بقاء الضيافة : فاذا جاء ضيف كان على صاحب الدار ان يقدم له أخته وزوجته او ابنته او خادمته ، هكذا كانت الصورة مظلمة قاسية الظلمة ، حافلة بالشر والاثم ، وثمة مقارنات تعتمدتها بعض المراجع الغربية يمكن ان تلقي الضوء .

يقول معجم الفلسفة : ان القرآن يختلف عن التوراة في انه لا يجعل ضعف المرأة عقاباً إلهاً . كما ورد في سفر التكوين ( ٣ - ١٦ ) ومن الخلط ان ذنسب الى شارع عظيم كمحمد ، مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء .

والحقيقة هي ان القرآن يقول « فان كرهنوهن فهمى أن تكرهوا شيئاً  
ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »

ويقول بول دي ركلا : الإسلام هو الدين الوحيد ( بين جميع الأديان ) الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب الى الفسق والفحور ، ويكتفيه فخرآ انه قدس الانسال وعظمها ليرغب الرجل في الزواج ويفرض عن الزنا المجرم شرعاً وتشريعياً ، وان الاسلام قد حلّ بعقلية عادلة عالية أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل لآخر تشغّل مشرعي الغرب بتعقيداتها .

ويقول واصف غالي : ان كثيراً من رجال الاديان الاخرى ، وكان أحدهم (سان بونا فتيور) يقول لتلاميذه : اذا رأيتم امرأة فلا تحسبو أنكم ترون كائناً بشرياً . بل ولا كائناً وحشياً . انا الذي ترون هو الشيطان بذاته ، والذي تسمعون هو صغير الشعبان .

« أما محمد » فهو يعده بحق من أكبر أنصار المرأة العاملين ، ان لم يكن اكبرهم فقد كان بهن رحيمًا وعليهن حليمًا ، وكان لين الجانب كثير العطف عليهن ، عظيم الاحترام والتكرير لهن . ولم يكن ذلك خاصاً بزوجاته ، بل وذلك كان شأنه مع جميع النساء على السواء .

والحق ان نظرة واحدة الى الامم في اختيار المرأة تكشف عن مدى عمق مفهوم الاسلام وأصالته فقد كان كسرى اذا تزوج اختار المال وكانت قيصر اذا تزوج اختار المجال ، وكانت الجاهلية تختار النسب . أما الاسلام فقد اختار الدين : ( تنكح المرأة لماها او جمالها او جسمها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك ) .

واما كان الاسلام قد أعطى كلًا من الرجل والمرأة هذا المنهج الكريم ، وأباح للرجل الحرية في الطلاق والتعدد وعقد الزواج فان ذلك يفسر - على حد قول الملامة محمد أسد - السبب الذي من أجله تعتبر الشريعة الاسلامية « الزنا » من أقبح الآثام ، ذلك ان تجاه هذا التسامح وهذه الحرية لا يمكن ان يكون هناك إطلاقاً أي عذر ل الوقوع في حبائل العاطفة او الشهوة » .



وكان للإسلام في تكريم الانسان : الرجل والمرأة على حد سواء موقف آخر غاية في السماحة والحسمة ذلك موقفه من الخمر .

يقول محمد أسد : ان انفراد الاسلام بتحريم الخمر : مزية لا تجد لها في كتب البيانات الاخرى ، بل ربما تجد في بعضها تشجيعاً على الخمر ، كقول القديس بولس للتلميذ له : خذ قليلاً من الخمر لصلاح معدتك ، كما تجد فيها حادثة تحويل الأولى المملوهة ماء الى خمر ، فلم يكن يبلغ المسلمين تحريم الله للخمر حق أريقت أدنانها وأكوابها فسالت بها الشوارع أنهاراً .

ويقول هنري دي كاستري : ان أحد سلاح يستأصل به المسلمين ، وأمضى سيف يقتلون به هو المطر ، وقد جردا هذا السلاح على أهل الجزائر فابوا ان يتجرعوه فتضاعف نسلهم ، ولو قبلوه لأصبحوا أذلاء لنا ، كتلك القبيلة التي شربت سحرنا وتحملت اذلالنا . وان الواجب على المسلمين أن يحتفظوا بما حظرتهم الشريعة عليهم من تعاطي المسكرات . فان في هذا المنع قوتهم ، وان هذه القوى كانت فيما مضى عظمة الاسلام لم تندثر ، بل ان بقائها آمنة بالمحافظة على المدنية الاسلامية .

●

ولقد عرفت أوربا من بعد كيف كرم الاسلام المرأة ورفع شأنها في الأدب العربي . وكيف عرف الناس في جميع الأجناس لأول مرة بعد الاسلام الحب الظاهر ، ولم يكونوا يعرفونه قبلاً<sup>(١)</sup> والشعر الجاهلي لم يصور لنا الحب إلا طففة على تملّك المرأة والاستمتاع الحسي بها ، فلما ظهرت العقيدة الاسلامية ، نزهو المرأة عن ان تكون مجرد وسيلة لمعنة رخيصة . وظهر الحب العذري وتخطئ الحدود ، وانتقل الى أوربا ، وكان كما قص بعض نقاد الغرب الشرفاء : أهم عامل في تهذيب النقوس وتهيئة السبل للانتقال بالبشرية من العصر الوسيط الى العصر الحديث . والعرب منذ فجر الاسلام لم يعرفوا نظام الحريم ، ولم تمحجب المرأة وجهها بالنقاب إلا نادراً ولم تتوار خلف جدران منزلها ، كانت تحصل على ما يحصل عليه الرجال من علم ، وعرفت قبل المرأة الاوربية كيف تتميز بعيارات معنوية .

يقول بيرونكس في كتابه (القصة في سبعة قرون) لقد غفلت المرأة الاوربية عن حقيقة لو فطنت اليها لنسمتها من كبرياتها ، فهي لم تبتعد

(١) محمد مغيد الشوابashi : رحلة الادب العربي الى اوربا .

أسباب رقتها ولكتتها ورثتها عن المرأة العربية . ومن الأخطاء الشائعة نسبة الحب الظاهر المنزه عن النزوات الجسدية إلى أفلاطون . ومصدر الخلط هو استهثار أفلاطون بازدراء ماديات الحياة . وقد يخطر بالبال في بعث الحب الظاهر الذي عبر عنه شعراء (التروبادور) انه يرجع إلى المسيحية ولكن تعاليم الدين المسيحي لم تغير في الواقع الأمر شيئاً من التقاليد المهمجية والأخلاق البربرية الوثنية التي سيطرت على أمراء أوربا وسررتها قبل اتصالهم بالعرب ، فقد اضطررت الكنيسة إلى التغاضي عن ذلك ، والكنيسة كانت واقعة تحت سيطرة الفكر الإغريقي ، ومن المعروف أن فريقاً من قساوستها كان يتتعصب لأفلاطون . وفريقاً آخر كان يتتعصب لأرسسطو فطغت معتقدات هذين الفيلسوفين وتعاليمهما على معتقدات الكنيسة وتعاليمها ، وكان أغلب المشغلين بالأدب من رجال الكنيسة . ولكنهم ظلوا متأنرين بالفكر الإغريقي مقتصرین على الكتابة باللغة اللاتينية .

ويقول روبيير بريفو : ان فلسفة الفضيلة : فلسفة الحب التي طال ارتباطها بالشعر العاطفي المقتبس من الاندلس ، والتي سادت دوائر الحب في بروفارنس قد استمدت من الاسلام أصولها . والشعراء التروبادور المتكلمون على الشعراء العرب لم يجدوا عن استغلال الفلسفه الصوفية التي لم يكن في وسعهم الا ان يستعينوا بها بذهب الطهر والعفة . وكذلك حرضوا على ان يستمدوا العواطف التي طبعها العرب بالظهور من الشعر الاندلسي القادر على تزويد فنهم بأناقة خاصة واذا سقطت شوائب شعر المدح المتصل بخنق المدوح ، كشفنا عن عالم من نوادي الخير في النفس البشرية يسلط الضوء على سجاياها ، ويحملل نوازعها الطيبة ، وان قصة عنترة هي أول صيحة يطلقها الفن الانساني ضد العبودية والتفرقة العنصرية .

والمرأة العربية تتصنف في أغلب القصص العربية بالوفاء وتتوارد محنتها

عادة من رقة إحساسها ، وينشب الصراع في نفسها بين عاطفتين كلتاها نبيلة فان المرأة الإغريقية تتصرف بالغدر في أغلب مأساة الإغريق وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة ، وترتکب أبشع الجرائم مدفوعة بأحاط النزوات . فها هي ذي (هلينية) تخون زوجها في قصة (طروادة) وتبييد شعورياً بأسرها وتدمير بلاداً عن آخرها .

( ٥ )

ان انكار الاسلام للرهبانية هو جزء من رسالته الى تحرير الانسان من العبودية وتقدير البشرية بعد ان ظلت محجوزة طويلاً وراء أسوار الظلم والقسوة والحرمان ، متأرجحة بين (الاباحية) التي فرضتها اليهودية التلمودية وبين (الرهبانية) التي جامت بعدها . والرهبانية (Monasticism) نظام خاص اتبنته جماعات دينية مراعية فيه شرائط الفقر والعزوبة والطاعة العميماء . والانقطاع عن الدنيا والأخذ بقواعد النسك . وقد عرفت الرهبانية قبل المسيحية في الهند وفي أقاليم آسيوية أخرى . وقد عرف اليهود هذا النظام قبل العهد المسيحي . ثم ظهر ثانية في المسيحية عندما امتنع الرجال والنساء عن الزواج وأكل اللحوم ، ووقفوا أمامارهم على ضروب من العبادات وقد بدأت دعوتهم في مصر في منتصف القرن الثالث . وانتشرت في غربى أوربا في عهد القديس (أسطاثيوس) ثم القديس (بندكتوس) الذي وطد دعائمه هذا النظام في الغرب .

وقد أورد المؤرخون انه في عام ٣٥٦ للميلاد كان في أحد الأديرة عشرة آلاف راهب وعشرون ألف راهبة . وقد أشار ( جوليز ليروي ) في بحث له عن الرهبانية في الشرق : ان الكنيسة القبطية تأثرت بمقائد قدماء المصريين ، ولما عرف المسيحيون ان الجسد زائل ، والروح باقٍ ، احتقروا متاع الدنيا

واعتبروه عبّاً يحبّ المخلص منه حتى لا يقف حجر عثرة في طريقهم للخلود، وهذا يفسّر ترك الكثيرين لما نالناهذا ورحيلهم الى الصحراء حيث بدأوا حياة جديدة في مقابر قدماء المصريين وتحولوها الى خلاماً للرهينة.

ويقول الأستاذ ليكي : مؤلف كتاب « تاريخ أخلاق أوربا » لقد زاد الرهبان زيادة عظيمة وعظم شأنهم واستفحلا أمرهم ، واستரعوا الأنظار وشققا الناس حتى روى المؤرخون انه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان ، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب .

ولقد كان تعذيب الجسد أخطر أعمال الرهبانية . فنهم من يقف على قدم واحد ثلاثة شهور . ومنهم من يحمل نحو قنطرة من حديد ، وكانوا لا يلبسون وإنما ينشرون شرم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، ويسكنون في مغارات السباع ، والآبار النازحة والمقابر ، ويأكلون الكلأ والخناص ، ويعدون طهارة باسم منافية لبقاء الروح ، ويتأمرون من غسل الأعضاء ، وكان أتقاهم هو أوغلهم في النجاسات والدنس ، ومنهم من لم يمس الماء بجلده طوال عمره . ومنهم من لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة . وكانت نتيجة الرهبانية ان خلل الفتورة والمرودة التي كانت تعد فضائل عادت فاستحاللت عيوبها ورذائلها ، وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماعة والشجاعة والجرأة وهجروها ، وكان من نتائجها ان تزلزلت دعائم الحياة ، ويقول السيد أبو الحسن التدوبي معلقاً : وقد عجزت هذه الرهبانية الفالية ان تمدد شرط المادية الاوربية او تكبح جماحها وغلواءها : لقد حاولت النصرانية الرومية تغيير الفطرة وإزالتها . وحملت التفوس ما لا طاقة لها به ، فرغت فيه كرداً فعمل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة ثم تخلصت

منه وثارت عليه ، ولم تقدر النصرانية بمسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرها للنفطرة والواقع ان تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم . فس كانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنباً إلى جنب بل الأصح ان الرهبانية كانت معتزلة في الصحاري والفالوات لا سلطان لها على الحياة ، وكانت حركة الخلاعة والإباحة زاخرة طامة في المدن والمحاضر » .

وقد كان للرهبانية أثر خطير على المجتمع نفسه . فقد هجرت هذه الجموع الضخمة زوجاتها وأولادها وتركتهن في شظف من العيش فخلفوها « الأمهات شكال والأزواج أيام ، والأولاد يتامى ، عالة يتکففون الناس ويتجهون قاصدين الصحراء ، وكانوا يفرون من ظل النساء ، ويتأثرون من قربهن والمجتمع بهن ، وكانتا يعتقدون ان مصادفهن ، في الطريق والتتحدث اليهن ولو كن أمهات وأزواجاً ، أو شقيقات تحبّط أعمالهم وجهودهم الروحية<sup>(١)</sup> . ومن ناحية أخرى كانت الأديرة مثلاً غاية في السوء لكل خلق كريم . تقول دائرة معارف لاروس ص ٨٩٨ ج ٣ : ان الرهبان لم يراعوا الرهبنة حق الرعاية .

وفي القرن الحادي عشر كان الرهبان الشرقيون الذين أخذوا على أنفسهم أن يعيشوا بلا زواج لا يحسرون ان يدخلوا الى أدبيتهم الإناث من الحيوانات بسبب ما يتحمل ان ينتفع من ذلك من الخطر على أرواحهم ، ومع ذلك فلا يخفى اليوم انهم لم يقوموا بما تعمدوه به من العفاف بين رجال الدين من الجنسين .

(١) ليكي ندل عن أبي الحسن التدريسي ( ماذا خسر العالم ) .

فقد قال (دوبيرتو) بعد ان زار الأديرة في النمسا وفي الممالك الأخرى التابعة للملك فردينان الأول : انه رأى مائة وعشرين ديراً تحتوي على ٤٣٠ راهبًا و ١٦٠ راهبة و ١٩٩ سرية و ٥٥ امرأة متزوجة و ٤٣ طفلاً . وقال انه يخشى ان يتكلم عن راهبات زمانه تفادياً من ان يظن انه يتكلم بإسهاب وبجون . وندد بالأديرة ، وحمل حلة شديدة الطعن جداً على أديرة زمانه ، وتاريخ دير (دورياك) الذي تكلم عنه المسيو رولوز في تاريخ باريس ١٨٢٣ يعطي فكرة عن الأديرة الفرنسية في القرن السادس عشر .

ثم قالت دائرة المعارف : « ليست هذه الأمور من الشؤون المنعزلة ولا الخاصة بزمن دون زمن . ففي الأزمنة القديمة لام القديس (سريابين) والقديس (بازيل) عذاري زمانها اللاتي وقفن حياتهن على الله على ما يظهر من عدم عفافهن .

ورأى (جان كريستوم) : انه لا يكفي قتل الراهبة التي تخون عفافها . بل رأى ان تقطع الى نصفين ، او تدفن حية مع شريكها في الإثم .

ولقد أحسنت بعض الطوائف المسيحية كالبروتستانت وغيرها بابطال عادة الرهبنة بتاتاً والسماح لرجال الدين بالزواج ، فان الزواج لا يعتبر مبعداً عن الله بعد ما ثبت ان أكثر المرسلين كانوا ذوي حاجات . ولم ينفعهم زواجهم من طاعة الله<sup>(١)</sup> .



---

(١) من بحث في السياسة الاسبريقية (نوفمبر سنة ١٩٢٨) .

أما الاسلام فقط ربط بين الحياة الدنيا وبين الآخرة ، وأباح للانسان طيبات الدنيا من زواج وزينة ومتاع وطعام من مصادر الحلال ووفق ضوابطه التي أريد بها تكريم الانسان وحمايته ودعم بنائه النفسي والاجتماعي .  
ولم يجعل الحياة الدنيا قاصرة على العمل للآخرة .

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعياده والطيبات من الرزق »  
« وابتغ فيها آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »  
« يا أيها الذين أمنوا لا تغحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » .

وهكذا وقف الاسلام من البشرية موقف الكرامة والعزّة والسامحة .

فإذا تحدث عن الرهبانية كانت كلمته مثلاً من أمثلة القوة وبناء الشخصية . « رهبانية أمري الجهاد » ولقد يحاول بعض المتعصبين ان يرسموا للرهبانية حالة مضللة في محاولة لإعلامها . وهي محاولة ضد الفطرة والعقل والعلم .

يقول عمر الامری : لم ينقض رفض الاسلام الرهبانية شيئاً من سمو معنقيه لأن إيمانه ترجمه الله عن أن يخلق شيئاً ويأمر بخلاقه وإزهاقه . إنما يرسم له المسالك المشروعة التي يلبسها تلبية سليمة كريمة . حيث يشعر الإنسان في ظل الاسلام بانفتاحه الحضاري على الكون وتعايشه معه في كل مرافق حياته الخاصة والعامنة . والحق ان يقال ان المسيحية أدخلت الى اوربا الاديرة . وان الوثنية اليونانية أخرجتهم من مفاهيم الاسلام .

وإذا كانت رهبانية الاسلام الجهاد فقد حفظ التاريخ للمسلمين صفحة باهرة في بناء الفروسية ودفعها الى العالم كله منهجاً من أعظم مناهج النبل والوفاء .

يقول سان هيلد : ان العرب هم الذين يرجع اليهم الفضل على سادات اوربا وفرسانها في القرون الوسطى في تعديل عاداتهم الحشنة وتلطيفها ، ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم . والرفعة بها الى حيث الانسانية والنبلة ، وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئاً .

ويقول ( اتيان دينيه ) هذه الظاهرة على نحو آخر فيقول : لقد حفظ لنا التاريخ في سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع

الأدلة المظيمة المؤشة بالرقابة والتهذيب . لقد هذب الاسلام فروسية العرب وظهورها وأدخل مبادئها الى اوربا . ولم يوح الاسلام بالرهبة بل حرمها .

ان الفروسية ونبل قصدها لم يكن يعرفها الاقدمون من اليونان والرومان . ولكنها كانت معروفة عند العرب وهذبها الاسلام وظهرها .

(٦)

من أعظم ما دعا اليه الاسلام من أجل تمدن البشرية وتحرير الانسان : « الاخاء الانساني » وليس هناك أدنى مبالغة في ان أوربا والعالم كله لم يعرف الاخوة الانسانية الا بعد أن حملها له الاسلام .

يقول عبد الكريم حرمانوس : ان أوربا لم تعرف فكرة الاخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية بينما دعا الاسلام اليها وطبقها المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام : لقد كانت فكرة المساواة والشورى من ابتكار القرآن ، عرفتها أوربا في القرن السابع عشر بينما هي من حقائق الاسلام وأصوله منذ نشأته . ولم يعرف حكام أوربا الاشتراكية الا في السنوات الحديثة . بينما سبقهم الاسلام الى المساواة بين المسلمين وأهل الكتاب ( اليهودا ومسيحيين وغيرهم ) فأقام بذلك نظام العدل الاجتماعي واستمتع في ظله كافة الناس بكل الحقوق السياسية . ومن الحق ان دعوة الاسلام : « كرمت الانسان وحققت انسانيته وأوجدت له طريقة جديدة عرف بها النور الذي أضاء الحياة »<sup>١١</sup> . وما تزال فكرة الاخوة الاسلامية الى اليوم أملاً يشغل قلوب المصلحين ويأخذ بالباهم ، وبعد كل المحاولات التي يحررها العالم اليوم ،

---

(١) دكتور عبد الرحمن علي الحجي : الحضارة الاسلامية .

وتفشل في إقامة الأخوة العالمية ما زال الإسلام هو المرجى لتحقيق ذلك .

يقول هاملتون جب في كتابه : (وجهة الإسلام) ولكن الإسلام ما زال في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة جليلة ، فليس هناك أي هيئة سواء يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة . فالجامعة الإسلامية المظمى في أفريقيا والهند وأندونيسيا ، بل وت تلك الجامعة الإسلامية الصغيرة في الصين أو في اليابان لتبيّن كلها ان «الإسلام» ما زال له القدرة على أن يسيطر كليّة على أمثال هذه المناصر المختلفة للأجناس والطبقات ، فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب المظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لجسم النزاع .

ولا ريب ان الأخوة الإسلامية العالمية إنما تقوم تحت القانون الأخلاقي العام<sup>(١)</sup> فهي أخوة عالمية ليست مبنية على الثقافات ، بل على القانون الإسلامي الموحد .

•

والحق ان «الإسلام» حين جاء بالإحساء الإنساني إنما كان ذلك ردآ حاسماً على «العنصرية» التي كانت طابع البشرية كلها ومنطق حياتها خلال ذلك العصر الطويل الذي المحرفت فيه مفاهيم التوراة وتحولت من سماحة الإحساء إلى إعلاء العرق والجنس والدم والشعب المختار . فهي رسالتهم إلى البشر أجمع . والمعروف ان التوراة صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد العنصرية

---

(١) كما وصفها الدكتور المبارك .. بحثه عن الحنيفة .

اما القرآن فقد مهها في قالب الاخاء الانساني ومنها أصبحت التوراة دعوة عنصرية أما الاسلام فهو دعوة الى الاخاء الانساني .

وقد جاء الإسلام ماحياً التفاخر بالأنساب ، داعياً إلى العودة إلى وحدة الجنس البشري الأولى : « كل سك لآدم وآدم من تراب لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على عجمي إلا بالتفوّى » أما الغريب فقد عجز تماماً عن فهم الإخاء الإنساني لأنّه استمد مفاهيمه من التلمود وفلسفة اليونان . فقد وجد اليهودية تقول بإعلاء الدم والجنس . ووجد أرسطو يبرر طموح الإغريق لسيادة العالم وينادي بأن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد ليكي تكون عبيداً وكان الفرس يعتقدون هذا الاعتقاد . أما في العصر الحديث فان صوت العنصرية قد ارتفع وساد ، وجاء الاستعمار فحوّل نظام العبودية إلى نظام مقدس . وفي تأييد هذا النظام والدفاع عنه ابتكر المفكرون وعلماء الاجتماع اسطورة شبه علمية لتبرير العنصرية ثم تبين انه ليس هناك أساس علمي لتصنيف الأجناس تصنيفاً عاماً على أساس من العنصرية .

وهيست ريح التمثيل الجنسي على أوربا بـ كراهية كل الجنسي الملونة وارتفعت الدعوة إلى عظمة الجنس الجنرمانى وتفوق الآرية والنوع الانجليوسكوتى والجنس اليهودي .

وبقي الاسلام وحده صاحب الدعوة الحقة الى الاخاء الانساني . يقول أرنولد توينيبي : لقد اتصل المسلمين البيض مع الزوج الافارقة ومع الشعوب الداكنة اللون في الهند منذ البداية . واستمروا في تعزيز ذلك الاتصال وحققوا اليوم فان البيض والسود يندمجون تحت راية الاسلام عبر القارة الافريقية والهندية طولاً وعرضًا . وقد برهن المسلمون البيض عن تحررهم من أي

شعور عنصري بأقوى البراهين والمحجج حيث انهم قد زوّجوا بناتهم المسلمين السود .

ويقول برنارد لويس : كل المسلمين البيض كانوا متحررين من عقدة التمحيدي اللوني ضد الأجناس غير البيضاء لا يقسمون الناس الى أبيض وأسود بل الى مؤمنين وكفار ، كانوا متحررين كل التحرر من أي شعور بالتمحيز في اللون موجه ضد غير انهم الأكثر سمرة في الجنوب .

ولقد وضع الاسلام التقوى كقاعدة أساسية بديلة للون والجنس ، والقرآن كان ضد القبلية والعنصرية وأحل العقيدة بديلاً من العنصرية ، ولقد قال المقوقس لبعض المسلمين : كيف ترضون ان يتزعمكم رجل أسود . قالوا له رغم انه أسود فهو أفضلنا منزلة وذاته وحشة « لأن السواد غير مزدرى بيننا » . وما يزال هذا المعنى واضحاً في مجتمع الاسلام حتى ان ما كوم اكس الزنجي الافريقي المقيم في الولايات المتحدة يقول في مذكراته : لقد كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من كل أقطار الدنيا ، كانوا من كل الألوان ، من الشقر زرق العيون ، الى الأفراقة سود البشرة ، ولكننا جميعاً كنا نشارك في نفس الطقوس مبدئياً روح الوحيدة والاخوة التي ساقتنا تجاري في أمريكا الى اعتقاد أنها لن يمكن ان توجد بين البيض وغير البيض .

« وفي مجتمع الاسلام في الحج : حيث لا يشعر أي أحد بأي تمييز ، لا توجد عقدة الاستعلاء ولا عقدة النقص . فان الذين هم من جنس واحد يتوجهون الى بعضهم إرادياً وطبعياً » .



ولم يقف الاسلام عند حد طرح فكرة الاخوة العالمية الانسانية كذهب فكر . ولكنها طبقها كمنهج حياة فان الفاتحين المسلمين لما لبשו ان اندمجوا في الأمم التي فتحوها وربطوا بينهم وبين جميع العناصر والاجناس برباط المصاهرة والاندماج ، وجعلوا وحدة الفكر والعقيدة والدين ومنهج الحياة أساس الوحدة الحقيقة .

( ٧ )

منح الاسلام البشرية المنهج العلمي التجربى ومنهج المعرفة المتكامل القائم على الترابط بين الروح والجسد ، ولقد نزل الاسلام محرراً للعقل مكرماً للانسان وسرعان ما انتقلت مفاهيمه شرقاً وغرباً حق وصلت الى اوربا التي لم تمتلكه دينها ولكنها تأثرت به فكراً وعلمياً وثقافة ومنهجاً غير كثيراً من مفاهيمها وطبيعة حياتها ونظام مجتمعها .

لقد حرر الاسلام الفكر الاوربى من وثنية الفكر الاغريقي ومن عبودية المجتمع الرومانى ومن تفسيرات الاديان التي لا يقبلها العقل او تقرها الفطرة . وهو الذي حرر العقل الاوربى وأخرجه من نفوذ الكنيسة وأسرارها . ومن كل ما يتصل بالاساطير والسحر والخرافة .

وهو الذي أعطى البشرية «التجزئة» وكان الفكر اليوناني قاصراً على «القياس» وأول من علم العالم كيف تتحقق حرية الفكر مع استقامة الدين .

ولا ريب ان نظريات الحرية والتقدم والمعدل الاجتماعى تبلورت من بعد أن استمدت أنسنة من الاسلام . ثم تشكلت من بعد وفق طوابع ومجتمعات الغرب . وأبرز ما قدمه الاسلام : أخلاقيات الحياة والاجتماع والسياسة ، ومفهوم الرحمة والتسامح والمعطف مع أهل الكتاب والمعدلة مع المسلمين .

ولقد كانت دعوة الاسلام الى تدين البشرية بتكرير الانسان وإلغاء العبودية . وتحرير الفكر وفي نفس الوقت كانت دعوته الى العلم مصدرأً لبناء الحضارة . ولقد جعل الاسلام القيم الخلقية عباد بناء الحضارات ، فاذا ما انهارت هذه القيم انهارت الحضارة . وقد جعل الصدق والمساواة والتواصي بالحق وتطبيق العدل على المسلم وغير المسلم والصديق والعدو عباد الحضارة . وأي حضارة بغير مدنية مستمدۃ من الإيمان بالله والعدل الاجتماعي والإخاء الانساني هي حضارة مادية معرضة للسقوط والانهيار ، وان سقوط الاخلاق هو أول أسباب سقوط الحضارات . «إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها فسلقوها فيها فحق عليها التسلق فدمرواها تدميراً» وبذلك فان أعظم ما أعطاه الاسلام لأوروبا وللبشرية :

= المدنية في تحرير الإنسان وتمدين البشرية = الحضارة في بناء المجتمع التجريبي

ولا ريب ان ثورة اوربا على الكنيسة اغا كان مصدرها هو اتصالها بالحضارة الاسلامية في الاندلس وتأثيرها بظهور حرية الفكرية والاجتماعية التي يتمتع بها المسلمون « ولقد لبّيت اوربا ثلاثة سنت قتبس من الإسلام : اللغة والعلوم<sup>(١)</sup> ». ويبدو أثر الاسلام واضحاً في خروج كثير من الفريبيين على تعاليم الكنيسة وتسكّنهم بمبدأ حرية الفكر ، وتحكّم العقل على أساس المشاهدة والتجربة . والمعروف ان رجال الدين قد<sup>(٢)</sup> دسوا في كتبهم الدينية المقدسة تعليقات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، لم تلبّي ان تعارضت مع ترقى العلم . فقد جعلوا الدين في وجه العلم الحديث بمعانٍه الجديدة المعاصرة لما دونه . ومن ثم نشأت أزمة الخلاف بين الدين والعلم . ولم يلبيت الدين ان انهزم في هذه القضية .

(١) من بحث لاتيان ديلمه.

(٢) ماذا خسر المسلمون للندي .

لقد اضطهدت الكنيسة العلم في وقت بدأ علماء الطبيعة والعلم يزيلون سلال التقليد الديني فزيفوا هذه النظريات الجغرافية وانتقدوها ، في صراحة تامة . وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية ، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون فاستحلوا دمامهم وأموالهم وأنشأوا حماكم التفتیش التي تعاقب أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت فاجتهدت ان لا تدع في العالم النصراوي عرقاً يتپبس ضد الكنيسة وبشت عيونها في طول البلاد وأحصت على الناس الانفاس . وقد عاقبت هذه المحاكم ٣٠٠ ألف أحراق منهم اثنان وتلائون ألفاً أحياء ، منهم العالم الطبيعي برونو وعوقيب العالم الطبيعي جاليليو بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الارض حول الشمس . وليس أدل على مقاومة النصرانية للعلم من أنها أحرقـت كتب البطالة والمصرىين بالاسكندرية على عهد جول قيسـر ، ثم ان نـيوفيل بطريرك الاسكندرية أحـرق باقـي المكتبة ، وما من عقـيدة ظهرـت في المسيحـية وأـريد تقرـيرـها من فـريق دون فـريق ونـازعـ فيها فـريق إـلا سـالت الدـماء ، ولا يوجد في التـاريخ ذـكر لـلـعلم بـعد ظـهور المـسيـحـية . وبـبدأ النـزاع بـين المـلمـ وـالـدـينـ فـي أـورـباـ بـعد ظـهورـ الـاسـلامـ وـاستـقـرارـ سـلطـانـهـ فـيـ الـانـدـلسـ وـاحـتكـاكـ الـاوـرـبـيـنـ بـالـمـسـلـمـيـنـ فـيـ الـحـربـ الـصـلـبـيـةـ . وـأـنـشـتـتـ حـماـكـ التـفـتـیـشـ وـحرـقـ الـكـوـدـيـنـالـ بـالـمـسـلـمـيـنـ فـيـ غـرـناـطـةـ ثـانـيـةـ آـلـافـ كـتـابـ عـرـبـيـ بـخـطـ القـلـمـ . وـقـدـ رـأـتـ النـصـرـانـيـةـ انـ عـلـومـ الـأـوـاـئـلـ خـطـرـ عـلـيـهاـ فـأـحـرـقـتهاـ فـيـ كـلـ مـكـانـ : مـكـتبـةـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ عـامـ ٣٩٠ـ المـيـلـادـ ، مـكـتبـةـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ عـامـ ٤٧٦ـ المـيـلـادـ . وـعـملـ (ـلـاـونـ الـلـوـزـرـيـانـيـ)ـ عـلـىـ إـحـرـاقـ ماـ بـقـيـ مـنـ الـكـتـبـ ٧٤٠ـ مـيـلـادـيـةـ .

وكان في هيكل أبولون بمدينة روما مكتبة من أنفس الكتب في عهد أوغسطس فأحرقت وحرم الناس منها وبقي نذر قليل من الكتب هي التي أحياها العرب والتي اعتصروا ما فيها من علوم اليونان فمحروها وصيحوها أخطاءها وانطلقوها منها إلى بناء المنهج التجاري الذي أهداه الإسلام

للحضارة العالمية . « وكان الاتجاه الى النهج التجاربي الذي يصطنع الملاحظة والتجربة في دراسة الظواهر الجزئية ، توطئة لوضع القوانين العامة التي تفسر الواقع الكوني »<sup>(١)</sup> .

ومن رواد هذا النهج : جابر بن حيان والحسن بن الهيثم . وقد اهتم علماء المسلمين ب النقد المصادر وتحليلها والإبانة عن أخطائها ومخالفاتها . وتحذثروا عن الملاحظة الحية وأنكروا دورها في دراسة الظواهر الطبيعية . وأوصوا بإجراء التجارب العملية مق تيسرا ذلك ، والصعود من الدراسة التجريبية للظواهر الجزئية الى وضع قوانين عامة تفسر هذه الظواهر . ومع تمكن المسلمين من وضع القوانين العامة التي تفسر الظواهر . فقد كانوا يديرون ذلك في إطار الإيمان بالله . ذلك ان حضارة الإسلام لم تقم على العلم وحده ، ولكنها العلم في إطار المقيدة ، وإن قيم الإسلام لم تكن حائنة دون التقدم العلمي ، بل كانت على العكس من ذلك مصدرأً من مصادرها . فقد جمع الإسلام بين حرية الفكر واستقامة الدين .

ولقد بلغ المسلمون في خطواتهم العلمية مدىًّا واسعاً . فقد استطاعوا تصحيح أخطاء ابقراط وجالينوس ، خطأً ( ابن النفيس ) جالينوس وقال ان التشريح يكذبه ، وصححوا أخطاء طب ابقراط وفلك بطليموس وصيدلية ديسفوريديس ، وفلسفة أرسطو نقدوا آثارها وفحصوا سعادتها في ضوء الملاحظة الحسية والتجربة العلمية .

وقد فطن<sup>(٢)</sup> المسلمون قبل أن يفطن المحدثون الاوربيون الى عدة أمور :

(١) توفيق الطويل - العرب والعلم .

(٢) بتصرف عن بحث الدكتور توفيق الطويل .

أولاً : إلى قصور الحواس عن إدراك بعض الظواهر لفريط صغرها ، أو بعدها . فعوضوا قصور الحواس باختراع أجهزة وآلات تقد في قدرتها على الإدراك . ( وكان ابن الهيثم يستعين في دراسة انتشار الضوء وانعكاساته بالآلات يقوم بصنعها أو يشرف على صنعها ) .

كما خلف أبو القاسم الزهراوي مثاث الرسوم لآلات تستخدم في الجراحة والتخدير وترك علماء المسلمين في الفلك مراصد مزودة بعشرات الرسوم لآلات وأجهزة .

ثانياً : الاهتداء إلى التجربة العلمية ومعرفة دورها في البحث العلمي . فلم يكتفوا ببراقبة الظواهر وتسجيل حالها ، بل تدخلوا في سيرها ليلاحظوا في ظروف هيئوها بأنفسهم وأعدوها بيارادتهم . وسماتها (جابر) : التدريب وسماتها (ابن الهيثم) : الاعتبار .

ثالثاً : فطنوا فوق ذلك إلى أن الفرض من الدراسات التجريبية هو وضع القوانين العامة التي تفسر الظواهر تفسيراً عملياً<sup>(١)</sup> . وبالجملة فقد قرر الإسلام دستور العلم : دعا إلى عدم الانخداع بالأوهام أو قبول الظن ، ودعا إلى اعمال العقل وسؤال أهل الذكر وإنكار التقليد وحرمة النظر . وقد أطلقت الدولة الإسلامية الحرية للعلم ، وكفلت لأهله الأمان بينما أدخلت أوروبا العلماء في زمرة المارقين من الدين ، وقد ملأهم لحاكم التفتیش ، وخاصة بالنسبة لنظرية دوران الأرض التي كانت موضع أخذ ورد بين علماء العرب ، ولا يعرف ان أحدهم أصابه ضير بسبب تأييده او معارضته لها<sup>(٢)</sup> .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

ولقد كان العلماء في العالم الإسلامي موضع التقدير والتكرير . وكانت حرية الفكر تسمح بأن يقول كل باحث ما يشاء دون أن يتعرض لأي خطر ، ولقد ظل الحلاج ( وهو رجل محبوب الأصل اشتغل بالمخاريق والخيال وادعى العلم بالأسرار ) دون أن يتعرض له حق ضبط بينه وبين الجبائي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة فكان هو السبب الحقيقي في محاكمته .

وقد بلغ الخلفاء بالعلم والعلماء منزلة التقديس ، وسار الملوك المسلمون على سنن واحدة في نشر العلم والحدث عليه وإعزاز أهله ، والبذل لهم ، وبناء المدارس وخزائن الكتب . وبلغوا في ذلك غاية ليس وراءها غاية <sup>(٣)</sup> .

ولا ريب أن المعلم لم يرتق في أوربا إلا بفصل الدين عنه بينما العكس في الإسلام . فان رقي العلم كان مصدره الإسلام نفسه الذي دعا إلى النظر في آفاق السماء والأرض . واعتماد البرهان والدليل ، وقد سمى دستوره الكتاب وكانت أول آياته أقرأ وأقسم الله في إحدى سوره بالقلم وانه هو سبحانه الذي علم بالقلم .



لقد كانت أوروبا خالية تماماً من العلم في فترة العصور الوسطى . يقول الدكتور توفيق الطويل : لا يعدو الحق من يقول ان العلوم الطبيعية

---

(١) عبد الرحيم عزام - (الرسالة ١٩٤٤) .

والفلسفية لا وجود لها في حياة اليهود منذ مطالع القرن الثاني حق أو اخر القرن الثالث عشر لميلاد المسيح إلا في بلاد الاسلام ، ففي ظل سماحة ورعاية خلفائه نبغ اليهود حق ببلغوا الذروة<sup>(١)</sup> . وان الحضارة في الأندلس قدّمت للبشرية منجزات رائعة ، كان بالربيع الشرقي من قرطبة ( ١٧٠ امرأة ) كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي . وكان في الأندلس أيام الحكم الثاني المستنصر سبعون مكتبة عاممة<sup>(٢)</sup> . وان في كل الاندلس لم يكن يوجد رجل ألمي بينما لم يكن يعرف الكتابة والقراءة في أوربا كلها إلا الطبقة العليا من القسس<sup>(٣)</sup> . كانت أوربا تدخل بالجهل بينما كانت الأندلس تحمل أمانة العلم . وكان شارليان وغيره يحاولون ان يتّعلّموا كتابة اسمائهم<sup>(٤)</sup> .

●

وعلى هذه الحقيقة يشهد كثيرون يقول فون كريير : ان العقل العربي يبدو في ذروة نشاطه حين يكون في حقل المعرفة التجريبية ، يباشر دراسة في ضوء الملاحظة والاختبار ، فالعرب يبدون نشاطاً واجتهاداً يثيران الدهشة حين يقومون بلاحظات الظواهر وتخيصها وجمعها وترتيب ما هدتهم اليه التجربة . ولما كانوا أصحاب ملاحظة دقيقة ،

(١) بحث الدكتور توفيق الطويل .

(٢) الم Cobb في تلخيص أخبار العرب .

(٣) درزي .

(٤) هونكي : شمس الله .

وأهل تفكير مبدع أصيل ، حققوا في مجال الرياضيات والفلك نجاحات رائعة .



ويقول سيديو : الحركة العلمية عند العرب تميز بالانتقال من المعلوم الى المجهول والتحقيق الدقيق في ظواهر السماء . ورفض كل حقيقة كونية لم تثبت إلا عن طريق الملاحظة الحسية .

ويصل بريفولت في كتابه : ( Making of Hwnanitiy ) الى النزوة حين يقرر : ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الاوربي يمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة . فان هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون في تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة . ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه لنا من كشف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل مدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا : « انه مدين لها بوجوده نفسه » . وهو نفس القول الذي يرددده سيديو ويفصله جوستاف لوبيون في قوله : كلما أمعنا في دراسة حضارة العرب وكتاباتهم العلمية واحتراعاتهم وفنونهم ظهر لنا ان العرب هم الذين فتوحا أوروبا الحديثة مادة وعقلا وأخلاقا . وان التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير .

ومن هنا تقرر حقيقةتان متشابكتان :

الأولى : انه لا علاقة مطلقاً بين حضارة اوربا الحدبية وال المسيحية .

الثانية : ان التمدن الاسلامي هو في الحقيقة « التمدن الانساني » .

ويصدق في هذا قول الملامة مسمو : ان الفري اذا صار عالماً ترك دينه بخلاف المسلم فانه لا يترك دينه الا اذا صار جاهلاً .





## الفصل الرابع

### بناء المجتمع والانسان

لا ريب ان معظم معطيات الاسلام هي بناء الانسان و تكريمه وإعزازه بتحرر عقله بالتوحيد ، و تحرير كيانه من العبودية ، ثم وضعه في مكانه الذي يجعله قوة قادرة على البناء والتممير والمقاومة ، رابطاً بين واجب الانسان تجاه الله وواجبه تجاه نفسه وواجبه تجاه أخيه الانسان .

والاسلام لا يعتبر الانسان مجرد كائن حي ، بل يضعه في منزلة رفيعة هي : الاستخلاف في الأرض .

يقول إقبال : «ان التوراة تلعن الارض بسبب معصية آدم بينما يبين القرآن ان الارض دار سكن للانسان ومصدر ربح له » فاذا اخطأ الانسان فليس بسبب خطئه آدم ، وإنما بسبب الأعمال السيئة التي ارتكبها هو نفسه ، وكل طفل يولد على الطهر والحق ، وكل زين يزيفه بعد ذلك عن طريق الحق والاستقامة يرجع الى خطأ في تربيته . قال النبي ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة . ثم أبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ، ومصير الانسان حسب ما تقرره

أعماله . لأن كل فرد مسؤول عن مصيره ، فالإسلام ينبع البشر الحية في أن يختار بين السير في طريق الأخلاق او التراجع او النكوص . والانسان هو المخلوق الوحيد الذي وضع موضع الابتلاء بالأمانة : وهي حرية الإرادة او الاختيار ، والانسان هو الذي انفرد دون الكائنات بخاصية التفكير والجدل والمسؤولية الفردية والمسؤولية الأخلاقية ، ومواجهة الصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل . وهي معركة متصلة طول حياته كلها .

وكان دعوة الإسلام أساساً إنما ترمي إلى تحرير الإنسان من شهوات النفس ومن عبودية الناس.

وقد بلغ الاسلام في تكريم الانسان حداً لم تعرفه من قبله المذاهب والدعوات ، فحرم <sup>نفس</sup> ، وحرم التمثيل بالانسان عند قتله ، وجعل عقوبة الانسان بالقتل في جريمة واحدة هي : جريمة القتل العمد ، ومع ذلك فقد جعل لولي <sup>القاتل</sup> سلطاناً . فلا يسرف في القتل ، بينما كانت عقوبة الاعدام في اوربا عند نزول الاسلام لأسباب كثيرة منها : الزنا والسرقة والكذب . وأعلن انه لا يجوز المثلثة ولو بالكلب المكور . وجعل نظرة التقدير للانسان من حيث هو انسان لا من حيث لونه او ثروته او جنسه فجعل الاسلام للانسان حرية اختيار عمله ، وحرية ارادته ، ومسؤوليته عن هذه الاعمال وما يتربّط على الحرية والمسؤولية من جزاء . وجعل من حق كل انسان ابداء رأيه ومحارص الاسلام على تحقيق المصلحة العامة للمجتمع فقد احتفظ لكل فرد بفرديته . ودعا الى المحافظة والتوازن بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد . ومعنى هذا ان الفرد ليس حرراً في ان يفعل ما يشاء ، ولكن حريته تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين .

وأعظم ما أعطى الاسلام : التوازن بين المادة والروح . وحق الانسان في الحياة ونعمتها وفي تحقيق رغباته في الطعام والشراب والمرأة والمال ، فقد منحه هذا الحق وأحاطه بضوابط هي لمصلحة الانسان وكيانه وعقله وروحه.

وبذلك حرر الانسان من الاحساس بالحرمان او الصراع بين الرغبات والموانع . يقول محمد أسد : (ليوبولد فابس) في هذا المعنى : « تجد الاسلام وحده من بين الاديان يتتيح للانسان ان يتمتع بحياة الدنيا الى أقصى حد من غير تضييع اتجاهه الروحي دققة واحدة ، ليس في الاسلام خطيئة اصلية موروثة وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للانسانية . ان كل مسلم رهين بما كسب . والاسلام ينظر الى الحياة في هدوء واحترام . ولكنه لا يعبدها ، ان النجاح المادي مرغوب فيه ، ولكنه ليس غاية في نفسه ، بل يقود الانسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية في كل ما يعمل ، والغاية من جميع نشاطنا العملي يجب ان تكون خلقية » .

وقد كان هذا التركيز من الاسلام على النفس الانسانية هو ما أهل أشد الامال وكان موضع الاذدراء بتأثير الكنيسة في المصور الوسطى « التي ذهبت في تضليل العقول مذهبًا بعيدًا فزعمت ان الانسان شرير خاطئ ، بالطبع ، وعلمت الانسان ان فيه نزعة من الشيطان . لقد عكست الكنيسة غاية الدين الذي لم يأت إلا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتقفين اعتقاده بمحاضره ومستقبله<sup>(١)</sup> والاسلام في نفس الوقت هو الذي كشف للانسان عن الإجابة عن تساؤله الخطير : لماذا جئنا ، وإلى أين نذهب ، وما هي مهمتنا في الحياة . وأعطى في ذلك منهجاً كاملاً واضحاً لا يستطيع العقل البشري بوسائله المحدودة منها تعددت محاولته ان يجد القدرة على ان يصل اليها .

ثم هو قد حرر الانسان من ذلك الاحساس الذي يستفيض في الفلسفات القديمة بالعراك بين النفس الانسانية وبين القدر . وكشف عن ان هذا العراك شيء وهمي ، وحرر الانسان من الخوف من الموت والمحروم ، وحرر الانسان من الدعوة الى كبت التوازع الجسدية ومقاومة رغائب الجسد والنفس ،

(١) من بحث في الرسالة سنة ١٩٣٧ .

وذلك بالافساد عن الدنيا واعتزاها ، والمعكوف على الزهادة والرهبانية ، وكشف عن ان ذلك معارض لطبيعة الحياة وللفطرة الانسانية ، ودعا الى ممارسة الحياة لا للافساد عنها في إطار الضوابط والحدود الطبيعية . وأعلن ان الفرائز الجنسية ركبت في الانسان . ولا بد من ممارستها بعيداً عن الإفراط والتفريط . فالإفراط يقهر العقل حق يصرف همة الرجل الى الاستمتاع بالنساء والجواري فيحرمه ذلك من ان يكون مقاتلاً في مواجهة خصومه او عاملًا في سبيل سلوك الآخرة . والتفريط يدفع الانسان الى اقتحام الفواحش ، وتحقيق النهاية عن غير طريقها الطبيعي . وبذلك حرر الاسلام مجتمعه من طابع الانهزامية او اليأس او الضعف او التمزق او التشاوؤم الذي نراه في الفكر الاوربي نتيجة تلك الآثار . كما حرر مجتمعه في نفس الوقت من عبادة الشهوة وعبادة الأجسام وعبادة اللذات .

( ٣ )

ان تكريم الاسلام للانسان قد وضع في إطار غاية كبرى هي بناء المجتمع ، وإذا كان الاسلام قد رکز على بناء الفرد فاما استهدف من ذلك بناء مجتمع متكملاً قوامه "البسينات" قوية تمثل كل منها فرداً مؤمناً .

ولقد رسم القرآن للفرد المسلم المؤمن صورة الانسان الممتاز بتربيته وتكوينه على طاعة الله والصلة والصوم والزكاة ، وفي منطلق الأمانة ورعاية العهد وقوة الحلق وسلامة التفكير ولقد انفرد الاسلام بأنه رعى الفرد وكرمه في إطار الجموعة فيما رکز على ضمير الفرد المسلم وحمله منفرداً مسؤولية عمله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » « كل امرىء بما كسب رهين » .

ثم وضع ذلك النموذج في إطار المجتمع : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم من بعض » ولم يذهب الاسلام مذهب من أعطوا الفرد الاهتمام بلا حدود ، كما انه لم يذهب مذهب من أفروا صورة الفرد في المجتمع ، ولما كان أفراد المجتمع هم نتاجه في نفس الوقت ، وكلهم تجمعهم دعوة الله . فان وحدة المهد امر يأتي بلا اجتهادات داخلية في المجتمع ، ويتم الترابط بين المؤمنين وينصرفون الى اعمالهم تلقائياً بتصريف رجل واحد « إنما المؤمنون

الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » .

●

ويصور العامری<sup>(۱)</sup> هذا المفهوم فيقول : يعطي الاسلام أهمية كبيرة للانسان كفرد في المجتمع ، ويؤكّد حاجته الى التقدم المستمر . وبذلك يحرر طاقاته الخلاقة كلها (فكيرية وعقلية وعملية) لتنطلق في خدمة كإنسان ، وفي خدمة المجتمع ككل بدون السماح لعائق ما ان يقف في وجهها ولا سينا العائق الطبيعي الذي يحكم على الانسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التي يلتمي اليها ، لا على أساس موهبته وقدراته ، ومدى ما يمكن ان يقدم للمجتمع من خدمات .

« وهنا يتميز الاسلام عن الجhosية والازدادستية ، فقد كان ملوك الفرس بتأثير دينهم يقسمون الناس الى طبقات ويتحكمون عليهم بالأنساب لا بالأعمال ويحرمون عليهم الترقى ، من طبقة الى طبقة ، وبذلك حبروا على كثير من الموابح والطاقات وعاقوها عن ان تعمل وتبتدع ، لأنهم جردوها من حواجز العلم والابداع » .

واعتبر الاسلام ان الشرف والضعة امران نسيبيان . وان كل افراد المجتمع الاسلامي تستحق الطاعة والاحترام بقدر ما تحمل من المسؤولية على أساس هدف واضح هو : إقامة مجتمع متوازن تسوده الحبة والولاء ، وتحرم فيه أسباب القطيعة والمداء .

لذلك يجب الاسلام الحافظة على ولاء النسب – ولاء العقد – ولاء الدين . كما حمى المجتمع الضعفاء من جهة التركيب (النساء) ومن جهة السن (البيتامي)

---

(۱) عن ملخص لسراية من كتاب (الاعلام بنائب الاسلام) للدكتور عبد القادر محمود .

ومن جهة المعاش (الفقراء) ومن جهة الرقبة (العيال) ومن جهة الوطن (الغرباء وأبناء السبيل) وتحت الاسلام على رعايتهم ومعاملتهم كأعضاء في مجتمع متكملاً .

•

ولا ريب ان من اعظم معطيات الاسلام قاعدة ان المجتمع الاسلامي يكفل أبناءه من العجزة والضياف والفقراء تكافلاً متكملاً، وانه لا يطالب كما طالب مجتمعات أخرى باستئصال الضعفاء والمرضى وبناء السوبرمان .

### (٣)

قدم الاسلام للبشرية مجموعة من القيم : الحق ، العدل ، الرحمة ، العفو ، التقوى ، البر ، الاحسان ، الصدق ، الصبر ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التكافل . وأعطى الانسان حقوقاً متعددة منها : الحسناية الحرة ، المساواة ، العمل ، الاخاء ، العلم ، الملكية .

روض الاسلام حدوداً : الربا ، الزنا ، قتل النفس ، شرب الخمر ، السرقة . ووضع الاسلام نظماً ثابتة هي : نظام الأسرة ، نظام الميراث ، نظام الجرائم ، نظام السلم وال الحرب ، نظام البيع .

وقد وضع كل هذه النظم في إطار الاخلاق ، فالاسلام عقيدة وشريعة وأخلاق هي متكاملة لا تنفصل ، متوافقة لا تتجزأ ، ومن أجل ذلك جعل المجتمع الاسلامي بثابة عقد مشاركة وتضامن بين أفراده ، الأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقرااء ، وقد حث على رعايتهم جميعاً . وبذلك عارض نظريات الجنس الممتاز ، وقتل المرضى والضعفاء . ولعل أروع صورة لوصف علاقة المجتمع بالفرد والفرد بالمجتمع ، تلك الصورة التي رسّمها النبي : جماعة ركبوا سفينـة في عرض البحر ، ثم عمـد واحد من أهل الطابق الأدنـى إلى خرقـها لإدخـال الماء ، فـان تـركوه يـسبـحـونـ بالـسـفـينـةـ غـرـقـواـ ، وـان وـقـفـواـ فيـ وجـهـ آـنـقـذـواـ السـفـينـةـ وـنجـواـ جـمـيعـاـ .

ويقدم الاسلام فكرة التقوى في مقابل فكرة السعادة كما يقدم فكرة التضحية في مقابل فكرة الرفاهية .

ومهما كان في الحياة = العمل وهدف العمل = عمارة الأرض، وحدود العمل تقوى الله على أن يكون عمل المستخلف لا المالك ، والعمل كلها لحساب الله تعالى أعطى الاسلام البشرية فكرة الحق .

(٤)

و فكرة الحق قاعدة أساسية جاء بها الاسلام في مواجهة الموى والجمود والتقليل ومواريث الآباء والأجداد الباطلة . وفي مواجهة الرأي القائم على الظن . فالاسلام يطالب بالدليل والبرهان ويدعو الى النقد والتمحيص . وبذلك كانت دعوة الاسلام الى تحرير الانسان من كل عقدة سوى التوحيد والارتفاع فوق الباطل او التوسل الى الاشخاص والاصنام والآوثان لما في ذلك من الشرك والإهانة للإنسانية .

•

وأعطى<sup>(١)</sup> الاسلام البشرية حق الحياة : فالله هو واهب الحياة للانسان فمن حق كل فرد أن يعيش ويستمتع بحياته بعد خطر يهدده ، ومن هنا فان إنهاء الحياة يجب ألا يكون إلا الله « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » .

وقد زيف الاسلام ما كان يحرر من محاولات لإنهاء الحياة قبل الاسلام بالانتحار ، او قتل الأبناء خشية الفقر ، او وأد البنات خوفاً من العار .

---

(١) رابع مقال في الانسان - للدكتورة بنت الشاطئ .

وقد أكد الاسلام حق الانسان في الحياة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، وقبل ان يقول روسو وجون لوك وهوين وكوندرسيه وجيفرسون ان الناس خلقوا متساوين ، بل ان كل ما قاله هؤلاء مستمد من القرآن أساساً . كما أعطى<sup>(١)</sup> الاسلام البشرية حق الحرية : فكان الاسلام دين الحرية وليس دين الجبر . وحيث لا تناقض بين القول بحرية الانسان في الاختيار والعقل ، وبين القدرة الإلهية .

والحرية هي حريات : حرية الاعتقاد ، الحرية العلمية ، الحرية السياسية ، الحرية المدنية ، الحرية الاجتماعية ، كما أعطاها حق المساواة : والمساواة في الاسلام مبدأ أساسى وحق طبيعى للانسان . فالله هو الذي خلق الناس جميعاً ، ومن ثم فهم جميعاً سواء بالنسبة لله ، لا فرق بين هذا وذاك الا بالعمل الصالح والتقوى . « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » [ ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد ، كلکم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمکم عند الله اتقاكم ] ، ليس لمري على عجمي او عجمي على عربي ولا لأحرار على أبيض ولا لأبيض على أحمر من فضل إلا بالتقوى ] وقال إقبال : لقد حطم الاسلام أصنام الدم واللون والجنس .

ويقول لويس ماسينون : ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة ، وليس في المجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماض كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة والحقوق والواجبات .

ويقول رين انج : استطاع الاسلام التغلب على التعصب الجنسي بدرجة لم يبلغها أي دين آخر او عقيدة أخرى .

---

(١) نفس المصدر .

وبقول توبيني : ان إخناد جذوة التغريب الجنسي والتغيرة المنصرية بين المسلمين هي من أهم منجزات الاسلام الحضارية .



وأهدي الاسلام البشرية : العدل ، فالناس جميعاً أمام الله والقانون سواء ، لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وغني وفقير ، قريب او عدو « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » « ولا يجر منكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ويبدو ذلك واضحاً في عبارة النبي ( انا هلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد . وائم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ) .

والشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه .

( ٥ )

من أعظم معطيات الاسلام في مقارنات الأديان : الاخلاق من حيث هي عملية لا نظرية . ومن حيث أنها قاسم مشتركة على كل القيم والتصرفات ، وهي بفهم الاسلام متممة لمحاسن الاخلاق التي عرفتها البشرية من قبل ( انا بعشت لأنتم محاسن الاخلاق ) أخرجه البيهقي في السنن .

ومن هنا كان منهج الأخلاق في الاسلام مختلفاً عن منهج اليونان وعن الاخلاق المسيحية . فالاسلام يقرر ثبات الاخلاق وارتباطها بالفرد . ويجعل من الدين والاخلاق حقائقين لا تنفصلان ، فليس هناك انفصال بين النظرية والسلوك العملي ، ولا يمكن ان تتحرر الاخلاق إلا في إطار عقائدي أصيل لا تنفصل عنه ، وقد رفض الاسلام فكرة القول بأن الانسان ابن غرائزه ، وقال انه ابن عقيدته . فقد بدل الاسلام الناس وطبائعها تغييرآ جذریآ ، وأثبتت قدرة المعيادة الصحيحة على تغيير النفوس . وفي الاسلام تتبع الاخلاق من عنصر ثابت هو الكيان الانساني ذاته وليس من متغيرات المجتمع او تطورات الحضارات .

والانسان في الاسلام منفرد متميز عن الحيوان ، ومن ثم فله مقاييسه المختلفة .



وطابع الثبات في الشريعة والأخلاق أساس مكين لقدرة الإنسان على مواجهة التغيرات ، والقاعدة ان قوانين الله لا يمكن تغييرها ، فهي ليست ناتجة من ظروف المناخ ولا من البيئة الاقتصادية . ولا تختلف من زمن إلى زمن ، او من مكان إلى مكان «فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً».

ويرجع هذا إلى طبيعة الإنسان التي لا تتغير . فالحوافز الإنسانية لم تزل هي نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحياة البشرية ، وكذلك الغرائز التي هي محور عمل الإنسان لم تزل باقية كما هي . وكذلك صفات الإيثار والشرف والصدق والشجاعة لا تزال .



ويختلف الإسلام في هذا عن الأديان الأخلاقية (البوذية والبرهمية) هذه الأديان التي قامت على الضمير والأخلاق وعلى فعل الخير . هذه الأديان<sup>(١)</sup> «لم تحل مشكلة الكون الكبير ولم تشبع الجانب الأعلى من النفوس البشرية . وهو جانب التطلع إلى السر الأكبر الذي يخبئه هذا الكون ، وقد ترك بعضها الناس يعكفون على عبادة الأوثان والأصنام والحيشات ، ويهيمون في عبادة القوى المادية والروحية ، ويعيشون في ضياع بين الرموز والغموض وتهويمات الخيال وشطحات الأوهام ، ويدمرون بذلك عقوتهم وإنسانياتهم أمام معبداتهم من الحجارة والخشب والبقر والثعابين والجملان» .

أما الإسلام فقد ربط العقيدة بالأخلاق ، وجعل حركة الأخلاق في إطار العقيدة . وقد عرف<sup>(٢)</sup> الإسلام ( وهو من أديان العبادات والشعارات والافتراض المرسومة ) . عرف الضعف البشري في الأكثريّة الساحقة من

---

(١) عن دراسة للأستاذ محمد عبد النعم خلاف .

(٢) نفس المصدر .

الناس ، فلم يجعل مناطق الخلاص من تبعية الدين في نقاوة الخلق او استقامة السلوك ، بل جعل مناطق الإقرار بالخلق الواحد والاعتراف بمحكمته في الكون وبشرعيته في الحياة ؛ لقد أقر الإسلام العقيدة ، ولم يفتقر أي انحراف عنها ، لأنها الأساس في الدين ، وجعل كفارات كثيرة للسقوط في الذنوب والآلام . وقرر أن الحسناوات يذهبن السيميات ، وفتح باب التوبة بالنندم على الذنب . وجعل مناطق العمل والجزاء هو الإقرار والاعتراف بالخلق وتقديره بالربوبية وبلقائه يوم الجزاء . وأخلاق الإسلام : أخلاق تقوى لا أخلاق سعادة . والتقوى من الوقاية : وهي بحسب المصطلح الشرعي لها جعل النفس في وقاية مما يخاف ، وشرعها امتحان الأوامر واجتناب النواهي .

ولا ريب ان الأخلاق فطرة الانسان التي صاغه الله سبحانه وتعالى عليها « والانسان هو الكائن الوحيد الذي يتزعزع بمحض إرادته الى مواجهة ميله ورغباته ، وضبط دوافعه وزواجته والتحكم في أهوائه ، والانصراف في كثير من الحالات عما يشتهي . والنفور من واقعه والتطلل الى ما يذهبني أن يكون في ظل المثل الأعلى الذي يميز الانسان عن سائر الكائنات <sup>(١)</sup> » .

●

والسعادة في مفهوم الاسلام تختلف عنها في مفاهيم الاديان ، ذلك ان الاسلام جعل السعادة في الدنيا والآخرة مما لم يقتصرها على الحياة الأخرى وحدها كما ترى المسيحية .

« الاسلام مع حرصه على الدعوة للآخرة وتزيينها للناس لم يهمل أمر الدنيا ، ولم يهمل النص على ضرورة التمتع بالمباح من مباهجها وطبيعتها ، ولم

(١) من بحث لتوسيع الطويل عن المثل الأعلى .

يقل ان السعادة تقتضي محاربة الجسم واستئصال شهواته كما زعم المترمتون من الكلبية والرواقيين . ولم يجعل السعادة تمنعه بذلك الحياة وتحقيق المسايق كذهب أمثال الفورينائية قديماً ودعاة المنفعة حديثاً . وإنما أقر الاسلام الجماع بين الدنيا والآخرة فاحترم مطالب الروح ، وقدر مطالب الجسم اذا لم تجاوز حد الاعتدال . « وابتغ فيها آتاك الله الدار الآخرة ولا تننس نصيبك من الدنيا » .

ويروي الدكتور توفيق الطويل الصراع الطويل بين الفلاسفة والأديان حول السعادة . فريق يتصورها في حياة يسيطر فيها العقل على نداء الحس ، ويغلو في نزعته ، حتى يرى ان كمال السعادة انا يكون بإثارة حرب ضروس بين العقل والجسم تنتهي باستئصال الميول . ووأد الرغبات وقمع الشهوات ومحاربة المواطف والمشاعر والوحيدات حق يبذلو الانسان وكأنه روح بغير جسم او عقل بغير مادة ، وتنتهي له حياة تقوم على الزهد والتقصيف والحرمان ( ومن هؤلاء الكلبية والرواقية و كانط ) . وفريق آخر يصور السعادة في حياة تشرق بالملائكة والملائكة ويتحقق مصالح الفرد كأنه جسم من غير روح ، ويحاجر بأن نداء الجسم هو صوت الطبيعة ، فمن الصلال أن يستحب الانسان من رغبته ( ارسطيوس ) ، ومنهم من سخر بالمثل العليا التي دعا اليها المثاليون من الاخلاقين ، وجاهر بأن الغيرية أنانية مقنعة ، وان الأخلاق تستهدف اسعاد المجتمع ، ولا يستقيم هذا بغير الاثر . وتوكييد الذات وإغفال مزاعم المثاليين بما سموه بالواجب ( بنظام ثم فرويد وسارتر ) وهي بهذا تبدو محاولة جسم من غير روح او روح من غير جسم : حياة روحية خالصة او مادية خالصة . ولقد جاء الاسلام يؤكد خطأ الاتجاهين : لأن الطبيعة البشرية لا تبدأ من الانحراف الذي يعد مرضًا في حين تبدو كلاماً يجمع بين العقل والجسم في سلطان واحد ، بحيث لا يقضى سلطان العقل على نداء الجسم ، ولا يغلب نداء الجسم على سلطان العقل . وان محاربة الجسم وقمع الرغبات واستئصال

الميول ينتهي في المعاذه بعقد نفسية واضطرابات عصبية .

فالأدنى الى الصواب ان ينظم الانسان مطالب جسمه بهدایة العقل دون ان يعمل على قتل جانبه الحسي الذي يكون جزءاً من طبيعته .

ولذلك دعا الاسلام الى التكامل بين الروح والمادة والعقل والجسم ، ودعا الى المعاذه في سبيل التمسك بمبادئ الإيمان والأخلاق وتحقيق رغبات النفس في نفس الوقت في حدود الاعتدال وفي إطار الضوابط التي رسماها الدين .

وقد اعتبر الاسلام إعلام أحد الجانبيين نقصاً وخطراً . وقد رفض الإعلائين : إعلام اللذات والشهوات ، وإعلام الرهبانية والزهادة . ودعا الى جامع بينهما كريم معتدل .

( ٦ )

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية مستمدّة من الفطرة ملتقية مع العقل والطبيعة البشرية بما حرصت عليه من التوازن في الحقوق بين الفرد والجماعة، و موضوعية الأحكام والتجزء من المصلحة والعاطفة والهوى والقرابة وأصواتها على فكرة العدل والحق المطلق ، مع مرورتها بالنسبة للأزمان والبيئات المتغيرة .

وقد جمع تشريع الإسلام بين مصالح الدنيا والآخرة ، واعتبر ذلك أصلًا من أصول الإسلام كاجمٍ بين الدين والدولة، حيث لا عزلة بين الدين والدنيا. وتلك قاعدة من أرسنخ قواعد الإسلام ومقوم من أعظم مقوماته، وعامل من عوامل التمييز بينه وبين الأديان الأخرى التي قامت على العقيدة وحدها. أو الأخلاق وحدها .

ولما كان الإسلام قد جاء بشريعة ( قوانين وأحكام تنظم شؤون الحياة ) فقد كان طبيعياً أن يعنى بإقامة دولة وحكومة تقوم على تنفيذ هذه الشريعة « أفحكم الجahلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . ومن شأن وجود الشريعة أن تكون هناك قوة تنفذها ، وفي القرآن آيات واضحة الدلالة ان الإسلام دولة الى جانب كونه عقيدة او ديناً « إنا أنزلنا إليك

الكتاب بالحق للحكم بين الناس بما أراك الله » « فلاد وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » .

وقد أقام الرسول دولة في المدينة استوفت شرائط الدولة وأركانها <sup>(١)</sup> .  
وقد وضع الرسول الخطوط العريضة لدولة إسلامية كاملة ( أنظمة إدارية وقانونية وعسكرية ) .

وقد وضع الإسلام مبادئ عامة تتعلق بنظم الحكم هي : الشورى والمساواة والحرية والعدالة . وقد أقام الإسلام الحياة في مجتمعه على أساس طلب الغلب والشوكة .

يقول الإمام محمد عبده : إن الناظر في أصول هذه الديانة ( الإسلام ) ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكمًا لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول أمة حربية في العالم وإن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات الحربية وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيها يلزمها من الفنون ( كالطبيعة والكيمياء والهندسة ) « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

أما الديانة المسيحية فقد بنيت على المسالم والمايسرة في كل شيء، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ووعزت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها . وترك أموال السلاطين للسلطانين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية . ومن وصايا الإنجيل من ضربك على خدك ...

وان الدين المسيحي جاء المالك الأوربية مسالماً لعوائدهم ومذاهب عقولهم .

---

(١) دكتور عبد الحميد متولي : أزمة الفكر الإسلامي .

وداخليهم عن طريق الإنقاذ ومسارقة الخواطر ، لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ولم يسلبهم ما ورثوه من أسلافهم<sup>(١)</sup> .

ومن أجل هذا المفهوم كان الإسلام دينًا ودولة ومنهج حياة ، ولكن الإسلام حرص على أن لا تكون له مؤسسة تتحدد باسمه ، أو وصاية ، أو وكالة من رجل دين أو من غيره . فلا يوجد في الإسلام ما يماثل سلطان الكنيسة والبابوية في المسيحية . فالإسلام لا كهانة ولا وساطة فيه بين الخلق والخالق وليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ، فإن لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف ، وإنما عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن المسلمون يسمون حكم الرسول ملكاً ، وإنما يسمونه إماماً . والخلافة عرفوها بأنها نيابة عن الرسول في حراسة الدين وسياسة الدنيا . ويدرك التاريخ إلى أي حد بلغ سلطان الاستبداد بالبابوات وغيرهم من رجال الكنيسة . فقد بلغ البابوات من القوة والسلطان بحيث لم يكن هناك إلى جانبهم سلطة أخرى تبلغ من القوة حداً يستطيع معه أن يوقف سلطة البابوات عند حدتها .

يقول فيشر في كتابه « تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ج ١) » : إن رجال الدين لم يكن لهم فلسفة في الدولة وأصول الحكم ، بحيث تحدث في السياسة الرومانية أو المجتمع الروماني شيئاً من التعديل . « ذلك انهم أيقنوا ان الدنيا متاع الفروق والشروع وتعلموا ان الانسان طريد جنة الخلد . وحق عليه العذاب المقيم ، وتعلموا ان هذه الدنيا لا تلبث ان تزول . واذا كان

(١) الاسلام والنصرانية : للشيخ محمد عبده .

(٢) دكتور عبد الحميد متولي : أزمة الفكر الاسلامي .

الأمر كذلك ، فما الذي يحمل المسيحي على إلقاء الرق أو الحرب أو الربا او استعمال القوة العاشمة التي ساعدت الدولة الرومانية على النهوض ما دام كل ذلك مقتضياً عليه بالزوال » .

ويرجع ذلك الى ان المسيحية قد فصلت بين الدين والدولة . ولذلك فانها عجزت عن ان تعمل على شيء من الاصلاح في المجتمع الروماني ، وهذا هو مصدر الانشطارية العامة في الفكر الغربي .

أما الاسلام فلا يوجد فيه آية او كلمة تدل دلالة تنبه على الفصل فيما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، ولا ما بين الدين والدولة ، والاسلام يعكس ذلك . قد شرع مبدأ القصاص كما شرع مبدأ الجهاد<sup>(١)</sup> .

---

(١) عبد الحميد متولي : جملة القانون والاقتصاد سنة ١٩٦٤ .

(٧)

كذلك أقام الإسلام المجتمع على أساس التجارة والإنفاق بدلًا من الربا والاكتناز ، وجعل التقوى أساس أخلاقية التجارة والتعامل وضع نظامي الزكاة والميراث لتصفيته تضخيمات الثروة وللحيلولة دون قيام دولة من الاغنياء وبذلك حفظ المجتمع من أخطار الاحتكار والمضاربة ، وحفظ التوازن الاقتصادي . كما دعا إلى التضامن الاجتماعي ، وجعل الزكاة مؤسسة للتسكالف ، وأقر الملكية الخاصة وحها ، وحرم الربا والاحتكار ، وأقام الحرية الاقتصادية ذات الضوابط الأخلاقية ، وجعل العمل هو أساس الثروة والغنى ، حيث لا يسمح الإسلام بالتفاوت الكبير في الثروة والدخول ، وحيث لا يقر الإسلام الطبقية .

وقد جمع منهج الاقتصاد الإسلامي بين المصلحتين الخاصة وال العامة ، وجعل مناطق الحركة حكمًا هو المصلحة ووقف بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، وقدم المصلحة العامة على مصلحة الفرد ، وجمع بين المصالح المادية وال حاجات الروحية ، وخاصة الإحساس بالله تعالى ومراقبته في كل تصرف . ودعا إلى الارتباط بين ما هو مادي وما هو روحي ، وجمع بين عناصر الثبات والتطور .

ومن هنا كان المذهب الاقتصادي الإسلامي عاماً شاملاً ، لا يرتبط بمرحلة

تاريجية معينة كالمذاهب الوصفية ، ولا يقتصر على صورة تطبيقية معينة ، وعالج المنهج الإسلامي للاقتصاد مشكلة الفقر وقرر بأن ليس للتاريخ مفتاح واحد هو العامل المادي ، بل له عوامل كثيرة . ولكن الإسلام يعني بالعامل المادي ولا يهجره ، وجعل الإسلام أساس العبادة تأمين الناس في حياتهم المعيشية .

وقرر الإسلام أن الإنسان من حيث الأستان مستخلف في الأرض ، وأن العمل والانتاج عبادة وإن المال مال الله ، والبشر مستخلفون فيه ، ولكل حد الكفاية أولاً . ثم لكل تبعاً لعمله ، والاسلام لا يسمح بالغنى إلا بعد كفالة حد الكفاية ، كما لا يسمح بالتفاوت الفاحش في الثروة أو الترف<sup>(١)</sup> . وإن الزكاة بحسبانها الضمان الاجتماعي هي الركن الثاني في العقيدة بعد الصلاة . وإن في المال حق آخر سوى الزكاة . وفي حديث الترمذى : إن في المال حقاً سوى الزكاة . فالزكاة هي الحد الأدنى في المال .

ويشجب الإسلام جميع الأرباح التي تجمم عن إلحاد الفرر بالمجتمع كالسرقة والقهار وبيع المخمور ، والأمور التي تحصل من الربا والحظ بلا تعب ولا سعي تعد محرمة . ولا يجوز القيام بها او ممارستها باسم الحرية الاقتصادية ، لأن هذه الحرية في الإسلام ليست مطلقة بل إنها موجهة في حدود مصلحة الإنسان والمجتمع في آن واحد ، هذا إلى جانب تحريم الاستغلال والاحتكار والاكتناز في الإسلام .

---

(١) ملخص عن بحث الدكتور الفنجيري ( مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي ) .

## ( ٨ )

ان تحريم الربا قاعدة أساسية صلبة في الإسلام . وليس هناك من منطلق بالتفسيير ، او التأويل يستطيع ان يقول بغير التحريم ، ولا عبرة مطلقاً بما يقال من أن تحريم الربا يحول دون التصنيع او ازدهار الصناعة . فان هذه الأمور كلها يمكن ان تتم دون المساس بهذا الركن الركيقين .

ولا ريب ان الربا نظام معارض لرسالات السباء ، وهو بالطبع معارض لسلام البشرية وتقدمها . وقد حملت لواءه اليهودية التلمودية ، وسيطرت به على المال العام ومصارفه . وما زال الربا هو العامل الخطير في استنزاف ثروات المسلمين باسم القروض والفوائد .

وقد جاء الاسلام ليحارب طغيان الربا في معركة مقدسة « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذرروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فاذدوا بحرب من الله ورسوله فان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقو خيراً لكم إن كنتم تعلمون » .

ولقد أقر بأثر الربا الخطير في المجتمعات الغربية غير قليل من الباحثين ، بل ان لورديكبس وصل الى حد ان نسب إليه كل المخاطر فقال : من الممكن أن تنسب جميع الآفات الاجتماعية الى الربا .

( ٩ )

من أعظم معطيات الاسلام . عقيدة القدر الاسلامية ، هذه العقيدة التي جعلت المسلمين يتقدمون ويغلبون على الخاطر مؤمنين بأنه « لن يصيّبنا الا ما كتب الله لنا » .

« فقد آمن المسلمون<sup>(١)</sup> بأن كل شيء يخلقه الله ويعمله ، ولكن الله لم يضطر أحداً إلى الخير اضطراراً . ولم يجبره على الشر إجباراً ، وإنما أعطاه العقل المميز ودلتة على الطريقيين المختلفين ، وانه قدر الأرزاق بلا زيادة ولا نقصان ، وحدد الآجال فلا تقديم ولا تأخير . فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تطاله بقوتك . فإذا جاءك أجلك فلا تستقدم لحظة ولا تتأخر ، فمضوا لا يهابون الموت في سبيل الله ولا يخافونه لأنهم آمنوا بإيماناً باتاً بأن المرء ليس أدنى إلى الموت ، وهو في غمار المعركة أحراء منه في كسر بيته وبين أهله » .

---

(١) من خطب قدساد على الطنطاوي .

(١٠)

وقد أقام الاسلام التوازن بين الروح والمادة : « وأعطي<sup>(١)</sup> الاسلام أهمية كبيرة للقوة المادية التي أهملتها بعض الاديان . او قللت من شأنها ، وطالب بضرورة توفيرها لتقديم المجتمع وحرفيته ، وكذلك يعطي الاسلام أهمية كبيرة للقيم الروحية .

وإذا كانت اليهودية قد غالبت في تقدير القوة المادية وغالبت المسيحية في الناحية الروحية ، فان الاسلام هو دين التوازن الحق بين الناحيتين على أساس ان كل منها عنصر أساسي في الطبيعة البشرية ، وأن كل منها لا غنى عنه لتقديم الانسان .

والأديان التي تحرم على أهلها اقتناء المال ، وتحثهم على اعتزال الناس تسليمهم في الواقع وسائل القوة وتعوقهم عن مكارم الأخلاق : القوة مادية او روحية ليست شرآ او خيراً في ذاتها ، بل تعتمد على طريقة استعمال الإنسان لها وتأثيرها يتتجدد بالهدف الذي تستخدم له لإسعاد الناس وتقديمهم او لاستعباد الناس وإشقادهم .

●

---

(١) العامری : الإعلام بنسبت الإسلام .

وميزة الإسلام أنه ليس فكره تجريدية . ولكنه منهج إصلاح جامع بين الروح والمادة حيث «لا يتحقق الإسلام النفس الإنسانية ، ولا يترضي الجوانب الوضيعة فيها ، وإنما يحارب أن يجعل قوتها على احتمال الألم والتضحيه بوقوفه على الغايات الكبيرة والمطالب العالية » .

وقد فصلت بعض الأديان بين الروح والمادة . وغالبت بعضها في المادة ، وغالب الأخرى في الجانب الروحي . « واليهودية بلفت فيها الذروة في الاتجاه المادي ، واليسوعية محاولة مباشرة إلى حل مشكلة الحياة عن طريق إنكار الحياة ، وبودا على ما في نظرياته الأخلاقية من سمو ونبل يرينا أن الوجود شقاء ، وأن نشدان الخلاص إنما يكون عن طريق ( الزاغانا ) حيث تُخْمَد الرغبات وتتفق المطالب وتموت الأهواء » ، هذه النظرية التشاوئية التي تغري بنبذ الحياة والاعراض العام عن الدنيا تميز الكثير من الأديان القديمة » .



ومن أهم مآثر الإسلام التي تميزه عن سائر النظم : « التوفيق<sup>(١)</sup> التام بين الناحية الأخلاقية والناحية المادية من الحياة الإنسانية » .

يقول العلامة محمد أسد : « وهذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الإسلام في ابن قوته أينما حل ، لقد جاء الإسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتكار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة ، هذه الخاصة الظاهرة في الإسلام تحمل الحقيقة الدالة على أن نبينا كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية في كلا اتجاهيها : في المظهر الروحي والمظهر المادي . ونحن نجد الإسلام أسمى من سائر الأنظمة الحديثة . لأنه يشمل الحياة بأسرها ، انه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة ، والنفس والجسد والفرد والمجتمع .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق .

« ونجد الاسلام وحده من بين سائر الأديان يتيح للإنسان ان يتمتع بحياته الدنيا الى أقصى حد من غير تضييع اتجاهه الروحي دققة واحدة . ليس في الإسلام خطية أصلية موروثة ، وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للإنسانية . ان كل مسلم رهين بما كسب ، والاسلام ينظر الى الحياة بهدوء واحترام ، ولكنه لا يعيدها . ان النجاح المادي مرغوب فيه ، ولكنه ليس غاية في ذاته ، بل يقود الإنسان نحو الشعور بالتبعية الادبية في كل ما يعمل والغاية من جميع نشاطنا العملي يجب ان يكون خلقيا » .

## الفصل الخامس

### الاسلام والأديان

أطلق الاسلام العقل الانساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة ، من ذوي الاديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بالله الواحد الأحد ، وبحياة وراء هذه الحياة .

فقد حرر الاسلام البشرية من عبادة قوى الطبيعة وعبادة التعدد وعباده النار والحيوانات المقدسة . وأعلن البيث وأجزاء ، وفرق بين الله والطبيعة ، ورفض سقوط التكليف ونظريات الفيض والإشراق والاتحاد والخلول ، وأحل صيد الحيوان وما أحله الله من لحم الطير . كما نقل البشرية من الوحشية والهمجية والعبودية والظلم الاجتماعي والاستعلاء بالعنصر والعرق الى كرامة الانسان والتفاضل بالقوى والعمل . وأنبت وحدة الجنس البشري ، وان الناس لآدم وان آدم من تراب .

وأعطى البشرية المنهج الاجتماعي القائم على العدل والكرامة والرحمة ، وأخلاقية الحياة وتكامل العبادة والشريعة في إطار الأخلاق .

وقد رفض الاسلام الخرافات الوثنية والاساطير وتعدد الالهة وطابع الإباحة كا ححر الفكر الاوري من وثنية الإغريق .

كما أنكر الاسلام التناصح . وقرر ان الروح كائن مستقل يجسم فهو يحاسب على ما ارتكب هذا الجسم ويتم الحساب بعد ان يعترف الإنسان بأخطائه .



أقام الاسلام الاخاء البشري والوحدة الانسانية : ودعا الى المساواة بين الناس على اختلاف أسلتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات . وبذلك محا العصبية البغيضة ، وقضى على النعرة العرقية ووسع الاسلام دائرة الجنسية بشرعيته الى التساوي بين الأمم والملل اذا قبلوا حكمها . وقد كانت جنسية المصريين مصر ، واليونانيين آثينا ، والرومانيين روما . ودعا الى الترابط بين واجب الانسان تجاه الله وواجبه نحو أخيه الانسان .



خلص الاسلام المجتمعات الفارسية والفرعونية والوثنية والرومانية والهنديه من رجال الدين حجروا على العقول ، واستعبدوا الفكر ، ومن الملوك الذين قسموا المجتمعات الى طبقات ووضعوا أنفسهم في القمة .



قرر الإسلام أحکاماً ثابتة وركائز عامة هي بثابة قوانين دعم الشخصية الإنسانية وحياتها ووضع الضوابط التي تحول دون انحرافها . وخاصة بالنسبة إلى الربا والزنا والخمر والوثنية . وسمح فيها عدا ذلك بالاجتهاد والتطور ومحاراة العصور والبيئات .



( ٣ )

قد أجرى الدكتور حسين نصر هذه المقارنة بين الاسلام والأديان قال : « ان أقدم الأديان السامية هو الدين اليهودي . وأحدثها الاسلام » الموسوية شريعة والمعيسوية طريقة . والاسلام جمع الشريعة والطريقة معاً ، ولذلك يسمى الاسلام الدين الحنيف : جمع بين الظاهر والباطن . ومحا ذلك التحديد الذي بدأ مع ظهور الدين اليهودي والمسيحي ، وأعطى الدين من جديد شمولاً ، وكشف الحقيقة التي نزلت منذ أول لحظات الخلق الأولى وهي ( حقيقة التوحيد ) . أصل كل المذاهب والأديان الحقيقة وأساسها في جميع العصور الخالية .

والاسلام ظل فيه التعادل بين الظاهرة والباطنية بخلاف المسيحية التي فقدت التوازن ، وتذكرت الشريعة والطريقة في الاسلام أن تحافظا على تقاربهما . ولم تستطع أية قوة القضاء على هذا التعادل الذي وجد منذ مطلع ظهور الاسلام والذي هو رمز بقائه ، وقد نبه جميع علماء المسلمين على هذه الملاحظة وأقرروا ان الطريق الوحيد الى الحقيقة هو حفظ التعادل بين الشريعة والطريقة ، والظاهر والباطن .

«وبذلك اكتسب الاسلام قدرة وشيوعاً لا مثيل لها وحاز شخصية عالمية عرف بها بين الأديان فكان الوحي الحمدي الذي هو آخر هذا العهد

التاريخي للبشر - جامعاً للبيانات السابقة من جهة رجوعها الى أصل الوحي ومبنيه من جهة أخرى، ففي الأديان الهندية الحقيقة الباطنية الخفية ومكتومة عن أنظار العامة . ومن أركان الدين الهندي (البرهني) أن ينقسم المجتمع الى أصناف او صفات ، وأحكام الدين الهندي تعم بمحابتها المختلفة كل الطبقات، ولكن البراهما وحدهم توصلا الى معرفة كل الحقائق والرموز » .



( ٣ )

وَقَعَتِ الْيَهُودِيَّةِ تَحْتَ سُلْطَانِ الْفَكْرِ الْبَابِلِيِّ الْقَدِيمِ . وَوَقَعَتِ الْمُسِيْحِيَّةِ  
تَحْتَ سُلْطَانِ الْفَكْرِ الْإِغْرِيقِيِّ (مَثَلِيَّةِ أَفْلَاطُونِ وَمَنْطِقِ أَرْسَطُوِ) .

أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُشَكِّلَ مِنْهُجَهُ كَامِلًا مِنَ الْقُرْآنِ قَبْلَ الاتِّصَالِ  
بِالْفَلَسْفَاتِ وَالنَّحْلِ الْمُخْتَلِفَةِ .

●

وَيَقُولُ دَرَابِرُ : يُخْتَلِفُ الْإِسْلَامُ عَنِ النَّصْرَانِيَّةِ إِذَا أَنَّهُ (أَيِّ الْإِسْلَامِ) قَضَى  
عَلَى مَنَافِسَةِ الْوَثْنِيَّةِ قَضَاءً قَاتِلًا . وَنَشَرَ عَقَائِدَ خَالِقِهِ ، أَمَّا الْمُسِيْحِيَّةِ فَقَدْ  
دَخَلَتْ عَلَى مَجَمِعِ مُشَكَّلِ فَعْلَا ، وَشَارَكَتْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَمَكَّنَ مِنْ قَطْعِ  
دَابِرِ الْوَثْنِيَّةِ . وَكَانَ البعْضُ يَرَى أَنَّ الْدِيَانَةِ الْجَدِيدَةِ سَتَزَدَهِرُ إِذَا حَطَمَتْ ،  
وَلَصَقَتْ بِالْعَقَائِدِ الْوَثْنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ . وَكَانَ نَتْيَاجُهُ ذَلِكَ أَنَّ اخْتَلَطَتْ مِبَادِئُهَا ،  
وَنَشَأَ مِنْ ذَلِكَ دِينٌ جَدِيدٌ تَنْبَجِلُ فِيهِ النَّصْرَانِيَّةُ وَالْوَثْنِيَّةُ سَوَاءً بَسْوَاءً .

●

وَكَذَلِكَ قَاوَمَتِ الْمُسِيْحِيَّةِ هَجُومَ الْفَلَسْفَةِ الْفَنُوُصِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مَقاوِمةً

عنيفة<sup>(١)</sup> ولكن الفنوص استطاع أن يفزوها غزواً شديداً . فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين منهم القديس كليانس والقديس أوريجان . وللفنوصية تأثير على فيلسوف المسيحية او لاهوتها القديس أوغسطينوس . أما الإسلام فقد قابل الفنوص في فتوحاته وأغلق أبوابها .



---

(١) من بحث للدكتور علي سامي النشار .

( ٤ )

يقول العلامة صلاح الدين السنجوقى في المقارنة بين الأديان : اليهودية تدعى إلى توحيد ينطلق من فكرة الله الواحد الأحد ، ولكنها اخترفت فعبدت الإله : إله إسرائيل .

والنصرانية منذ كانت دين التوحيد قبل أن تعدد دين التثليث . وجاء الإسلام وسطاً فطرياً : يخاطب العقل واللب والعاطفة والإحساس ، يقف موقفاً وسطاً يؤلف بين القومية والأنسانية .

رسالة الإسلام ترى أن دين الله في جميع الأزمان وعلى ألسنة جميع الأنبياء واحد يجده . الديانات كلها واحدة بالأصل ، وأصبحت بالإسلام لأنها يضم شتاتها ويقوم ما اعوج من أصولها لدى اتباع اليهودية والنصرانية . يقف موقف التوسط بين غلو الطرفين المتناقضين فيدعو إلى قومية إنسانية ليست مغلقة عنصرية كاليهودية . ولا مثالية زاهدة أقرب إلى الخيال منها إلى التزام الإنسان بظروف وجوده ومعاشه كالديانة المسيحية . وببدأ حمل العرب لرسالة خير الأمم : الأمة الوسط .

فالديانة الإسلامية لم تلح على الجانب الدنيوي وحده كما فعلت الديانة اليهودية بوجه الإجمال ولم تلح على الجانب السماوي وحده كما فعلت الديانة

المسيحية . بل سعى الاسلام سعياً ذاتياً الى الجماع بين الدين والدنيا ، والتأليف بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية معاً .

« لم يعط الاسلام ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » بل نظر الى الوجود المركبي واللامركبي نظرة شاملة جامعة موحدة ، وأقام على هبأ التوحيد نظام فكري وسياسي .

(٥)

ان أوربا حين تتحدث عن فكرها تذكر اليونان والرومان ثم تقول :  
وجاءت المسيحية ، فهي حلقة من حلقات تاریخها . أما العرب فاינם يعتبرون  
ان تاریخهم الحقيقي بدأ من الاسلام ، أمة وفکرًا وحضارة .

واليسجية ككل دین منزل : عقيدة وشريعة ، وان كانت لم تأت بتفاصيل  
تشريعية . فذلك لأن شريعتها الاساسية كانت التوراة مع التعديلات التي  
نزلت على عیسی ، ولكن الذي حدث بالفعل وعلى الرغم من النفوذ الذي  
زاولته الكنيسة في أوربا الوسطى : كان لا يحسم الا القانون الروماني .  
فاليسجية في الاساس ليست دیناً عالیاً وإنما هي رسالة متممة لرسالة موسى .

يقول بول فاليري : ان المیسجیة التي انتشرت في أوربا هي میسجیة  
القديس بولس . وقد جاءت المیسجیة بأخلاقیة ذاتیة ، وعملت على توسيع  
هذه الأخلاقیة جنباً الى جنب مع الوحدة القانونیة التي أنشأها القانون  
الروماني .

ويقول : لعل ما ندين به للیونان هو ما يیزنا عن بقیة البشریة . نحن  
مدینون للیونان بما في عقلنا من ضبط ونظام ، نحن مدینون للیونان بأسلوب  
في التفکیر يیيل لربط جميع الاشياء بالانسان وهكذا تبدو المیسجیة في أوربا

جزءاً من حياتهم بينما الاسلام في العرب هو كل حياتهم ، ولا حياة اجتماعية ولا فكرية لهم مدونه .

يقول ول دبورانت : ان المسيحية لم تقض على الوثنية بل ثبّتها ، ذلك ان العقل اليوناني المعتصر عاد الى الحياة في صور جديدة من لاهوت الكنيسة وطقوسها . وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قرونًا عدة ، صاحبة السلطان على السياسة والأدب ، والطقس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية الى طقون القدس الحفية الرهيبة ، وساعدت هذه مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على احداث هذه النتيجة المتناقضة الاطراف ، فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ويوم الحساب وأبدية الشواب والعذاب وخلود الإنسان . ومنها جاءت عبادة أم الطفل ، والاتصال الصوفي بالله ، ذلك الاتصال الذي أوجده الفلسفية اليونانية الحديثة والأردية وطمس معالم العقبة المسيحية <sup>(١)</sup> .

وفي الأصل جاءت المسيحية لبني اسرائيل لتصحيح اوضاع شاذة ذاعت عندهم . فقد تکالب اليهود على المال وحاولوا جمعه ب مختلف الطرق فجاءت المسيحية تدعو الى الزهد لتكسر حدة هذا الجشع . وكان التحدي والانتقام طابع العلاقة بين طوائف اليهود . فجاءت المسيحية تقول بالتسامح ، ولو بقيت المسيحية على وضعها هذا دينًا لبني اسرائيل يدعوم للزهد لكسر حدة التحدي عندهم . انها ديانة جاءت في ظروف خاصة وبجماعة خاصة ، ولكن بولس نقلها الى العالمية . فقد قرر بولس ان المسيحية ليست مذهبًا يهودياً ، بل هي دين جديد ، وان عليها ان تجعل دعوتها مفتوحة لغير اليهود من جميع الامم ، ولو أدى ذلك الى التساهل في بعض التشريعات والطقس التي تضائق

---

(١) قيصر والمسيح ص ٢٧٦ .

الوثنيين كالختان والسبت وتحريم الخنزير<sup>(١)</sup> وان نظرة واحدة الى موقف بولس من نظام الامبراطورية الرومانية ليدهش لمحاولة إخراج المسيحية عن هدفها الأصيل . فقد طلب بولس من العبيد ( بعد أن دخلوا في النصرانية ) ان يطيعوا سادتهم ، وأن يخدموهم بأمانة وإخلاص منها عذبوم او قسوة عليهم ، وان يخضع الكل للسلطان والحكام من غير تذمر او احتجاج . ومن هذا التحول بدأ ذلك التناقض بين دعوة المسيحية الى القصر والزهد ، وما عرفته أوربا من تكالب على الثروة والاستعمار . وهذا التباين الواضح بين ما تدعى اليه المسيحية . وما أصبح اليه معتقدوها في أوربا وأمريكا .

ويصور هذا المعنى دائرة المعارف البريطانية حين تقول : « ان تاريخ المسيحية وتعدد الكنائس وشيع المسيحيين وفرقهم ولد الشعور لدى الباحثين انه ليس للمسيحيين شيء يشتاركون فيه سوى الأمم » ويبعدوا هذا التناقض في وقائع كثيرة من تاريخ المسيحية . محكم التفتیش ، وسلطة البابوات ، ومعركة سانت بارتلي بين الكاثوليك والبروتستانت ، وروح التعصب في الدعوة الى الحرية الصليبية . وذلك كله نتيجة تأثيرها بالتلمودية . فقد انتقلت المسيحية من حركة اجتماعية قوامها الرحمة والبر والحب الى سطوة أباطرة روما عن طريق الكنيسة .

وبالرغم من محاولة لوثر نتيجة لتأثير أوربا كلها بفاهيم الإسلام ، فإن البروتستانية لم تستطع ان تفعل شيئاً . فقد بقيت الكاثوليكية والبروتستانية كلاهما يعتقد بالثالوث وألوهية عيسى والخطيئة فلم تستطع البروتستانية ان تتحرر منها .

فهذا جاء المنهج العلمي التجاريي الاسلامي وغزا أوربا أيقظها من غيبيات

(١) عبده فراج : معالم الفكر الفلسفى .

المسيحية . وكشف أن الديانة المسيحية بحسب ما صورها الكهنة لا تتفق مع العقل المستنير الذي يحذب ويحلل ويستنبط . فقد بدأت حملة ضخمة في المجموع على فكرة التثليث ووصفها بالتعقيد ، وكذلك فكرة الانصراف عن الدنيا . واهتزت المسيحية في نفوس الغربيين نتيجة تحكم الكنيسة ، هذه الغبييات المسيحية التي هاجمها الفكر الغربي ليست بالقطع موجودة في الفكر الإسلامي .

ومضت العقلية الغربية تتحرر بتأثير مفاهيم الإسلام ومنهجه العلمي التجريري من سلطان اللاهوت الكنسي الذي قام رقباً على النفوس والعقل .

وكانت فلسفة نيتشه ورينان بمثابة رد فعل عنيف ضد الأخلاق المسيحية . وكانت الدعوة إلى تحرير الإنسان من التقيد الأخلاقي المسيحي لأنها أخلاق الأذلاء .

يقول أنيس فريحة : لم تتقسم أوربا فكراً أو ثقافة او علمًأ أو اقتصاداً الا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة وتحررت منه تحرراً تاماً .

( ٦ )

أما الاسلام فقد رفض فكرة الرهبانية والهروب من الحياة والسلبية والانطوانية ، وكان أول من دعا إلى التحرر من قيد الجهل والخرافة والتقليد.

جاء الاسلام حاكماً على المدنيات ولم يحيي ملوكها ، وكانت له قدرته على مواجهة الأزمات والتحديات وقدرته على إعادة تشكيل نفسه وتحرير أصوله من أي اضطراب في حيوية وفتح ومحافظة على الاصول وقدرة على الحركة من خلال المتغيرات .

أعطى الاسلام البشرية اجابات واضحة كاملة عن كل ما تتعرض له من معضلات ، وأقام ذلك التوازن الواضح بين القيم المختلفة : الجهاد والعبادة والانفاق والمباحات والمنوعات .

كان الاسلام حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والأخلاق ، وكانت اصالة الاسلام واضحة في انه رفض ويرفض كل عنصر غريب عليه . وقد أثبت الاسلام انه أكثر قدرة على علاج مشاكل البشرية الكبرى . وفي كل هذا كان للإسلام ذاتيته الخاصة ومقاييسه الخاصة .

ولقد أعطى الاسلام بفاهيمه الربانية القائمة على الفطرة والعاقل شحنة ضخمة من القوة والإيمان والتضحيه ، دفعت المسلمين رفعاً الى الآفاق .

وما تزال قدرة الاسلام على تجديد نفسه وإعادة صياغة فكره كلها انحرف  
هذا الفكر او اصابته دخائل حولته عن جوهره ، وكان دائمًا [بيان] سينا  
 قادرًا على التمدد والمعطاء . وآية ذلك قدرة الاسلام الرائعة على التوسيع  
 والتكييف مع المجتمعات المختلفة والمتصور المتواتلة .

ومنذ ظهر الاسلام لم يتغلب عليه متغلب من الاديان ، وان تغلبت الامم  
على أهلها . ولا ريب ان أبرز الدلائل على اصالة الاسلام وعالميته واستحقاقه  
البقاء والانتشار هو تطابقه مع الفطرة الانسانية وقدرته على العطاء لكل  
العصور والأزمنة والبيئات . وبروز طابعه الانساني في الاخاء والمساواة .



## البَابُ الرَّابِعُ

### الاسلام والعالم المعاصر

الفصل الاول : الاسلام والعالم المعاصر

الفصل الثاني : أزمة الغرب الدينية

الفصل الثالث : اليهودية في حاوية احتواء  
الاسلام

الفصل الرابع : الماركسية في مواجهة الاسلام

الفصل الخامس : الاسلام والبشرية



## الفصل الأول

### الاسلام والعالم المعاصر

عندما جاء الاسلام واجهته الأديان بخصوصة عاتية ، وبدأ صراع عنيف ، تمثل في حركات الانتقاد التي أثارتها الجوسية الفارسية باسم الشعوبية والباطنية ، وحركات الغزو الذي لم يتوقف من جانب الدولة البيزنطية باسم أوربا المسيحية على أطراف عالم الاسلام . ثم لم يلبث هذا الغزو ان تبلور في الحروب الصليبية على ساحل الشام ومصر . وحروب الفرنجة على ساحل المغرب ، ثم كانت الحملة الاستعمارية التي تدافت من أوربا الى العالم الاسلامي كلها والتي وصلت الى جزائر الملايو والهند وخليج العرب حق سيطرت على بيت المقدس . وأعلنت أوربا بعد ثمانمائة عام من هزيمة الحروب الصليبية ان هذه الحروب قد انتهت بانتصار أوربا المسيحية على عالم الاسلام والسيطرة عليه سياسياً واقتصادياً وعسكرياً .

ومن ثم بدأ الاسلام مواجهة التحدى الخطير من خلال محاولة السيطرة عليه وتزييف مفاهيمه وافراط الشكوك حول حقائقه ، وإعلام التشويش

بالمسيحية في بلاده ، ثم زحفت اليهودية الصهيونية الى فلسطين . وأخذت تتدافع من خلال الفكر الأوروبي الى عالم الاسلام من أجل إعلاء مفاهيم الوثنية والإغريقية والمادية في محاولة انتصاف كامل وصفه بعض قادته ، انه محاولة لفتح العالم الاسلامي عقائدياً وفكرياً ، واعادته مرة أخرى الى ما كان عليه قبل الاسلام .

تلك هي المحاولة الخطيرة التي يواجهها الاسلام اليوم من خلال التحديات المتسلبة بشوب الاستعمار ومذاهب الاقتصاد والاجتماع وهي في أعمق أعمقها تستهدف استعادة العالم الاسلامي وسحب الارض من تحت الاسلام والجهر بطالبيه بالعودة الى الجزيرة العربية .

ولا ريب ان محاولات العنصرية المبثوثة على نحو واسع جداً في العالم الاسلامي تحت أسماء تخفي حقيقتها من وطنية وقومية وغيرها . انا هي واحدة من هذه المحاولات التي ترمي الى إقامة كيانات أقلية مزقة تعود في جذورها الى دعوات ما قبل الاسلام من فينيقية وفرعونية وبابلية وآشورية وبربرية وزنجية وذلك حق تكون يسيرة في القضاء عليها والتهاجمها .

وإذا كانت تجربةبني اسرائيل في النبوة والحكم والملك قد مرت تماماً بعد ان فشلوا في إقامة الحق والمعدل ، وانتهى الأمر بنقل النبوة والقيادة والرسالة والملك الىبني اسماعيل ، الذين حملوا لواء دعوة الدين الحق مثلاً في الاسلام ، متكالماً مع رسالة ابراهيم الخينيفية الاولى وخاتمامها . اذا كانت تجربةبني اسرائيل قد سقطت ، فإنها تحاول ان تعود بعد أربعة عشر قرناً من ظهور رسالتة الاسلام لتحاول استعادة نفوذ قد عجزت عن إقامة الحق فيه . وقد أعطيت قيادة العالم لأمة أخرى أكثر قدرة على حمل اللواء ، هي الأمة العربية الاسلامية .

ومن هنا تكون المعركة الآن في ذروتها من أجل إظهار الله للإسلام على

الدين كله حيث لا خوف على الاسلام من أي صدام مع أوضاع لا تقوم على الحق ، وإنما تقوم على تفسيرات زائفة ومناهج مصطنعة ، ومذاهب منطلقة من الأهواء والاحقاد على البشرية كلها .

أما الاسلام فانه منذ اكتمل من مجده ، وقبل أن يختار الرسول الرفيق الاعلى ، فإنه قد ألقى القاعدة التي لا خوف بعدها عليه « اليوم ينس الدين كفروا من دينكم فلا تخشوه واحشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيتك لكم الاسلام دينا » .

ولقد ولد الاسلام في أتون الأحداث وفي مجال الصراع وفي مواجهة التحديات ، ولذلك فان تحالفات تكتيكيه والانتهازيه وتزيفه وإثارة الشكوك والشبهات حوله ما تزال منذ ذلك اليوم على السننة خصومه لم تتوقف ولن تتوقف .

وبالرغم من تملك المواجهة الخطيرة التي يقود العالم كله قيادها وبذكي نارها بين محاورة ومحادلة بالفكر او مقارعة بالسنن . فان الاسلام كان قادرآ على أن يثبت بالحق . وفي الساعات المصيبة التي كان وجود الاسلام ينتقص من أطرافه في الاندلس ، او يرغم على محاورة البلقان في أوربا الى أرضه مرة أخرى ، كان يفتح أعظم فتوحاته ، ويقترب أرضًا جديدة في جنوب شرق آسيا وفي قلب افريقيا . وما يزال الاسلام قادرآ على النفاذ في آماد الارض لا يتوقف . و اذا كان الاسلام قد حول مجرى التاريخ في أوربا وآسيا في العصر الوسيط وعصر النهضة فانه سيستطيع أن يفعل ذلك في افريقيا وان يشكل دوائر جديدة يبث منها كلمة الله كلما تجمعت الأحداث ، وتوارت الخطوط بحق ينصلح في صورته المثلث « كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

والاليوم حيث تصل الحضارة الغربية الى أعلى ذراها ، تتطلع البشرية كلها

إلى الإسلام ، وترى فيه الترنيق الذي يزيل أزمتها ويقدم لها الحل الأمثل لمضلاتها المعقّدة وقضائها المثيرة وأزماتها العنيفة . ما زال الإسلام قادرًا حقًا على أن يهدي البشرية إلى الحق ، وإذا كانت التساؤلات تتردد في كل مكان . ماذا يستطيع الإسلام أن يعطي البشرية اليوم ، وقد ادهم الخطيب وتعقدت الأمور ، ووصلت الحضارة الغربية المادية إلى طريق مسدود .

فإننا نقول إن الإسلام قادر على أن يعطيها الكثير لو أنها استجابت له ، يستطيع أن يعطيها منهج الحياة الأمثل الذي يحقق الأمن النفسي واليقين ، وإن يقدم لها الضوء الصادق الكاشف الذي يبعث السكينة في القلوب والعقول ويقضي على القلق والتمزق .

وفي أحلوك ساعات الأزمة التي يواجهها عالم الإسلام من تحديات الاستعمار والتغريب والتبشير . يقول هامilton چب : ما زال الإسلام في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة . فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الاجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى في إفريقيا والهند وأندونيسيا ، بل وتلك الجامعة الإسلامية الصغيرة في الصين ، او في اليابان لتبين كلها أن الإسلام ما زال له القدرة على أن يسيطر كلياً على أمثل هذه العناصر المختلفة الاجناس والطبقات ، فإذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظيمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام في حسم النزاع .



لقد سقطت كل الدعوات المتعصبة التي كانت تدعى إلى قرب سقوط الإسلام او تلك التي كانت تقول لا بد ان يعيد الإسلام ما اغتصبه من أوربا

على مدى ألف سنة من سلطان الدولة الرومانية .

لقد قبأً مسٹر غلاستون رئيس وزراء بريطانيا في أوائل هذا القرن ان الاسلام لا يطول عمره أكثر من مائة عام ثم يتلاشى ولو بعث غلاستون حيَا اليوم لرأى وهم ما تخيل وكذب ما ادعى .

لقد كان غلاستون يعرف ان المسلمين يقومون على أساس كلمة القرآن وحدها . ولذلك فقد أعلن انه ما دام ذلك الكتاب باقياً في الارض فلن يكن السيطرة على المسلمين . ومن ثم بدأت تلك الحملات التبشيرية لتنصير المسلمين وحملات الاستشراق لإثارة الشبهات وحملات التغريب لنقل المسلمين الى تابعين وموالين للفكر الغربي . ومع ذلك فقد قاوم الاسلام حملات ابادته وتغييره وتزييفه بقوة ، واستطاع ان يجدد نفسه من داخله فيلتعمد منابعه الاصلية ويستمد منها ويقيم نهضة جديدة ، أما الاف عام التي عاشها العالم الاسلامي في أحضان الامبراطورية الرومانية فانها عجزت عن أن توده مرة أخرى إلى دينها او لغتها .

وتقول مجلة المشرق : لسان المبشرين في لبنان<sup>(١)</sup> : لقد تركت روما القديمة في بلاد المغرب العربي آثاراً لا تتحى . وكانت من تلك البلاد الافريقية الشالية فتكلمت اللاتينية مدة ستة قرون ، وأنشأت الكنيسة آباءً عظاماً من أمثال القديس أغسطينوس . ومع ذلك فقد اضمحلت فيها جميع تلك الآثار الرومانية واليسوعية . وبسط الاسلام نفوذه فغطى كل شيء فكيف حدث هذا التغيير الغريب ، البعيد الأثر في تاريخ شواطئ البحر المتوسط ، وهذا سر مهم غامض لم يحرب أحد فيما سلف أن يكشف النقاب عنه ، وهذا دعيت تلك القرون بالقرون المظلمة .

(١) المشرق م ٢٦

نهم بعد ألف سنة امتحى كل شيء، وجرت المحاولات في العصر الحديث بعد احتلال الجزائر مند ١٨٣٠ حتى تحررها عام ١٩٦٢ ( ومثلها المغرب وتونس ولبيبا ) على إعادة ذلك الفكر ، والدين واللغة . ولكن ما بذل في سبيل ذلك ، ما بذله الآباء البيض وغيرهم قد انتهى تماماً الى نفس ما انتهت اليه الحروب الصليبية بعد مائتي عام .

لقد جرت المحاولات الكثيرة لنقل المسلمين من وجهتهم الى وجهة أخرى . وفشلـت الخطة فقد كان لل المسلمين قبلة واحدة منذ عرـفوا الاسلام لم يحيـدوا عنها ، تهـويـيـاً اليـها قـلـوبـهـمـ وـعـقـولـهـمـ ، قـلـوبـهـمـ بـالـإـيـانـ ، وـعـقـولـهـمـ بـالـفـكـرـ ، وـلـمـ يـكـنـ الـبـحـرـ الـأـبـيـضـ فـيـ يـوـمـ مـنـ الـأـيـامـ قـبـلـهـمـ ، وـمـاـ تـزـالـ الـكـعـبـةـ هـيـ مـرـكـزـ الدـائـرـةـ فـيـ أـرـضـ الـإـسـلـامـ ، وـمـنـذـ أـزـالـتـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ لـغـةـ الـقـرـآنـ السـرـيـانـيـةـ مـنـ سـوـرـيـاـ ، وـالـقـبـطـيـةـ مـنـ مـصـرـ . فـلـاـ سـبـيلـ مـرـةـ أـخـرىـ إـلـىـ تـقـدـمـ لـغـةـ أـخـرىـ ، بـلـ وـلـاـ لـلـمـجـةـ الـعـامـيـةـ مـقـامـهـاـ .



ولقد جـرتـ المحـاـلـاتـ انـقـلـ الـمـسـلـمـيـنـ إـلـىـ مـفـاهـيمـ الـفـكـرـ الغـرـيـيـ المـسـيـحـيـ التـلـمـودـيـ بـكـلـ وـسـائـلـ الإـغـراءـ اوـ القـسـرـ اوـ الـخدـاعـ . وـلـكـنـ المحـاـلـاتـ كـلـهاـ ذـهـبـتـ هـبـاءـ ، وـكـانـتـ دـعـوتـهـمـ إـلـىـ اـنـشـاءـ نـهـضةـ لـاـ صـلـةـ لـهـاـ بـالـدـينـ وـالـاخـلاقـ . وـلـكـنـ الـمـسـلـمـيـنـ مـاـ لـبـثـواـ اـنـ أـصـبـحـواـ يـلـتـمـسـوـنـ لـهـضـتـهـمـ مـنـهـجـاـ أـصـيـلاـ مـنـ أـصـدـقـ نـصـ مـوـثـقـ وـهـوـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ ، وـكـانـواـ بـذـلـكـ أـشـدـ إـيمـانـاـ بـدـينـهـمـ مـنـ الـعـصـورـ الـقـيـ سـبـقـتـ وـالـقـيـ اـسـتـمـلـ فـيـهـاـ مـفـهـومـ جـبـرـيـةـ الـصـوـفـيـةـ اوـ عـقـلـانـيـةـ الـمـعـتـزـلـةـ .

ولـقـدـ رـمـيـ الـمـسـلـمـيـنـ بـالـدـعـوـاتـ وـالـمـذاـهـبـ وـالـاـيـدـيـوـلـوـجـيـاتـ فـفـشـلـتـ . ثـمـ طـرـحـتـ عـلـيـهـمـ أـدـيـانـ وـعـقـائـدـ فـلـمـ تـجـدـ لـهـ صـدـىـ .

يـقـوـلـ الـعـلـامـةـ فـرـيدـ وـجـديـ : « اـذـاـ كـانـتـ أـمـةـ لـاـ تـنـجـحـ فـيـهـاـ دـعـوـةـ دـيـنـيـةـ »

فهي الامة الاسلامية لأن دينها أجمع الاديان لعتقدات البشر منقحة مهذبة تتفق مع العقل والعلم معًا ، فهم يؤمنون بجميع رسائل الله وأمرؤا ان لا يفرقوا بين أحد منهم ، ويؤمنون بالكتب كلها ، ويحترمونها وهم من احترامهم بجميع الكتب فان أكبر قوة في الارض تعجز عن ان تحوّلهم عن دينهم .

●

يقول أنيس فريحة : [ ان أوروبا قد حاولت عن طريق الكلمة تحقيق ما عجز عنه أجدادها الصليبيون عن طريق السيف في شأن إخضاع العالم كله للمسيح ] .

ولكن الاسلام لم يفعل ذلك ولكنه دعا الناس بغير إكراه ، وعندما سيطر على المالك ترك للناس حرية العقيدة . وقد شب أغلب الغربيين (على حد تعبير م. رح. كويت) على كراهية الاسلام وارتضوا ذلك في لبان أمهاطهم ، بينما شب المسلمون على حب السيد المسيح والایمان بالmessiahية المنزلة وكتابها المنزل الانجيل ، وبسائل الكتب والاديان والانبياء لا يفرقون بين أحد منهم .

ومسلمون على حد تعبير ( هاملتون جب ) اول من ألف في مقارنات الاديان ، وكانوا واسعي الصدر تجاه المقاديد الاخرى « حاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالحججة والبرهان . أما الاوربيون ورجال الاديان الاخرى فقد هاجروا الاسلام بعنف وابتكرروا أساليب التشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله .

ومسلمون يؤمنون بأن المسيحية دين ، وأن الاسلام دين وزيادة . وقد أكد الباحثون ان الاسلام لم يدخل بلدًا ثم خرج منه . يقول ألين برودريك : ان الاسلام هو المذهب الوحيد بين المذاهب التبشيرية الذي لم يضعف في الارض التي نبت فيها . ويلاحظ انه عندما يفتح الدين الاسلامي بلدًا ما يسيطر عليها

كلية فلم يحدث ليومنا هذا ان خرج منها . هذا فضلاً عن قدرة الاسلام على تحويل خصومه الى أنصار وبراعته في اذابتهم ، موقف الاسلام من التتار يكشف عن هذه الحقيقة التاريخية على نحو غاية في الإثارة والإعجاب .

ولقد شهد الغربيون على أوربا المسيحية ومدحى تعصبها وخصوصيتها للإسلام . قال هربرت سبنسر للشيخ محمد عبده في لقائه به : لقد محيَ الحق من عقول أهل أوربا واستمحوذت عليها الأفكار المادية . فذهبت الفضيلة ، وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولًا فأفسدت الأخلاق وأضعفـت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم الى الانجليز فهم الآن يرجعون القمرى .

وصدق جمال الدين الأفغاني حين قال : ان الثقافة الاوربية لم تتخـلـقطـعن نـصـرـانـيـتهاـ وـتعـصـبـهاـ .

( ٣ )

صور أحد الباحثين الأجانب موقف الأمم من الإسلام فقال : لما كان الإسلام داعياً إلى نفسه انتشار في قسم كبير من الدنيا . وفاق النصرانية في النجاح . وليس تفوق الإسلام منحصراً في أن الداخلين فيه أكثر عدداً من الداخلين في غيره من الوثنين ، إن التجارب التي أجريت لتحويل المسلمين عن دينهم قد أخفقت تماماً . وقد امتد دين الإسلام من المغرب إلى جاوه ، ومن زنجبار إلى الصين ، ثم هو ينتشر بخطوات العباقة في أفريقيا .

وقد استولى على جسم كبير من الكونغو ووازامبيس في حين ان أوغنده هي أقوى دول الزنوج قد صارت مهدية من عهد قريب . والتمدن الغربي الذي هو جاد في هدم الوثنية الهندية ، إنما هو يهدى السبيل للإسلام .

ليس الأهم أن نوضح انتشار الدعاء الإسلامية ، بل أهم منه أن الإسلام حق وقع في كنه أحد قبض عليه بقبضة من حديد فلا يفلته ، وقد عمل الإسلام في التمدن أكثر بما عمل غيره . فأمر بتوحيد الله وتعظيمه ، وأبدل التبتل والرهبة باليوجة ، وفتح باب الأمل للرقيق وباب الاخوة للنوع الانساني ، واعترف بالحقائق الجوهرية للطبيعة البشرية . والفضائل التي يعلّمها الإسلام هي التي يمكن للشعوب المنهضة ان تفهمها : الاعتدال في التمتع بالذات ، والنظافة ، والعدل ، والصبر ، والشجاعة ، والاحسان ، والصياغة ،

والرضا بالقضاء فاما كنهم ان يعلموا أصول الفضائل ، وان يحيتنبوا السيناث المهلكات .

ان الاسلام يعلم الاخوة العملية والمساواة الاجتماعية التامة بين جميع المسلمين .

لقد أثار الاستعبار الاوري في وجهه العقبات حتى يتوقف عن الانتشار ، ومنع لغته العربية - لغة القرآن - من الانتشار بإحلال لغات غربية ، وإحياء لهجات إقليمية . وترك للراسيات ومؤسسات التعليم التبشيري العمل لإيقاف نمو الاسلام وتجميد الاسلام في بيئاته وذلك بإدخال القوانين الوضعية ومناهج التعليم الغربية ، وإحلال مناهج ونظم سياسية معارضة للإسلام ومفاهيم في الوطنية والقومية الإقليمية معارضة للأخوة الإنسانية ، ومع هذا التحرير في التطبيق والخلولة دون انتشار منهج الاسلام دين العمل . فقد حمل الاسلام نتيجة أخطاء الضعف والتخلف وأزمات الصراع والنكسات التي حللت بال المسلمين . وحاول الغربيون من مسيحيين ويهود أن يقنعوا المسلمين بأن الاسلام هو مصدر تأخرهم وتخلفهم وضعفهم ، وانهم لو اطلقوا من قيده لاستطاعوا ان يلحقوا بالامم الناهضة . وقد كذبوا في ذلك وزيفوا . فقد عرف المسلمون النهضة بفضل الاسلام وسادوا العالم بمنهجه ، ولم يختلفوا الا يوم انصرفوا عنه وتخلفو عن تطبيقه .

ومن الحق ان التاريخ ليس مصدرآ لمنهج الاسلام . وان أخطاء التطبيق في المجتمعات الاسلامية لا يمثل حقيقة الاسلام ولا يعتبر الاسلام مسؤولاً عنها ، ولنست فترة ضعف المسلمين أساساً ل الحكم على الاسلام من خلال مبادئه .

غير أن تركيز المسيحية الغربية على الاسلام كان شديداً وقاسياً . وقد تتمثل في مواقف متعددة الى ما يكتبه الروحاليون من الانجليز سواء منهم الرسميون وغيرهم ، نعرف حقيقة نتائج الاسلام .

مُنْ دخلت قبيلة من السودان في الاسلام اختفت عنها في الحين « الوثنية » عبادة الشيطان وعبادة البشر وأكل لحم الإنسان وتقديم الضحايا البشرية وقتل الأولاد والسمور وصاروا يرتدون الشياطين وحلت فيهم النظافة ، وشعروا بالعظمة واحترام النفس ، وصار قرى الضيوف عندهم من الواجبات الدينية ، وندر شرب المسكرات وحرم القمار والرقص المنافي للعفة وفوضى اختلاط الجنسيين ، وصارت طهارة العرض من اعظم الفرائض ، وذهبت البطالة والكسل ، وحل العمل والكد محلهما ، وتغلب النظام والرزانة على الشفاق ، وحرمت القسوة على الحيوان والعبد ، وتعلموا الشعور بالإنسانية واللطف والأخوة ، ودخل الرق وتعدد الزوجات تحت قانون يحدد شرعاً ويحفظه . وفوق ذلك كله ، فالإسلام أقوى وأجمل دين اجتماعي في الفناء والاعتدال في تناول اللذات وكلها امتدت واتسعت الحضارة الأوروبية امتدت معها الرذيلة واحتقار الناس ، أما الاسلام فإن تمدنـه خال من غمط الناس واحتقارـهم ، وحاضـن على تعلمـ الكتابة والقراءـة ، ولبسـ الشـبابـ الـلـائـقةـ والنـظـافـةـ الـبـدـيـلـةـ والـصـدقـ وـعـزـةـ النـفـسـ . وـاـنـ تـمـدـنـ الإـسـلـامـ وـتـقـوـيـهـ لـنـفـوسـ لـعـجـيبـ ، يـحـبـ أنـ نـأـخـذـ فـيـ الـاعـتـارـافـ بـالـحـقـيقـةـ ، وـهـيـ أـنـ الإـسـلـامـ لـيـسـ عـدـوـاـ لـنـصـرـانـيـةـ ، الإـسـلـامـ نـسـخـةـ طـبـقـ الأـصـلـ مـنـ دـيـنـ إـبـرـاهـيمـ وـمـوـسـىـ عـلـىـ اـصـوـلـ النـصـرـانـيـةـ ، وـالـيـهـودـيـةـ دـيـنـ خـاصـ .

أما الاسلام فهو دين عام لمجتمع الأقوام ، ليس منحصراً مثل اليهودية في شعب واحد ، بل عام شامل لمجتمع اهل الأرض ، وال المسلمين يؤمنون بأربعة معلمـين عـظـامـ : إـبـرـاهـيمـ وـمـوـسـىـ وـعـيـسـىـ وـمـحـمـدـ . ولـيـسـ فـيـ تـعـالـيمـ مـحـمـدـ شـيـءـ يـعـادـيـ النـصـرـانـيـةـ أـوـ يـضـادـهـ ، بلـ تـعـالـيمـ مـحـمـدـ وـسـطـ بـيـنـ الـيـهـودـيـةـ وـالـنـصـرـانـيـةـ . لـقـدـ جـاءـ الـإـسـلـامـ فـجـرـفـ الـخـرـافـاتـ الـفـاسـدـةـ . وـأـقـامـ ثـوـرـةـ وـتـرـدـاـ علىـ الـمـسـائلـ الـلـاهـوتـيـةـ الـفـارـغـةـ وـكـانـ خـصـمـاـ لـتـبـتـلـ الـمـزـعـومـ . إـنـهـ قـاجـ التـقـوىـ وـقـدـ جـاءـ بـعـقـيـدةـ الـدـيـنـ وـقـطـاعـاتـ مـخـتـلـفةـ .

لقد استغل الاستعمار المسيحية في سبيل محاربة عالم الاسلام ، كما استغلت المسيحية الاستعمار في فرض نفوذها وإقامة قواعد مؤسساتها التبشيرية في قلب افريقيا وآسيا واحكام حملة ضخمة على المسلمين بغية زعزعة عقائدهم وإخراجهم من الاسلام وإحالتهم الى جماعات ملحدة مضطربة الفكر . وفي حضانة الاستعمار شن المبشرون والمستشرقون على الاسلام رسوله وكتابه حملة ضخمة ، وهي حملة قامت على التعصب والخذد . ولم تقم على النقد وال الحوار . ولم تأخذ طريق الاقناع بل طريق المسلمات التي تفترض أساساً ثم تلتئم لها الأسانيد من هنا وهناك .

وبينما يشن كتاب الغرب المسيحيون ومستشاروهم ومبشروهم هذه الافتراضات والاتهامات والشبهات يقف كتاب المسلمين موقف الدفاع ويتناولون المسيحية والسيد المسيح بأسلوب عف كريم ، فهم يؤمنون بنبوته عليه السلام إيمانهم بنبوة محمد ﷺ ويعتقدون أن التوراة والإنجيل كتابان منزلان كالقرآن تماماً . ولا تختلف وجهات النظر إلا في شأن مبلغ صحة الكتاب المقدس في صورته الحالية .

وفضلاً عن ذلك فإن البعثات المسيحية والمبشرين المسيحيين لم يقتصروا على التبشير فعلاً بل جاؤوا هذا الحد واختاروا الوسائل الأخرى التي ليست من وسائل التبشير . بل هي وسائل الضغط السياسي والإطعام الاقتصادي والهدم الخلقي والعقائدي « إنهم في معظم الأقطار الافريقية حرموا المسلمين من التعليم بمعونة القوة الاستعمارية وأغلقوا أبواب دور التعليم في وجه كل من لا يعتقد الديانة المسيحية او لا يختار لنفسه الاسم المسيحي بدلاً من الاسم الاسلامي على الأقل . وان الأقلية المسيحية ذات النفوذ التي خلقت بهذه الطريقة هي التي تسيطر اليوم من النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية

على كثير من الدول الأفريقية التي معظم سكانها من المسلمين<sup>(١)</sup> . يضاف إلى هذا مؤازرة المسيحية الغربية في تسليم فلسطين لليهود . فإن القرار الذي اتخذ باسم وعد بلفور وقعته المسيحية في إنجلترا ، والعالم المسيحي هو المسؤول عن قيام هذه المؤامرة ، وهو الذي ساعد على جعل هذا الوطن الاصطناعي دولة مستقلة . وهو الذي أمدتها بالعون المالي والسلاح الحربي .

---

(١) المودودي من رسالته إلى قادة البابا .

## ( ٤ )

منذ ظهور الاسلام وإلى يومنا هذا تعرض «الاسلام» لواجهات خطيرة من القوى العالمية المختلفة : الكنيسة والصهيونية والماركسية والغرب المسيحي الاستعماري ، كانت المحاولات تجري للسيطرة عليه والإدالله منه وتحريفه وصرف أهله عنه والتبشير فيهم لإخراجهم منه والقضاء على أجنبنته وأطراfeه ولقد قامت الكنيسة بأقصى الحملات في معركتين فاصلتين : معركة الحروب الصليبية ، وإخراج المسلمين من الاندلس ، فقد ظلت البابوية في مدى قرنين كاملين تحرض أهل أوربا على خوض المارك مع المسلمين في القدس . ولما عاد المسيحيون وقد بهرتهم أخلاق المسلمين وسماحتهم قطعت الكنيسة رقاهم وحرمتهم من ان يعلموا ذلك حتى لا تذهب الحجة التي دفعت البابوات الى إعلان الحرب على المسلمين .

وقد كان البابا أوريان الثاني مؤجج هذه الحملات في خطابه الشهري الذي ألقاه في شهر تشرين الثاني عام ١٩٠٥ آمراً المسيحيين ان يشنوا الحرب على الجنس الشرير الذي كان يمتلك الارض المقدسة .

وكان ذلك مقدمة حملة جبارية طاغية لقلمها استمرت بعد ذلك وما تزال مستمرة ، تدعوا كا وصفها محمد أسد الى تسميم العقل الغربي ضد العالم الاسلامي عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الاسلامية تفسيراً خاطئاً متعمداً لأنها

إذا كان للدعوة إلى حملة صليبية أن تختفظ بصفتها كأن من الواجب أن يوسم  
نبي المسلمين بأنه عدو المسيح . وأن يصور دينه بأكلع العبارات ، وهكذا قادت  
الكنيسة أضخم حملة على الإسلام والمسلمين ، وهي أقسى ما وصل إليه  
الاستعمار من بعد .

وفي الاندلس كانت الحملة الأخرى الأشد عنفاً فقد عومل المسلمون أسوأ  
معاملة وحُوصروا وأُضطهدوا وأرغموا على ترك دينهم وعلى المиграة .  
وكانت صفحة حاكم التفتیش من أقسى صفحات الكنيسة قسوة  
على المسلمين .

وفاريج الأب جريوار السابع وموقفه من الحرب في إسبانيا الإسلامية  
يعطي صورة مريمة قاسية فقد وجه الدعوة الصريحة إلى أمراء المسيحية  
يحضهم على المشاركة في هذه الحرب المقدسة . ويعلن مقدمًا سيادتهم على  
الأراضي التي ينزعونها من المسلمين .

ولكن الإسلام الذي حاربه أو ربا بث هذا العنف استطاع أن ينفذ إلى أعماقه .  
وأن يكتسب الكثيرين من المثقفين ويحررهم من إطار التقليد والتبعية ،  
ومنهم من أسلم صراحة ومنهم من عرف للإسلام قدره ، بل إن المسيحية  
نفسها على تلك الصورة قد وجدت من الغربيين الذين لم يؤمنوا بالإسلام من  
يستطيع أن يكشف عن زيف التناقض والازدواجية .

فاليسوعية التي تدعو إلى الرحمة والحنان والشفقة لم تكن مجال هي  
المسيحية التي تدعو إلى القتل والحرق بالنار وإزهاق الأرواح . وهي التي  
تقبل اقتحام بيت المقدس ، وقتل سبعين ألفاً من المسلمين كانت الخطبول  
تغوص براكبيها في دمائهم .

تلك هي الصورة التي أزعجت الكثيرين من المفكرين وكانت مصدر  
نقدهم . وفي مقدمتهم نيتشه ورينان .

ويرى نيتلش ان المسيحية خدمت اليهود في أوربا ويقول : ان اليهود ثاروا من أوربا المسيحية اذ المسيحية من بنات أفكارهم ، وقد حتمتهم من ظلم الحكام وجرؤ الأحكام حق انتشروا في جميع البلدان المسيحية وتسودوا عليها وملكوا ناصيتها وقبضوا أموالها ، فاليسوعية أفادت اليهود ، ولكنها أضرت بالاوربيين . وقال ان القيم التي سنتهما المسيحية هي السبب في وقف التقدم وجمود الحضارة .

أما أرنست رينان فإنه انكر ألوهية المسيح . وقال ان المسيح لا يزيد على ان يكون إنساناً عظيماً .

ومن منطلق نيتلش ورينان بدأت جملة ضخمة تصدرتها الفلسفة الحديثة على الدين بعامة والمسيحية والكنيسة بصفة خاصة .

ولقد كانت مفاهيم الإسلام التي هزت جمود الكنيسة وأشعلت دعوة الإصلاح التي حمل لواءها لوثر وكلفن قد فتحت الباب واسعاً أمام حرية العقل والرأي حتى لنرى العشرات من المثقفين يواجهون تفسيرات المسيحية بالنقد والمعارضة .

ومن ثم يمكن القول ان ظاهرة جديدة بدأت تشق طريقها إلى التاريخ المعاصر : تلك ظاهرة تحرر العقل من تفسيرات المسيحية ، والنظر فيها نظرة أكثر عمقاً ، والبحث والتنقيب عن الدين الحق . ثم وجوده في الإسلام .

ولقد وجد الكثيرون في الإسلام ما تحتاج إليه البشرية . وكشف الكثيرون عن تعقيدات التفسيرات المسيحية التي ليست هي المنزلة من عند الله ، بل المسيحية الاوربية التي أنشأها بولس : هذه الحركة الجديدة قد

شكلت تياراً قوياً في مواجهة المبشرين والمستشرقين ومتعمقي الفكر الغربي.  
وأبرز مظاهر هذه الحركة هي :

أولاً، تبين أن الشخصية التي يدعها المسيحيون للمسيح عليه السلام ليست  
تاريخية قطعاً والباحث عن ذلك بالأساليب العلمية لا بد أن يخرج من  
بحثه صفر اليدين . والاختلاف بين المسيحيين شديد جداً في أصول  
المسيحية وفي تكوين العقيدة عند المسيح . وإن أكثر الذين يتبعون إلى  
النصرانية لا يعتقدون بصحتها .

ثانياً ، معرفة الكثيرون من المسيحيين بأن الانجيل الذي في أيديهم أحدث  
عهداً من المسيحية ، ووقفهم على الاختلاف الواقع بين كتبهم الدينية له تأثير  
كبير في اعراضهم عن بعض ما فيها من نصوص ، بينما المسلمين لا يرتابون  
قط بأن القرآن الذي بين أيديهم هو الكتاب المزل على نبيهم لا رب فيه  
ولا يأتيه الباطل . (خالد شلدريلك)

ثالثاً ، ان الكتب الموجودة في المكتبات العامة في أوروبا مملوءة بالتحامل  
ومطاعن حيث تزعم ان الاسلام ليس ديناً مستقلاً .

وقد تسامل الكثيرون: اذا كان الاسلام لا أهمية له الى هذا الحد ، فلماذا  
يبذلون كل هذه الجهد للتحامل عليه ومقاومته وتجويه المطاعن اليه . وقد  
تأكد بعضهم ( ومنهم الدكتور خالد شلدريلك ) انه لو لان الاسلام دين  
يخشاه هؤلاء الناس ، ويحسبون له حساباً كبيراً لما فيه من القوة والحياة لما  
بذلوا كل هذا لمقاومته والطعن فيه وتشويه سمعته .

رابعاً ، كذب الذين عرفوا الاسلام من الاربيين فرية انتشار الاسلام  
بالسيف . وقالوا ان المسيحيين الاربيين يعلمونهم بأنفسهم أنها كاذبة وغير

معقوله ، وانها تخالف وقائع التاريخ كمخالف لحقائق الاسلام ، ولو انتشر الاسلام بالسيف كما زعموا لما بقيت هذه الكنائس والبطاريكيات والأوضاع غير الاسلامية المنتشرة في العالم الاسلامي والمتسلسلة من اقدم ازمانه الى الان ، وان تسليط السييف على العقائد من شأنهم هم بدليل ما فعلوه في الاندلس وعلى كل حال فاذا كان هناك دين انتشر بالسيف فليس هو الاسلام بل غيره . (خالد شلدرريك)

خامساً : الإعجاب بابطال المسلمين الذين خرجوا من الصحراء حفاة الأقدام فاستطاعوا ان يكونوا أعظم قوة في التاريخ وأعدل قضاة الأرض ، وأشهر المشرعين على الإطلاق . (لورد هدلي)

سادساً : بساطة الاسلام التي تأسر النفس خلوه من كل مغالطة او اتهام وهو الدين الذي ليس فيه أثر للاحتمالات والخيالات التي لا يسع العقل التسليم بها ، بل هو الدين الذي يدعو الانسانية الى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته .

سابعاً : لم يحتمل المسلمين في حين من الأحيان في حشر أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حلوق الناس وصدورهم بالقوة والفظاعة والتعذيب ، ولم يشهدوا السلاح الا حين الضرورة القصوى لحماية الحياة البشرية ، هذا فضلاً عن مسلك البشر الاسلامي الحقيقى الذي كان له الفضل في انتقال الكثيرين الى الاسلام ، وهو انه لا يحاول ارغام سامييه او التأثير فيهم ، بل إيماناً بأن الدخول في الاسلام يجب ان يكون بإراده الانسان الحرة وبرأيه الذاتي .

ثامناً : اهتمام المسلمين بدينهم والخلاص له في كل يوم وساعة مما لا يرى مثله في النصرانية فان النصراني يحترم دينه عادة يوم الأحد حتى اذا مضى

الأحد نسي دينه طول الأسبوع ، أما المسلم فبعكس ذلك يحب دينه دائمًا وسواء عنده أكان الجمعة أم غيرها .

تاسعاً : الاعتقاد بأنه توجد ألوف من الرجال والنساء الذين يدينون بالاسلام في قلوبهم ، ولكن مخالفة الإجماع وخوف الانتقاد ، والرغبة في اجتناب كل ضيق أو تغيير يحملهم على عدم الجهر بما في قلوبهم .

عاشرًا : ان الدافع الأكبر للانسلاخ عن المسيحية هو ما يلمس من عدم التسامح الديني بين الطوائف المسيحية بسبب الخلافات المذهبية .

حادي عشر : ان الاسلام أرجع الدين الى حالته الطبيعية ولم يأت بشيء من تلك العقائد الفلسفية بل قال بوضوح لا إله إلا الله وبذلك خلا الاسلام من ذلك الاعتقاد الذي قسم الدول الاوربية والذي جعل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية . وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة الى أهل الاسلام وهم يعلمون انهم أهل التسامح مع مخالفتهم في الدين .

ثاني عشر : لم يقرر الاسلام شيئاً من وساطة رجال الدين بين الإله والشعب يرجع اليهم الحل والعقد في كل الامور ولم يرض بنظام الصوامع وقضى على عادة العزوبة التي كانت متتبعة ومستفيدة ، وعلى عادة التذكرة والخروج من الدنيا . فقد قرر الاشتغال بالدنيا والآخرة <sup>(١)</sup> .

ثالث عشر : انفراد الاسلام بتحريم المأمور ، وهي مزية لا تجد لها في

---

(١) استخلصت هذه النصوص من اعترافات رجال أسلماً لهم : خالد شلبيك ، الورود هدلي ، عبد الكريم سرمانوس ، وبعض الكتاب المصنفين أمثال : ريليه ميليه .

كتب الديانات الأخرى ، بل ربما تجده في بعضها تشجيعاً على الخمر كقول القديس بولس لتلميذه : خذ قليلاً من الخمر لإصلاح معدتك . كما تجد فيها حادثة تحويل الأواني الملوثة ماء إلى خمر : أين هذا مما جاء في الإسلام . فلم يكدر يبلغ المسلمين تحريم الله للخمر ، حتى أربقت دنانها وأكوا بها فسالت بها الشوارع أنهاراً .

( ٥ )

ان الكثيرين<sup>(١)</sup> من مفكري اوربا الذين عالجوا أزمة الحضارة وأزمة الانسان المعاصر . لم يجدوا غير الاسلام تراثاً وعلجاً للبشرية . فيرناردو يقول : (انا على يقين من أن دين محمد سيكون دين اوربا من غير شك . انه قد أخذ الاوربيون يقبلونه اليوم . وفي القرن التالي سيكون أهل اوربا أكثر معرفة بفائدته اعتقاد محمد في حل مشاكلهم ) : ويقول ولسن روسن في كتابه ثلاثة عاماً في الاسلام : (ولقد وجدت في الاسلام حل المسائلتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرآ ) :

الأولى : في قول القرآن « إنما المؤمنون إخوة »، فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية .

الثانية : فرض الزكاة على كل ذي مال . وتخويل الفقراء حتى أخذنها غصباً اذا امتنع الاغنياء عن دفعها طوعاً .

ويقول أرنولد تويني : ان الاسلام قد قضى على النزعة المنصرية والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الاخاء الاسلامي والمساواة المطلقة بين المسلمين ، وعمل

---

(١) الاسلام في غزوة جديدة للتفكير الانساني المؤلف .

الغرب ان يأخذ بهذا المبدأ الاسلامي لتنجو المدينة الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر الفناء .

ويقول اللورد هنري : لو ندببت لجنة من الانجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الاسلام .

ويقول رينان : وما يدرينا ان يعود العقل الاسلامي الولد والكثير المواهب الى ابداع مدينة أرقى من زميلتها المندثرة . ان فترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوربا المتعجرفة .

ويقول هورتن الالماني : ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .



وإذا كان الاسلام قد واجه حملة الكنيسة والفكر الغربي المسيحي والتبشير من ناحية . فإنه واجه حملة جديدة من ناحية اليهودية الصهيونية ، فقد عمّد دعوة تدمير البشرية في العقود الأخيرة من هذا القرن الى اذاعة الكثير من الأفكار والمفاهيم المنحرفة التي ترمي الى مواجهة الاسلام كمنهج حياة بالخصوصة ، فضلاً عن دعوات التفرقة العنصرية . ومع ذلك فما زال الاسلام مؤملاً على ان يقدم للانسانية الترقي ، وكما خاض الاسلام معركة مع الفلسفة اليونانية في الماضي وما دسَ عليه من إسرائيليات ومفاهيم وثنية ومجوسية ، فإنه يخوض اليوم معركة مع الاخاد والماركسية ، بالإضافة الى اليهودية التلمودية حتى يغيل للباحث والمراقب ان هناك إطباق على الاسلام من كل الجهات ، وان حالة تاريخية شبيهة بإطباق الصليبيين والتنار على الاسلام في القرن الخامس الهجري .

ولقد دفع الباحثون المنصفون موقف العداء والعدوان الذي تقوم به أوربا المسيحية للإسلام حق يقول الكونت كايتاني في كتابه عن تاريخ الإسلام الذي أمضى ثلاثة عاماً في إعداده في عشرة مجلدات ضخمة مبيناً العوامل التي دفعته إلى وضع هذا التاريخ (عام ١٩٢٧) .

ان الديانة الإسلامية هي أقوى دين في العالم بعد المسيحية ، والمسالمون يعملون بقوة إيمانهم على صد تيار المسيحية ، فوقع من جراء ذلك تشارد<sup>٣</sup> بين هاتين الديانتين . وما زالت آثاره باقية إلى عصرنا الحاضر ، وستبقى كذلك قرونًا عديدة ما دامت أوربا المسيحية تعجز عن نشر ثقافتها بين المسلمين رغم الوسائل الفعالة التي تمتلكها .

ومن المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين ان الأمر يعكس ذلك . فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جليلة إلى المسيحية ، إذ لو لم تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسيّة الجامحة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يقم أي دليل على نهضتها – أن تبقى مهيمنة منذ ذلك التاريخ إلى اليوم ، وحالات دون سطوع مدينة العرب ، فماذا يكون مصير غرب آسيا وأوربا في القرون الوسطى المظلمة ، أو لم تحل النهضة البروتستانية ( وهي من نتاج الإسلام ) التي ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسيّة في هوة الانحطاط . بيّنَ أن هذه الخدمات التي قام بها الإسلام نحو المسيحية قد كادت ان تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين أتباع هاتين الديانتين ، فمحجّب وجه الحقيقة عنهم . وورث الأبناء والأحفاد الحقد الشديد .

ثم يشير المؤلف إلى الدقة المتناهية في التاريخ المتحدث عن نبي الإسلام

فيقول : ان الوثائق الحقيقة التي بين أيدينا عن مؤسس هذا الدين (الاسلام) قدر أن نجد أمثلها في الديانات الأخرى . فتاریخ عیسی و ما ورد في شأنه في الانجیل ناقص لا يشفی الغلیل . أما حیاة محمد فان لدينا منها قسمًا مما حقيقةً بحيث يحمل المؤرخین المعاصرین على الاعتقاد بأن محمد شخصية بارزة في تاريخ البشریة ، وانه مشروع كبير ، أحدث أعظم انقلاب في الأخلاق والسياسة بعد المسيحیة .

( ٦ )

ولم يقف أثر الاسلام عند المسيحية وحدها ، ولكنه تعداها الى اليهودية . وأمامنا تجربة ليونولد فابس تلقي الظل الواضح وتكشف الحقيقة : في السنوات السابقة عندما أصبحت قانطاً من دين آبائي وأجدادي ، فكرت في المسيحية بعض الشيء . لقد كان مفهوم المسيحية عن الله في نظري أسمى وأفضل الى حد لا نهاية له من مفهوم المهد القديم ، ذلك أنه لم يقصر اهتمام الله ومحبته على أي جماعة من الناس بل افترض أبوته للانسانية جماء ، بيد انه كان هناك عنصر واحد من النظرة الدينية المسيحية كان ينتقص من عالميته : هي تمييزه وتفريقه بين الروح والجسد ، بين عالم المعتقد وعالم الشؤون العملية . وبسبب من افتراق المسيحية . الباكر هذا عن جميع التزعيات والميلول التي تهدف الى توكييد الحياة والمساعي الدينية ، فقد شعرت انها كانت قد انقطعت منذ زمن طويل عن أن تقدم قوة أدبية أخلاقية دافعة الى المدينة الغربية . فقد ألف أتباعها الفكرة القائلة بأنه لم يكن من شأن الدين أن يتدخل في الحياة العملية . لقد اكتنوا بأن ينظروا الى المعتقد الديني نظرتهم الى تقليد مسكن لم يقصد به ان يغدو أكثر من معنى غامض للفضيلة الشخصية ، وخاصة الفضيلة الجنسية في الرجال والنساء افرادياً ، وكان يساعدهم على هذا اتجاه قديم جداً اصطنعته الكنيسة . اتباعاً لمبدأ الفصل بين ما لله وما لغيره في حقل النشاطات الاجتماعية والاقتصادية - فلم تحدث أبداً تغيير يذكر ، فقد كان نتيجة ذلك

ان السياسة والتجارة المسيحيتين قد تطورتا في اتجاه مختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي كان المسيح قد دعا اليه . لقد فشل الدين الذي اعتنقه الغرب بسبب من عدم تزويده أتباعه بإرشاد ثابت مستقر في شؤونهم الدينية فيما كان في رأيي يبدو انه رسالة المسيح الحقيقة . وانه في الحق المهمة الرئيسية لكل دين : ان يبين للانسان : لا كيف يحسن ويشعر إحساساً وشعوراً صالحين فقط ، بل كيف يحيا حياة صالحة أيضاً ، وبشعور غرزي . فان دينه قد خيب أمله ، وبطريقة ما . فقد الانسان الغربي خلال القرون كل إيمانه الحقيقي بال المسيحية ، وبفقد هذه الإيمان فقد الاقتناع بأن الكون انت كان تعبيراً لقوة واحدة منظمة وانه لذلك كان يشكل كلاً عضوياً واحداً وبسبب انه فقد هذا الاقتناع كان يعيش في فراغ روحي وخلقي .

لقد رأيت في ترك الغرب للتاريخي للمسيحية وانصرافه عنها ثورة ضد ازدراء الحياة التي بشر بها بولس والتي أباحت قديماً جداً وقاماً جداً تعاليم المسيح ، فكيف إذن يستطيع المجتمع الغربي ان يستمر في ادعائه انه مجتمع مسيحي ، وكيف يستطيع أن يرجو دونما إيمان ثابت ان يتغلب على فوضاه الأدبية والأخلاقية الحاضرة .



أما بالنسبة لفهم الغربي للإسلام فان ليوبولد فابس يصور ذلك على النحو الذي شاهده بنفسه في أوربا المسيحية : « كانت ملاحظاتي الخاصة قد أقنعني الان بأن رأس الغربي العادي ، كان يحمل صورة مشوهة بالكلية عن الاسلام وأن ما رأيته من صفحات القرآن لم يكن نظرة عالمية مادية غير ناضجة ، بل على العكس وعيها كثيئاً يعبر عن نفسه ، لقد كان واضحاً عندي ان تأخر المسلمين لم يكن ناجماً عن أي نقص في الاسلام ، بل من عدم عملهم هم أنفسهم بتعاليمه . ذلك ان الاسلام في الحق هو الذي حمل المسلمين الأولين

الى اعلى الدروع الثقافية بتوحيد طاقاتهم كلها نحو التفكير الوعي كوسيلة وحيدة لهم طبيعة خلق الله ، وبالتالي لفهم إرادته . ان الاسلام لم يطلب اليهم أن يؤمنوا بعقائده يعسر او يتغدر فهمها ، والحق انه ما من عقيدة كهذه يمكن أن توجد في رسالة النبي ، وهكذا فان التعطش الى المعرفة التي تميز به التاريخ الاسلامي الأول لم يحمل كا حمل في سائر أنحاء العالم على انه يؤكد ذاته في صراع مؤلم ضد الایمان ، وبالعكس لقد انبثق من ذلك الایمان وسحله » .

وهكذا انكشف الاسلام عن حقيقته للعقل المضيئه التي تبنته والتي درست الاديان المختلفة وقارنت واهتدى الى الحق .



## الفصل الثاني

### أزمة الغرب الدينية

ان الفكر الغربي المسيحي الذي يحاول أن يوجه الصراعات للإسلام عن طريق التبشير والاستشراق والاستعمار رغبة في القضاء عليه او تحريره او إثارة الشبهات حوله يواجه تحدياً خطيراً . فقد وجئت إليه في العصر الحديث ضربتان لا ضربة واحدة ، تلك هما الصهيونية والماركسيّة اللتان ما زالتا تقتلعانه من جذوره وتحويانه على نحو يدمر كل مقوماته ويفسد كل مقدراته .

يقول أحد الباحثين<sup>(١)</sup> : ان التعاليم الماركسيّة والماسونية التي سيطرت على التعليم في البلاد الأوروبيّة وفرقت بين الدين المسيحي والتربية قد أحدثت آثاراً بعيدة المدى . فقد أصبحوا يعتبرون الكنيسة الكاثوليكية كتحفة أورية وعقيدة عتيقة دخلت في حكم التاريخ . وقد أخذت فرنسا تبتعد عن

---

(١) الرسالة : بحث المسيحيّة وأوروبا ١٩٥٢ .

المسيحية منذ القرن الثامن عشر . وقد أصبح إغراقها في الإلحاد في الوقت الحاضر في أقصى درجة ممكنة . ويشمل ذلك عدداً كبيراً من الفرنسيين وبخصوصاً أفالصلهم من ينتعون بتكوينهم محافظين ومن عرفوا باشتئامهم على النظريات القدية .

وقد أشار الراهب ميتوكلار في بحث صادرته الكنيسة الكاثوليكية بعد ظهوره الى أن من يواعث الإلحاد والمكفر والابتعاد عن تعاليم المسيحية كون من سبقهم فيها كانوا من صنوف الرأسماليين يباركون تصرفاتهم في استغلال المال والعملة . فإذا قام فيها من يندد بأعمال الرأسماليين مثل الأب لوكولدير والأب لامفي فان الكنيسة تقاومه وتحرم النظر في كتابه .

وتشير المصادر الى ان الصراع بين اليهودية وال المسيحية لم يتوقف منذ بدأ عند ظهور الأخيرة وتتجددت عن تطويق اليهودية لل المسيحية مرتين : مرة على يد بولس ومرة في المصر الحديث .

يقول الأب الف كونجاري : لقد كان اضطهاد المسيحيين والتنكيل بالشهادة ، في المصور الأولى راجعين الى وشایات یهودیة في عالم كانت فيه تلك اليهودية تبسيط أجنحتها وتنعم بالسيطرة والنفوذ .

وأوضح مارسيل سيمون في كتابه (اسرائيل الجرثومة) ان نزعة مناهضة السامية في أسفار الكهنة المسيحيين القديامي كانت تقابل تعاليم العرسان لل المسيحية في التلمود .

والمعلوم ( ان اليهود رفضوا رسالة السيد المسيح رفضاً تاماً وأوغروا في ذمه والطعن في رسالته حتى نبذوه بما لم ينبد به رسول في تاريخ الديانات قاطبة ) .

وبينا تكشف المصادر على كراهية اليهودية للمسيح ومعارضتها له ،

يشير الباحثون الى احتواء اليهودية المسيحية وتغييرها تغييرًا جذريةً .

وقد أشار أرنولد تويني وهو المؤرخ العالمي المسيحي الاتجاه في كتابه مختصر دراسة التاريخ<sup>(١)</sup> ، الى [ تحول المسيحية الى فكره الإله الفيور ] ويحاول ان يبحث هذا التحول فيقول : ما هو السبب في تقبل المسيحية مرة أخرى : الفكرة العقيدة اليهودية الأصل عن الإله الغير ، ويقول ان هذه الردة قد كبدت المسيحية خسارة روحية جسمية منذ ذلك الحين . كان الثمن الذي دفعته المسيحية في كفاحها الممرين : كفاح الحياة او الموت مع عبادة قيسار .

ويقول : ان يهوه إله اليهود من سماته الغضب والقسوة والبطش ، وعدم التسامح . ويعني المؤلف ان المسيحية الجديدة قد واجهت بين فكرتين متناقضتين .

الأولى : فكره البطش وعدم التسامح .

الثانية : فكره الحبة والتسامح التي تقوم عليها دعائم المسيحية الأصلية . وهذا التعليل صحيح والتاريخ يؤكده والواقع ثبت صحته .

فال المسيحية تدعو الى الأخلاق ، واليهود يدعون الى إزالة كل قيد على الحرية البشرية وأوربا الآن تأخذ بفهم اليهود وتدع مفهوم المسيحية ، وال المسيحية تحترم الربا ، واليهود يقومون على تجارة المال . وأوربا الآن تأخذ بفهم اليهود وترفض مفهوم المسيحية ، وال المسيحية تدعو الى الزهد ، ويقول المسيح ان ملكتي ليست في هذا العالم ، واليهود يدعون الى الاحتلال مطامع الدنيا ، والغرب الآن يأخذ بأسلوب اليهود ويدع مفهوم المسيحية .

---

(١) ج ٣ ص ١٦٧ ( مختصر دراسة التاريخ ) تويني .

ومعنى هذا ان الفكر اليهودي التلمودي قد سيطر سطراً كاملاً على الفكر الغربي واحتواه ، وأن قبول الغرب للدعوات الليبرالية والاشراكية هو بثابة تحول عن طابعه المسيحي وقضاء على الذاتية الغربية التي شكلتها المسيحية .

ولا ريب ان ما حققه اليهودية منذ الثورة الفرنسية الى اليوم يمثل أخطر تحول في التاريخ البشري كله فقد كانت أوروبا قد ضيق احتناق على اليهود وحصرتهم في الجيتو ، وفرضت عليهم أزياء وأوضاعاً معينة . وأصدرت عشرات القوانين التي تحول دون اندماجهم في المجتمع المسيحي ، وأصبح اليهود علماً على تلك الفتنة المنبوذة التي تقوم على الاقراض بالربا . غير ان اليهود استطاعوا أن يحطموا قيود الكنيسة والمسيحية . وأنشأوا عشرات الجماعات السرية تحت اسم المسؤولية ، وجعلوا هدفهم تدمير البابوية ونفوذ الكنيسة . وقد استطاعوا أن يحققوا ذلك بإسالة الدماء أنهاراً في الثورة الفرنسية وثورات أخرى في أنحاء أوروبا باسم عصر التنوير واستطاعوا بعدها تدمير وحدة الكنيسة المسيحية ، وإقامة القوميات ، وإنشاء مبدأ حرية المواطن دون النظر الى دينه . وبذلك تزقت الوحدة الاوربية المسيحية . واندلع صراع القوميات ، ومذاهب العنصرية ، وانقسمت أوروبا الى دعوة الدم الابيض والجنس التوتوني وألمانيا فوق الجميع . وبذلك خلق اليهود القوميات وجعلوها تتصارع على نحو يحول دون تجمعات كبرى ، وهدموا الامبراطوريات الكبرى ، وسيطروا على كل شيء ، وتحولوا اقراض الربا الذي كان موضع كراهيتهم والحقد عليهم الى نظام المصارف الشرعية الحرة . واحتفلوا به وراء الأسهم والسنديقات ، وسيطروا بذلك ليس على المال والاقتصاد وحده فهم الدين وضعوا العالم كله في إطار النظام الربوي ، وإنما سيطروا على الثقافة والأدب والطبع والصحافة والإعلام ، وأصبح إنشاء

دوائر المعارف وطبع الكتب والمؤلفات في أيديهم ينبعون منه ما يشاؤون مما لا يتفق مع أهدافهم وغاياتهم .

ومن ثم استوعب اليهود الفكر الأوروبي وسيطروا عليه ، وطرحوا عليه نظريات فرويد وماركس وليفي بريل ودوركايم وسارتر وغيرها مما غيرت أصول الفلسفات المثالية التي وضعها المسيحيون بديلاً للدين بعد أن تخلىوا عنه . وهكذا خطأ الغرب خطوات واسعة : كانت أولًا محااربة المسيحية والتحرر منها إلى نظام فيه طابع الأخلاق والقيم قائمة على أساس القلب وتحت عنوان الفلسفة المثالية ، غير أن اليهودية استطاعت أن تسيطر على الفكر الغربي ، وتدفع إليه مفاهيم التلمود ومناهج الصهيونية مصوحة في أسلوب علمي تحت اسم الفلسفة المادية . وكانت أخطر ثمار اليهودية التلمودية : النظرية الماركسية وبذلك سقطت المسيحية الأوروبية في أنياب اليهودية التلمودية حق وصلت سيطرتها إلى النخاع ، على نحو حمل البابوية والكنيسة الكاثوليكية على تبرئة اليهود من حماولة صلب المسيح ، وهذا أخطر ما وصلت إليه اليهودية في السيطرة على المسيحية والفكر الغربي كله .



وقد أفضلت الأبحاث عن صراع اليهودية وال المسيحية في الغرب ، ومحاولات اليهودية التلمودية في السيطرة على المسيحية والتفكير الغربي ، وكانت فكرة الريا هي كبرى قضايا هذا التحدي .

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : احتكر اليهود في العالم المسيحي النشاط المالي طوال القرون الوسطى وسيطروا سيطرة شبه تامة على التجارة المحلية والعالمية ، وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوروبية ان لفظ يهودي (Judaas) في الغرب الأوروبي أصبح مرادفًا للفظ تاجر (mercator) .

والمعروف ان الكنيسة في العصور الوسطى حرمت أكل الربا الذي نهى عنه الانجيل والمسيح . ولذلك لم يجرؤ مسيحي في تلك العصور على المجاهرة بأقراض المال بفائدة . فاستغل اليهود هذه الظاهرة التي تتفق وأخلاقهم وحبهم للمال . واحتكروا النشاط المالي في غرب أوروبا على أوسع نطاق فأقرضوا الفرسان والأمراء ، بل أقرضوا الكنيسة نفسها لتمكن من إقام منشأتها الضخمة الباهظة التكاليف .

وبذلك وقع الاوربيون فريسة للديون وأرباحها الفاحشة وفوائدها ، وهكذا تلقت ملوك أوربا وأمراؤها وفرسانها وأساقفتها وعمامة الناس فيها فوجدو أنفسهم أمام شر اذم من اليهود تعيش بينهم ولا ترعى فيهم إلا ولا ذمة يزدادون غنىًّا ويزدادون هُم فقرًا يتصون دماءهم وينتزعون ممتلكاتهم .

وكان هذا هو السبب الرئيسي لما تعرض له اليهود على أيدي المسيحيين في غرب أوروبا من كراهية تحولت أحياناً إلى اضطهاد .

وي يكن القول تأسيساً على ذلك بأن ما حدث نتيجة هذا هو تغير مفاهيم المسيحية وتحولها إلى تطبيق منهج اليهود في إباحة الربا .

ولقد كانت مؤاساة اليهود على يد المسيحية في هذا الوقت أزمة كبيرة . فقد كان الحكام المسيحيون بعد زوال دولة المسلمين بالأندلس يحرقون اليهود بالجملة ، بل قد أصدر فرناند وإيزابلا قراراً عام ١٤٩٢ م بطرد جميع يهود إسبانيا في مدى أربعة شهور دون أن يسمح لهم بنقل أموالهم وتراثهم ، فنزع معظمهم إلى المغرب وشمال أفريقيا . ولا أدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي في الوقت الذي أمرت الكنيسة في غرب أوروبا بتحطيم هياكل اليهود .

أما في المشرق فقد أكرم صلاح الدين اليهود ، إلا أنه اكتشف مؤامرة للقضاء على حكمه في مصر عن طريق الاتصال بالصلبيين و تولى كتابة الرسائل لهم أحد اليهود في مصر .

وإذا كانت اليهودية قد حاولت حرف المسيحية عن أهم أهدافها ، وهو الرحمة فلا ريب أن الكنيسة قد استجابت لذلك مرة أخرى ، أو أرغمت عليه حق يقول برتراندرسل انه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد واحد هو المسيح . ويقول الدكتور أمير بقطر ، لقد ضاعت من نفوس الكثيرين الثقة بما يسمونه في أوربا وأمريكا بالخلق المسيحي ، فقد انها هذا الخلق في كثير من البلدان .

ومن هنا استشرت الأزمة الدينية في الغرب وجرت المحاولات لتصحيح الموقف ، فقد كان العلم الحديث بدعوه إلى حرية النظر واطلاق العقل من قيوده خظراً كبيراً على المسلمات القديمة كالتجسيد والثالوث .

ويقول أحد الباحثين في ذلك : إن كثيراً من المعتقدات التي لم تعد ليوم « حقائق إيمانية لا يمكن أن تنفي » لأنها فوق العقل كانت في القديم مقبولة من العقل بل مستوحاة منه . ففكروا التجسيد والثالوث وغيرهما كانت قريبة إلى التأملات الأفلاطونية ومنسجمة مع الآراء الميتافيزيقية في القرن الثالث والقرون الوسطى . فكان الذي دفع الأقدمين إلى الاعتقاد بها هو نفسه الذي يدفعنا اليوم إلى عدم الاعتقاد . وقد تجلّى ذلك في مواقف كثيرة نشهدها في مصر الحديث ، منها وقوف كثيرين من عمالقة الدين المسيحي في المجامع العامة لمارضة بعض المسلمين . فقد نشرت مجلة « ليف » الأمريكية في نوفمبر سنة ١٩٦٧ إن عميد كلية اللاهوت في نيويورك قام بنوع من الثورة . وقد ترتب على ذلك أن حكم رجال الكنيسة أن اليهودية تهدم المسيحية وأن الإسلام يهدم اليهودية والمسيحية مما بتهمة التكذيب في الأنجليل . وإن الرجل لا يعتقد بالعجزات التي وردت في الأنجليل .

وقال الرجل أمام الجميع: أولاً أنت تتكلمون عن الانجيل ولا يوجد انجليل ، إنما توجد عدة أناجيل . وان أي حادثة واحدة من المنسوب الى السيد المسيح نجد كل إنجيل يذكرها بطريقة مختلفة . ويبعدوا ان الحقيقة حاجة أخرى غير ما في الأنجليل ، وان أول إنجيل كتب بعد وفاة المسيح بعشر سنوات . وذلك الوقت الذي كتب فيه الانجيل لم يكن أحد من شهدوا المسيح موجوداً شاهد عين . ثم بأي حق تفرض الكنيسة إيماناً معيناً على الناس ، او تفرض عقيدة معينة على الناس .

ولقد عمدت اليهودية التلمودية الى طرح الاغريقية مرة أخرى ( وهي من اليهودية ) على المجتمع الغربي بختلف مفاهيمها السياسية والاجتماعية .

أما مفهومها السياسي ( كل ما عدا الاغريق برابرة ) فهو واضح في التطبيق السياسي الذي تقوم به اوربا المسيحية في المستعمرات حيث تعامل الملوّنين على أنهم جنس أقل من حيث المكانة البشرية من الجنس الأبيض ، ثم تدعى الى التحضر عن طريق التبشير المسيحي .

فهذه النظرية الاغريقية الرومانية الوثنية قد اعتنقتها الغرب المسيحي اليوم ، وكانت عاملاً هاماً في تأييده قسوة الاستعمار على الشعوب غير المسيحية .

أما مفهومها الاجتماعي في الإيمان بالملادة وأصولها محل الإيمان الديني ، وبناء هيكل الحضارة الربوية والإباحية القائمة على لذات الجسد وتضخيم عالم الحس وإرادة الدم والقتل والتمثيل والتعذيب . فقد ذهبت فيه الحضارة الغربية الى أقصى حدّ .

ولا ريب ان الحربين العالميتين كانتا من أخطر مؤامرات اليهود على الغرب المسيحي ، ومع ذلك فان أحداً لم يتتبّع لذلك التنبؤ السكافي حتى يقول ملك بريطانيا

الملك جورج يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٣٩ : إنني أؤمن من أعماق قلبي بأن القضية التي تربط شعوبينا معاً وتربيطنا بحلفائنا المخلصين للأجداد ( هي قضية المدنية المسيحية ) وليس ثمة قاعدة أخرى يمكن أن تبني عليها مدنية صحيحة .

وبينما كان يقول الملك جورج هذا في أوائل الحرب العالمية الثانية كانت الكتابات اليهودية تقول : العمل على بناء حضارة مسيحية يهودية ، ثم لم تثبت ان قالت : انتظروا الأمل الذي سيتحقق للبشرية كل سعادتها: الحضارة اليهودية الصهيونية التلمودية .

وقد أشار أندريل سجفريه في كتابه أزمة اوربا (*La Crise de l'Europe*) الى انهيار اوربا بعد أن سادت العالم مدى ثلاثة قرون لأنها أخضعت فيه الاخلاق المسيحية لسلطة الفتح واعتبرت ذلك من الأمور المشروعة .

وأشار سلامة موسى : الى ان الأزمة الاوربية هي أزمة دينية : وقال ان المقائد القديمة تزعزعت بحملات العلم المتواتلة عليها ، ولم يتم مقامها شيء لأن العلم لا يمكن ان يكون عقيدة ، وان هناك اليوم ملحدون يدعون الى الدين ، ولكنهم يطلقون عليه أسماء مختلفة مثل الروحانية او البشرية . او قداسة الحياة ، ومنهم برتراندرسل الذي لا يفتئ يهدم المقائد الدينية بين المسيحيين . وقد تزايد اعتراف المسيحيين بخطر اليهودية الجديدة عليهم .

يقول الدكتور وليم سليمان في كتابه عن المسيحية واليهود : لقد استطاع اليهود في الغرب ان يحرروا المسيحية . وانشر تيار فكري يحمل نقطة بدايته ( موت الإله ) وينادي بمسيحية لا دين فيها ، وينادي بهذه الأفكار ( بتلوفن وبليثان والأسقف الانجليزي جون رونيسيون ) .

« وان الدين لدى الغربيين لم يمد له في نظرهم قيمة في ذاته وانه شيء

يُكَن الاستفادة منه لتحقيق الاهداف الدينية التي ينشدُها الغرب في شتى أنحاء العالم ، وان المسيحية انتحرت في اوربا بانضواه رجال الكهنوت تحت راية الصهيونية ، وتسابق شق الكنائس لارضاة اسرائيل وتلقي اليهود . وأشار الى قرار مؤتمر الكنائس العالمي ١٩٦٤ في جنيف الذي يقول : ان الكنيسة لا تستطيع ان تتجاهل "ثقل مسؤوليتها العظيمة عن آلام اليهود وضياع طول تاريخهم" ، أي ان الكنيسة تتطلب المغفرة من اليهود . ويصل الكثيرون الى القول بأن النظريات العلمية التي هزّ أركان العالم قد استطاعت ان تؤثر في النظم الموروثة الاوربية ، وان تحدث فيها شرخاً كبيراً ، وان اليهودية العالمية تستغل المنهج العلمي لتحطيم كل القيم الانسانية المسيحية في الاخلاق والنفس والعقائد والاجتماع ، وان كل النظريات الحديثة التي قاومت مفهوم الدين الغربي هي من صنع اليهود ، وهم الذين ينشرونها على أوسع نطاق ويدعون لها ويحرضون القصاصين والمسرحين على إدخالها في كل مجالات الاعلام ، ولا أدل على ذلك من استشارة الفرويدية والوجودية والهيبية .

ومع الأسف فقد استسلمت الشعوب المسيحية لسلطان الفكر اليهودي الذي احتوى الفكر الغربي وصادر مفهوم المسيحية السمحاء وسلمت نفسها الى الايديولوجيات ، لأن الدين المسيحي لم يستطع ان يسدّها بالبناء الفكري الكامل الذي يستطيع ان يفسر الاضاع الاجتماعية في المجتمع ، وان ينحوها الأمل والمثل العليا في مستقبلها ، ولكن الاسلام غير ذلك<sup>(١)</sup> .

وفي هذا يقول فيلسكس فارس : بالرغم من أن الغرب قد بدأ فلسفته المسيحية ، فإنه لم يتمكن من إ يصل الاسلام الى ضميره . كما انه امتنع عليه

(١) محمد يحيى الماشي في التعليق على كتاب المادة والتعبير .

ان يبلغ بال المسيحية الى فطرته ، وبقي النزاع مستحکماً فيه بين الفطرة والضمير ، لأن ثقافة المسيحية لم تزل متأثرة بالأحادي والمعيبات .

ويرد أرنولد تويني<sup>(١)</sup> الأزمة كلها « الى اهتمام المسيحية بالانسان نفسه مفصولاً عن المجتمع » ولا أدل على صدق تويني من ان ألاف المسيحيين اليوم قد تحولوا عن المسيحية الى الماركسية وإلى الإلحاد .

---

(١) كتاب المادة والتعبير .

( ٣ )

ويحمل المؤرخون المسيحية مسؤولية فظائع سانت بارتلي وهي المذبحة التي قامت بين البروتستانت والكاثوليك ، وأمر بها شارل التاسع ( ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ ) ومذبحة (الاليجواه) وهي طائفة دينية انتشرت في القرن الحادي عشر بجنوب فرنسا . وقد أمر البابا أنطوان الثالث بإبادتها عن آخرها ، وقتل في حرب الكاثوليك مع البروتستانت ١٦٠ ألف ، وقتل ( توركارا الدومينيكي الإسباني في ١٩٤٨ م ) ستة آلاف إنسان بالنار .

ويعد البابا كوبيلوري للناس (المتوفى في ١٢٤١ م) هو المسؤول عن إيماد محاكم التفتيش التي ملأت قلوب الناس رعباً في العصر الوسيط . وقد اعتمدت البابوية في محاكم التفتيش على الدومينيكان الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله في اصطياد أهراطقة للمحافظة على الكنيسة .. وقد اعتمدت محاكم التفتيش على التعذيب لاجبار المتهمن على الاعتراف وتذرعت بالقوانين اليونانية ، وقد ظلت محاكم التفتيش تعمل ثلاثة قرون ، وكانت في تقدير المؤرخين المنصفين مصدرأً لأنفراط عقد الوحدة المسيحية الفربية، وقتل ديوان التحقيق في إسبانيا وحدها على حد قول رئيماخ نحو مائة ألف نسمة .

●

وقد تعرض كثير من الباحثين للتساؤل عن تصرف المسيحية هذا ، وقالوا ان روح المسيحية تنكر القتال على إطلاقه .

وقال المؤرخون « ان تاريخ <sup>(١)</sup> المسيحية أمامنا شاهد عدل ، و تاريخ  
الاسلام أمامنا شاهد عدل ، فمنذ فجر المسيحية الى يومنا هذا خضبت أقطار  
الارض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح ، خضبتها روما و خضبتها امم اوربا  
كلها والحروب الصليبية انما اذكى المسيحيون ولم يزالوا يذكون اوارها في  
مواجهة المسلمين والاسلام .

وظلت الجيوش باسم الصليب تتحدر من اوربا خلال مئات السنين قاصدة  
أقطار العالم الاسلامي تقاتل و تحارب و تهرب الدماء » وفي كل مرة كان  
البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت  
المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة .

أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة ، وكانت مسيحيتهم زائفة أم كانوا  
أدعية جهلاً لا يعرفون ان المسيحية تتذكر القتال على إطلاقه ، أم يقولون :  
ذلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام ، فلا يحتاج على المسيحية بها ،  
ولكن الامر تجدد من بعد على صورة أشد فتكاً وتعرض المسلمين في آسيا  
وأفريقيا الى محن قاسية تحت سلطان الاستعمار الغربي ونفوذ الحضارة الغربية  
المسيحية .

لقد رأى العصر الحديث ما رأت تلك العصور الوسطى وأشد حزن وقف  
اللورد النبي مثل الحلفاء يقول في بيت المقدس في سنة ١٩١٨ حين استيلائه  
عليه أثناء الحرب الكبرى : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » يحدث هذا  
بينما يقول السيد المسيح : « ان مملكتي ليست في هذا العالم » ، ويحرص  
المسلمون على أحكام غاية في العدل والسماحة في كل أرض يصلون إليها ، مع  
ان الاسلام هو إقامة مملكة الله في الارض .

---

(١) عن بحث الاستاذ خليل .

ويقول المؤرخ هرتشو : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفazines العلم والمعرفة . لقد بدت أشباههم من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا «الكافار» الذين كانوا ينكرونها من الناحية اللاهوتية دياناتهم على حضارة دينوية ترجع حضارتهم رجحانًا لا تصح معه المقارنة بينها . وإذا كان لنا ان نضيف شيئاً الى ما قاله المؤرخ هرتشو فهو ان المسلمين قدموا الى الصليبيين : السماحة والخلق والعفو، وقدمو لهم صورة الاسلام في السلوك والحياة ايضاً الى جانب ما قدموا من علم وحضارة .

لقد ارتكب النصارى المسلمين في الحروب الصليبية من المنكرات والتمثيل ما يعجز عنه الوصف وحيث تحطمت آمال المسيحيين الاوربيين في العالم الاسلامي إزاء بأس صلاح الدين باسم الاسلام فانه عاملهم معاملة كرية كما رجموا ، بل أرسلوا جيوب شهير فوراً لكتشاف موانيه البلاد الاسلامية وجزر الهند الشرقية ليحتلواها ويطوقوها عالم الاسلام مرة أخرى .

( ٣ )

ومع ذلك كله فما تزال الصيحات تتمالى حول السؤال التاريني : هل المسيحية في ازدهار ، وهل تستطيع أن تتنفس الحضارة .

يقول الاستاذ عبد الكريم الفارسي : اذا كانت المسيحية كثيرة الأفراد فان المسيحيين قليلاً المسيحيية لا تسيطر المسيحية على أكثرتهم الا بقدر ما تسيطر عليهم التقاليد والمواند ، فقد أصبحت في أكثر الأقطار ظاهرة اجتماعية أكثر منها معتقدات فلسفية وتعاليم وأخلاقاً ، وان أهل المدن أصبحوا يعتبرون الكاثوليكية كتحفة أوربية وعقيدة عتيقة دخلت في حكم التاريخ لا حاجة بالناس لاضاعة الوقت لمناقشتها ، لقد أخذت فرنسا تبتعد عن المسيحية منذ القرن الثامن عشر ، وقد أصبح اغراقها في الالحاد في الوقت الحاضر في أقصى درجة ممكنة .

من أخطر الكتب التي ظهرت في أوربا كتاب المواث و الإيعان للراهب منتوري كلار . وقد صادرته الكنيسة الكاثوليكية ، وليس هذا هو الكتاب الأول الذي صادرته الكنيسة فان عدد الكتب المحظورة قرأتها على الكاثوليك هي أكثر من خمسة آلاف كتاب . منها : مؤلفات مستيريليك ، واميل زولا وربنان ، وجان جاك روسو ، وديماس الأب ، وديماس ابن ، وديكارت ، ولامينيه ، وفكتور هيجو .

ويرى أونامونو في كتابه : « اختصار المسيحية » ان المسيحية لا صلة لها بالأنظمة السياسية (ديمقراطية او دكتاتورية) او بالأنظمة الاقتصادية: اشتراكية او رأسمالية .

فاليسجحية عاجزة عن أن تخل مشاكل الفقر والغنى ، او توزيع الثروات . فقد أتى المسيح الى الأغنياء والفقراة ، الى العبيد والطغاة .

ويعدى أونامونو بجسم الأنظمة السياسية والاقتصادية للعصر ، يعادى الفلسفة ، ويناصر أعداء الثورة الروسية ، ويرى ان البلاشفية قد استبدلت ماركس بال المسيح ، وسنوفسكي ببيولس ، والإخوة كرامازوف بأعمال الرسل . وهو يرفض فلسفة الاشتراكية لأنها علمية ، والاشراكية في رأيه دعوة خلقية باسم العدالة الاجتماعية وباسم الدين ، بل يرفض كل محاولة للتقرير بين الكاثوليكية والاتجاهات العلمية كالوضعية مثلاً ، لأن الوضعية كالبلاشفية : اتجاه مادي نحو العالم . فالدين صراع ، أما الوضعية فلا حياة فيها .

ويرفض أونامونو : الاستشهاد في سبيل المبادئ السياسية ، لأن ذلك ايمان بالأوصنام ولا يريد ان تختلط الروح الدينية بمنادية العالم . واليسجحية شيء فردي محض ، يستحبيل ان يدخل الدين في سياسة الحزب او في المعرفة الإنسانية . واليسجحية أقرب الى التجربة الصوفية والأسطورة الشعبية ، بل ان الدين ليستحبيل ان يتتحول الى قانون او تشريع . وبذلك يصبح أو غلطين من عبادة الحرف باعتباره مشرعًا . فالواجب والقانون عاطقان دينيتان لا يدخلان في نطاق التشريع او القانون .

ويقصر أونامونو : الدين على العبادات ويفصل عنه المعاملات ويراه علاقة بين الإنسان والله ، لا بين الإنسان والانسان ، فما لقيصر لقيصر ، وما الله الله . وينتهي الى ان الديمقراطية المسيحية خرافية ، والاشراكية المسيحية خرافية ، وان المسيح لم يتحسّد عن الملكية الفردية نفياً او إثباتاً ، وهو

ليس ديمقراطياً او جمهورياً او ثوريّاً ، بل كان إنساناً ، كان يهودياً ضد الاتجاهات الوطنية لبني قومه ، ضد الكهنة والفارسيين .

وأخيراً يرفض أو نامونو ان يتتحول الدين الى حضارة . ويقول : فقد احتضرت المسيحية يوم ان تحولت الى رومانية او مدنية غربية . لقد طفت الوثنية على الدين الجديد ، وعلى الدين ان يرجع للسيّح . فالمسيحية مجرد تجربة صوفية لا صلة لها بالأرض ولا بالسماء ، ولذلك فإن المثل الأعلى هو الراهب ، وهذه وجهة نظر اخرى في شأى المسيحية يقدمها الفكر الغربي .



وهناك كولن ولسن وتساؤله : هل تستطيع المسيحية ان تنقذ الحضارة «حضارتنا» فان لم يكن في وسعها ان تفعل ذلك فلماذا ؟

هكذا يتتسائل كولن ولسن في كتابه سقوط الحضارة ، وكولن ولسن من «درة التلمود» ومعنى هذا ان اليهودية هي التي تحكم الان على مصير المسيحية .

يذكر : كان هناك عامل أشد أهمية في نشوء المسيحية هو تنصر يهودي سابق كان يضطهد ، المسيحية هو القديس بولس ، كان بولس مختلفاً كل الاختلاف ، عن المسيح ، كان المسيح عملياً خالياً من كل معنى للخطيئة ومن كل فاقع عصبي آخر وكان (بولس) مفكراً أكبر من المسيح ، ولعله كان يشبه (كيركزجارد) مشوهاً مضطرب الصحة ذكيًا تشغل باله مسائل كثيرة كالموت والعنف والألم وتهيمن عليه فكرة الخطيئة ويمدبه النقد الذاتي الذي لم يكن يحرض ارادته على صنع نفسه .

أجل ، لقد كان بولس مختلفاً جداً عن المسيح ، كا ان الدين المسيحي الذي اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس .

أكذ بولس على فكرة نهاية العالم . والنماذج الحديث من طراز بولس ومزاجه هو ( ت.س.اليوت ) بكل ما في قصصه : الأرض ، الفقير ، الفارغون ، موجود في رسائل بولس . وكان بولس مثل اليوت يعتبر الماضي وسيلة للتعويض عن الحاضر .

ركز بولس اهتمامه على فكرة الألم والموت والتفاهمة ، وقد دعاها بولس الخطيئة الى ان شعر يأنه أقوى منها . واستطاع بولس بهذا أن يتمغض عن فكرته التي جعلت من المسيحية دينًا عالميًّا ، وهذه الفكرة هي ان المسيح مات ليخلص البشر من خططيتهم ، وبعد كل هذا نجد ان فكرة صلب المسيح قد ساعدت بولس على السيطرة على نفسه . فإنه من الواضح ان موت المسيح ساعد بولس على الحصول على حياة أشد تركيزاً وعلى تعميق إدراكه لمعنى الحياة وعلى توسيع مفهومه للهدف .

وإذا كان موت المسيح قد أنقذ بولس من تفاهته . فلماذا لا يحدث ذلك بالنسبة للبشر الآخرين أيضاً . من هنا نشأت فكرة تخلص البشرية بذلك . ان المسيح مات لينقذ البشر ، ولما كان بولس قد قرأ العهد القديم فقد استطاع ان يجعل هذه الفكرة الى عقيدة قوية . أما في أعماقه فقد كانت هناك رؤياه التي كانت تشعره بأن جميع البشر يولدون مخطئين ، وأعطاه العهد القديم سبباً لذلك : عصيان آدم ( رغم ان المهدف من وجود الاسطورة في الإصلاح هو تفسير وجود الألم والشقاء في العالم ، وليس تفسير عدم كمال البشر أنفسهم ) .

وأعلن بولس : أنها خطيئة آدم ان يولد البشر خاطئين ، ولكنهم

يستطيعون الآن إلقاء الخطايا على المسيح ، وبهذا يصبحون كاملين . « شعر بولس ان البشر جميعاً مخطئون ، وقبل اعتناقه المسيحية كان هو نفسه نوذجاً حقيراً .

أما تعاليم المسيح وموته فقد أعطيها بولس مفهوماً للمهدف ، وبالتالي احتراماً للنفس . وهنا كف بولس عن كوفه إنساناً صرصاراً ، ودخل في مرحلة الرجل العملي ، وصارت المشكلة لبولس كا كانت بالنسبة للمسيح وفق رؤياه عن البشر ، لماذا لا يكون البشر ك الله ، وكان جوابه بسبب عصيان آدم ، ولكن هل كان هذا يعني ان آدم كان ك الله .

ان سفر التكوين لا يقرر ان آدم كان يساعد الله في خلق حياة جديدة ، وإن السقطة كانت فردية . وهكذا فإن عقيدة بولس في المسيح تهادى كلما أوغلنا في الاختبار .

أما بالنسبة لوضع الانسان في العالم ، فإن هذه العقيدة تفرض ان الانسان في أساسه غير كامل وان هدف النهائي هو أن يصبح مثل الله ، ولكنه لا يدرك كما فعل المسيح ان الانسان لا يستطيع ان يصبح مثل الله بمحض نفسه . وعلى أية حال ، فإن عقيدة بولس هذه قد صارت أساس المسيحية والمعود الفكري للكنيسة . ولكن هذه العقيدة نفسها عرضت الكنيسة الى النقد أيضاً الذي وجهه نি�تشه – اذ قال : ان المسيحية هي دين الكلاب .

لقد كانت دعوة المسيح في جوهرها دعوة الى النظام والقوة ، أما بولس فقد سوطها الى دين صار ملذاً للمذعورين والخائفين ، أما الأقواء الذين انتموا الى الكنيسة كالقديس أوغسطين وجورج فوكس فقد فعلوا ذلك للسبب المعاكس ، وهذا أساس النجاح الذي صادفته المسيحية واتساع دعوتها وشمومها

القوي والضعف . وقد عبر نيته عن احترامه لمؤسس المسيحية واحترامه للقديس بولس الذي سماه ( بسكال اليهودي ) وقال عنه انه مثال الى الخرافات والمكر ، وانه رجل مصاب بشعوره بعذابه الشديد الى درجة ان المرء ليمرني له .

ويقول كولن ولسن : ان قول المسيح : كن سيد نفسك قد تلاشى وحل محله المسيح آخر من اختراع بولس ، المسيح يقول : اعتبروني سيدكم وبذلك تحصلون على شفاعتي في يوم الدينونة ( لأنني تفاهمت مع أبي الذي في السموات واتفقنا أن أموت بشرط ان أكون حاكماً وخلصكم ) .

وهكذا فان المسيح بولس يستعمل قلوب الناس أكثر من المسيح الاصلي . وكانت النتيجة انتشار المسيحية الهائل ، ولم تعد المسيحية بعد بولس فكرة ( خاص نفسك ) وإنما صارت ( دعني أخلصك ) وهذا السبب يجد برزاردو شيسميها الصليبية بدلاً من المسيحية ، وبعد موت المسيح بزمن طويل انظر الناس يوم الدينونة بفارغ الصبر ، ولما لم يحدث ذلك فسروه برحة الله وصبره ، واعتبروا أنفسهم محظوظين .

وهنا لم يعد يوم الدينونة ركيزة المسيحية ، وحلت محل ذلك فكرة بولس القائلة بأن المسيح هو مخلص البشر لأن اليوم امتد الى المستقبل البعيد .

ان الامتناعي الذي يقف ضد العالم يجد في الكنيسة الملاذ الكامل بالنسبة اليه ، لأنها تعلن : ان ملكوتي ليس في هذا العالم .

ولكن الامور سارت في غير طريقها الصحيح ، فصارت الكنيسة قوية ،

واشتدت بذلك صلفاً وغروراً ، كما قال توبيني ، واشتد ميلها الى السلطة ولم يهد الامم من يحتملونها . ثم ظهرت قوى مند القرن الحادى عشر اعترضت على بيع وشراء ترقيات الكنيسة ومناصبها وبقية الخازى ، وخاصم جون وتکلیف الكنيسة ، وأعلن ان البابا ضد المسيح ، ثم ظهر لوثر فهاجم الكنيسة وبدأ بهاجة قبول المال مقابل غفران الخطايا وأکد كالفن وهو مريض أيضاً على فكرة المسيح الخلاص ولهذا فان نتيجة الاصلاح البروتستانتي لم تكن إصلاحاً مسيحيّة وإنما كانت إصلاحاً مسيحيّة بولس .

وأتفق زعماء الاصلاح لوثر وكالفن وغيرهما من الكنيسة الكاثوليكية على شجّب كونزنيكوس وسجن حبوبارنو بروتو لأنّه قد أيد نظرية لكوبرنيكوس وأحرق ، ونظرية كوبرنيكوس تقول : إن الأرض تدور حول الشمس ، لا الشمس تدور حول الأرض .

وقد رجع البروتستان والكاثوليك مما إلى الانجيل ليثبتوا أن الأرض هي مصدر الكون وأن الشمس والقمر والنجوم خلقت لتذهب الأرض الضياء ، ثم يصل كران ولسن إلى نهاية المطاف الطويل ليقول : « حاولت أن أبين أن المسيحية لم ترتكز على تعاليم المسيح ، وإنما ارتكزت على عقيدة ميتافيزيقية اخترعها بولس ، وصارت أساساً للكنيسة الكاثوليكية التي حملت بذرة فدائها معها ( لأنّه لم تكن هناك الا خطوة صغيرة بين القول بأن المسيح يستطيع ان يخلص البشر من خطاياهم وبأن الكنيسة تستطيع ان تفعل ذلك مقابل المال ) .

ولما ثار لوثر ضد الفساد استخدم فكرة المسيح الخلاص أيضاً لتأسيس

كنيسة الجديدة ، ولكن المعاصر العلمي كان يطبق على الدين شيئاً فشيئاً ، وهو الموقف الذي يواجهنا اليوم فالكنيسة لا تزال تستخدم فكرة المسيح الخالص باعتبارها حجر الزاوية . هذا موقف يتشلّ تياراً آخر من تيارات الفكر الغربي .

ويشير فيسبرتهوفت في كتابه : الكنيسة المعاصرة التي تفتت وحدة العالم المسيحي إلى مجتمعات مسيحية متعددة وكثائق مختلفة ، وخاصة بعد حركة الاصلاح التي قام بها لوثر ، وكان من نتائج التجزئة والتقطيب ذلك الصراع الدامي بين المسيحية بمثابة في كنائسها من ناحية وبين العلوم الطبيعية والحرّكات الداعية للتزعّلة الفردية والأنسانية .

وأشار الكاتب إلى خصوم المسيحية : فيتشه وكارل ماركس وكانت وقال أن ممثلي الكنائس المسيحية في الغرب يشعرون بأنهم في موقف الدفاع عن النفس في وجه القوى العلانية التي اجتاحت مجتمعهم بقوة وعنف . ويرى أن تنازل المؤسسات المسيحية لقيصر تنازلاً شبه ثام عن كل ما يمت لقيصر بصلة ، والاحتفاظ لنفسها بما تبقى . ويرى أن هذه التسوية بخاج كبير أحرزته الكنيسة لأنه خلاصها من ارتباطات تقليدية لا تمت في حقيقتها إلى الكنيسة بصلة ، وأعلن الكاتب أسفه لضياع هذا العالم المسيحي الموحد حيث لا تمييز بين الكنيسة والمجتمع والدولة .



ولا ريب أن هذه الابحاث والدراسات تكشف عن موقف الاسلام في العالم المعاصر ، وتشير إلى دوره الخطير إزاء المسار الاديان في الغرب نتيجة التفسيرات الخطيرة التي وضعها بعض رؤساء الاديان والتي سارت البشرية

عليها طويلاً ، ثم جاء العلم الحديث فكشف عن زيفها وعجز العقل البشري عن قبولها . هذا في نفس الوقت الذي يواجه الاسلام العلم والعقل البشري والفطرة بنهج سمح متكامل يسير ، تقبله النفس ويرضي العقل ويملا القلب بالإيمان ويجد فيه المثقفون هدياً ونوراً ، ويرى فيه المصلحون أملاً منقبلاً لحياة البشرية في القرن القادم .



### **الفصل الثالث**

## **اليهودية في حماولة احتواء الاسلام**

تحاول اليهودية إعادة السيطرة على البشرية من جديد ، وعلى المسيحية والاسلام ، عن طريق صياغة مفاهيمها في نظريات ومذاهب حديثة تضرب بها مقررات الاديان ، ولقد استطاعت ان تقطع في ذلك شوطاً طويلاً حيث أتيح لها السيطرة على مقدرات الفكر الغربي المسيحي وتحريفه واحتواه ، وتقليل مفاهيمها عليه ، ومن حيث ان العالم الاسلامي متاثر منذ أكثر من قرن من الزمان بالفكرة الغربي المسيحي نتيجة احتلاله والسيطرة عليه فان التغيرات المستحدثة فيه بفعل الماسونية والتلمودية والصهيونية فانها تبرز ، وكأنها تحديات جديدة ، ومن هنا فان الفكر الاسلامي الآن يواجه تحديات أربعة: تحديات الفكر الغربي المسيحي ، والفكر التلمودي الصهيوني ، والفكر المادي الماركسي ، والفكر الاحادي .

فال الفكر الغربي المسيحي يتعدد الاسلام بتعدد الزوجات ، وتحديد

الطلاق ، وفصل الدين عن المجتمع والدولة ، وإعلان شأن مفهوم البطولة في القصة والمسرح المستمدة من نظرية الخطيئة والفاء .

وان الفكر اليهودي التلمودي يتحدى الاسلام بالربا والدعوة الى الاباحية والقول بنسبية الاخلاق وبالتطور المطلق وباعلام شأن العصرية والتقدم المادي وإنكار التراث والتاريخ .

وإذا كان الفكر المسيحي قد حاول ان يدعى بأن الشريعة الاسلامية متصلة بالقانون الروماني او متأثرة به ، فإن الفكر اليهودي التلمودي يحاول طرح مفاهيم العنصرية والاستعلاء بالدم والعرق ، ومادية الحياة ، وإنكار اسماعيل ، وجود العرب في ذرية ابراهيم ، وإدخال مفاهيم السحر والتنجيم والاساطير وإعلام شأن الجنس والذات ولقمة العيش ، وإنكار الاسرة ، وأسطورة الشعب الختار . ولا ريب ان كل ما تطروحه التلمودية الصهيونية الحديثة ليس جديداً ولكنه وليد الفكر القديم والتحرير الواسع الذي وقع للتوراة . ومن هنا فان هناك فكرة مرتبطة خبيثة يدعو اليها بعض المخدوعين والمضللين واتباع الماسونية والتلمودية وهي محاولة التفرقة بين اليهودية العالمية وبين الصهيونية . وعندنا ان التفرقة الوحيدة اما تقع بين دين موسى كما أنزله الله وبين اليهودية كما وضعتها عزرا في نفي بابل . وان فلسفة الصهيونية مستمددة أصلاً من هذه اليهودية التي حرفت أصولها في التوراة وفسرت تفسيراً كاملاً في التلمود والمشنا ، والقائمة على القول بأسطورة الشعب الختار الذي أعطى ميراث ابراهيم ~~عليه السلام~~ من دون أبناء ابراهيم جميعاً . ولا بد عند النظر الى خطط الصهيونية التلمودية من تقدير أمر واحد هو أخطر من كل الاهداف ، هو إقامة امبراطورية الربا العالمية ، وتلملك هي « الايديولوجية اليهودية » .

« يحب علينا نحن اليهود ان نسيطر على ثروة العالم عن طريق انشاء

احتياكات يهودية عالمية ضخمة تستوعب كل ثروات العالم وتكون بمثابة خزان لكل كنوز العالم ، لم يبق الا أصحاب العقارات وملوك الارض ولا سبيل للقضاء على هذه القوة الا بتشييط أعمال المضاربة حتى يتمحول ميدان الربح الى البورصة ، حيث يتوجه اوثانك المالك في استغلال ثرواتهم في الأسهم والسنديات بدلاً من الاراضي والعقارات التي تصبح غير بذلة الربح ، بل توسع كرهونات القروض التي تدفعها عن طريقنا ، ثم لا يلبث الملاكون ان يعجزوا عن الوفاء بهـا فتفقدوا مالهم في قبضتنا : وذلك هو من خطط الاستيلاء على ثروات العالم عن طريق الأسهم والسنديات ، وان تضطر الحكومات الى طلب العون المالي من مصارفنا ومخازننا فتفقد الحكومات في قبضة الرأسمالية وهكذا تجرد الحكومات والشعوب من أسباب القوة ، لهذا علينا ان نعمل على إغراق حكومات العالم بالديون عن طريق تشجيعها على الاقتراض هنا عن طريق عقد قروض داخلية لسد حاجاتها ، وتم تقطيع هذه القروض من جيوبنا بطريق مباشر او غير مباشر ، فيكون بوسمنا إفلاسها بعد فترة من الزمن عندما نطالب بديوننا فجأة .

اما الصحافة والادب فيها اعظم اداة للسيطرة الفكرية ، ولذلك ينبغي علينا نحن اليهود ان نشتري العدد الاكبر من دور الصحافة والنشر ووكالات الاخبار العالمية ، حتى لا يرى الناس اي خبر او مقال او توجيه إلا من زاويتنا . ومن خلال نظارتنا الملونة ، ويجب ان تكون لنا جرائد شرقية تؤيد الطوائف والاحزاب المختلفة من أرستقراطية الى شعبية ، ومن ثورية الى فوضوية ، وستكون هذه الجرائد مثل الإله الهندى (فشنو) لها مئات الأذرع ، وحق يضى الثوارون المغلدون في تردید ما يتوصون انه رأيهم ، او رأى جرائهم وأحزابهم ، سنكون نحن قد حققنا ما نبغى فلن يروا إلا ما نضعه نحن في أفواههم من وراء الستار .

كلما وجدنا أنظار الرأي العالمي تتوجه نحو الحقيقة يجب ان نعمل على تحويله

الى اتجاه آخر . ان واجبنا أن نشغله عن أي طريق او تفكير جدي سليم  
بإثارة موضوعات لها طابعها الصحافي ويتلخصون وملء فراغهم ب مختلف أنواع  
الملاهي والمباريات الترفية ، والفن والرياضة شعارنا القوة والرباء وفي سبيلها  
وللوصول الى غايتها ينبغي الا ننجذب عن التجوه الى الرشوة والخداع .

علينا أن نقدم دون تردد على انتصاف ملكية الغير .

( ٣ )

قال بن جوريون : لقد فاوضت اليهودية الحضارة اليونانية والامبراطورية الرومانية ، المسيحية ، وأخيراً الاسلام .

قال دستيفنكي : لا تقل بسارك ، او الجمهورية الفرنسية ، ليس كل ذلك إلا مجرد أوهام . فاليهودي وحده وماله هو سيد العالم ، فاليهودي وماله يسيطران على كل شيء ، على أوروبا ، على التعليم ، على الحضارة ، على الاشتراكية .

وهناك عشرات المصادر التي تؤكد ان المسؤولية كانت مصدر احتواء الفكر الغربي وتحوله عن الآداب المسيحية والأخلاق المسيحية ، وكان أول منطلقاً لها هو الثورة الفرنسية .

يقول مؤلف كتاب التاريخ النقدي للشعر الانجليزي<sup>(١)</sup> : ان قادة الثورة الاوربية في عصر النهضة الاوربية أخذوا بعيداً خاطئ وجه النهضة الادبية في اوروبا الغربية نحو المبالغة في الاعتداد بالانسان والزعم بأنه هو ، وليس الله تعالى مقياس كل شيء ، وأدى بهم هذا المبدأ آخر الأمر الى ضلال بعيد

---

(١) من ٤٧٣ : التاريخ النقدي للشعر الانجليزي .

عندما أخذت الثورة الفرنسية بذهب روسو الذي قطع الرابطة بين الإنسانية وبين عقائد الأيمان السابق (التابع من المسيحية) .

ومعنى هذا أن فلسفة النهضة الأوروبية عدلت عن المبادئ المسيحية وادعت لنفسها أن أفعال الإنسان منها تكون فهي كاملة في نفسها ، وهذه الفلسفة المستمدّة من عصر النهضة كان من شأنها ان تبرر أعمال الإنسان منها كانت بقطع النظر عمّا تراه العقيدة المسيحية فيها .

ويشير باحث آخر الى هذا التحول الخطير فيقول : « أزال اليهود مفهوم الدين الحقيقي في الغرب لفرض مفهومهم الذي يحقق لهم قيام دولتهم - لقد ورثوا الحضارة الغربية وتسليمها ، ولم يكونوا قد شاركوا فيها أساساً - بل فرضوا أنفسهم على الفكر الغربي وسيطروا عليه سيطرة كاملة ، وأباحوه مطلقاً إلى اللادينية واللأخلاقية والإلحاد والإباحية وفق مناهج فلسفية ذات طابع علمي براق . واليهودية يبعد ان هدمت الفكر الغربي سرت هذا الحطام الى العالم الاسلامي مستهدفة تحقيق غايتها في إقامة الامبراطورية اليهودية في فلسطين .

لقد حطمت المسيحية الاوروبية لتجعلها محتواة داخل فكرها وأهدافها ؛ وكان هدفها هو إقرار معنى خطير يقول ان إقامة كيان اسرائيل معناه الرجوع بالحياة البشرية وبالعالم الانساني وبالتاريخ الى ما قبل المسيحية بعشرة قرون من وجهاً أخلاقه وفكره وروحه .

وهذا هو السر في ذلك الاصرار العجيب على إحياء تراث بلبل وآشور والجوسية والبوذية وغيرها ، وعلى ذلك الاهتمام البالغ بالفلسفة اليونانية .

فقد تبين في السنوات الأخيرة ان المعارف اليونانية تظل في أعماقها

شخصية يهودية بحثة ، فكان اليهود على أمل إحرار السيادة على الشعوب بواسطة تلك المعارف ، حتى لقد نشر قسيس يدعى أوزيب في أحد كتبه فصولاً من كتاب (نومي نوسي) الذي يقول بأن الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) أخذ كثيراً من أفكاره عن موسى عليه السلام ، بل إن هناك من زعم أن أفلاطون هو نفس موسى عليه السلام ويدعى كثيراً من الماخامين بأن الفلسفة اليونانية مقتبسة من عقائد يهودية ، وإن فيلسوفاً يهودياً يسمى (توراة ارستوبول) قد ادعى مطابقة بعض أفكار فلسفية يونانية أمثال أفلاطون وسocrates مطابقة تامة لقواعد اليهودية وأوامرها ، وإن الماخام اليهود وفيلسوفهم المشهور (فيرون) يقول : إن النظريات اليونانية هي نفس ما جاء في دين اليهود تماماً .

وان حقيقة الفلسفة العلمانية التي سادت على مدينة الغرب ، والتي تغذى الحركات المعادية للقومية والدين والتاريخ هي من (اليهوا) أي من اليهود وشريعة التوراة ، وإن الماخامين برياثم المستور كانوا يضعون خيوطهم لجر المدنية الغربية النصرانية نحو اليهودية .

ولا شك ان هذا كله يضع وثائق جديدة في أيدي الذين يرون ان اليهودية والصهيونية من أصل واحد ، وإن الصهيونية ما هي الا واجهة سياسية للتلمودية القديمة .

وقد ثبت ذلك فعلاً بما كتبه علماء الصهيونية وفلسفتها من ان الصهيونية ، السياسية لا تستطيع التخلص من جذورها الدينية . وإنما فهم يستطيعون يهودي واحد من يعارضون الصهيونية ان يكذب ما تدعيه التوراة والتلمود عن

شعب الله المختار والوعد المدعي له بأرض الميعاد .

ولتحقيق هذه الغاية تعمدت اليهودية الى تحرير التاريخ الانساني ، وتحريف الاديان . ولا ريب ان أخطر ما تقوم به اليهودية في الوقت الحاضر هو محاولة السيطرة على علم مقارنة الاديان وعلم الاجناس ومفاهيم النفس والاخلاق والمجتمع .

( ٣ )

قالت « بريارة توخمان » الكاتبة اليهودية في كتابها ( التوراة والسيف ) : « وهكذا دخل الجنرال اللنبي الى القدس عام ١٩١٨ فنجح حيث كان ريتشارد ( ريكاردوس قلب الأسد ) قد أخفق ، ولو لا ذلك الانتصار لما كانت إعادة اسرائيل الى ارض الميعاد قد أصبحت حقيقة واقعة ، وكذلك لم يكن بإمكان النبي ان ينجح لو لا محاولة ريتشارد ، أي لو لم تكن النصرانية قد أقامت في الاصل الأساس الذي يحمل النصارى على التعلق بالأرض المقدسة ، ان من غريب التهم ان يكون اليهود قد استعادوا موطنهم إلى حد ما ، بفعل الدين الذي أعطوه للأميين » .

وهي تكشف أوجه الصراع بين المسيحية واليهودية في محاولة السيطرة على الاسلام ، وتبدو براعة اليهودية في نقل الكرة من قدم الى قدم حتى تصبح في حوزتها .

لقد كان هدف الماسونية الأساسي هو هدم البابوية ، ولكن الهدف أيضاً قد امتد الى القضاء على أكبر مركز ديني في أوروبا وهو الكنيسة الروسية ، ثم امتد مرة أخرى الى القضاء على الخلافة الاسلامية في تركيا ، وقد تحقق ذلك في سنوات قليلة متواتلة في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ومعنى هذا ان أكبر مكاسب هذه الحرب قد حصلت عليها اليهودية .

فإن اليهودية الماسونية التي أشعلت الثورة الفرنسية في أوروبا كلها لتحقيق وجود اليهودي وسيطرته على المجتمع الأوروبي ، هي نفسها التي استطاعت عن طريق اليهود الدوينة في سالونيك اسقاط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وإسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ .

فقد كان اليهود يرون في السلطة العثمانية شبحاً سخيفاً للخلافة الإسلامية خطراً على مستقبلهم ، وقد حاولوا احتواء السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية وبذل هریزل في سبيل ذلك جهد الطاقة فلم يستطع الوصول إلى شيء<sup>(١)</sup> .

كان ذلك عام ١٩٠٢ عندئذ قرر المحفل الماسوني خلع السلطان عبد الحميد وكل قادة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي تنفيذ القرار ، وكان اليهود قد نجحوا في السيطرة على هذه الجماعة حيث سيطر عليها جماعة الدوينة (المتظاهرون بالاسلام من يهود أسبانيا الذين اتخذوا سالونيك مقاماً لهم بعد فرارهم من محكم التفتيش) حق حقووا ذلك عام ١٩٠٩ .

وكان انقلاب تركيا قد أسلم زمام تركيا لليهود<sup>(٢)</sup> (الماسون الدوينة (طلعت، وجاويد، وجمال، وأنور، ونيازي) ثم جاء كمال بعد الحرب العالمية الأولى وتمزق تركيا وسقوطها ليقيم الدولة التركية العثمانية التي ألغت الخلافة واللغة العربية والشريعة الإسلامية والأذان ، وأغلقت المساجد . وفي انقلاب مصطفى كمال أتاتورك وهو من اليهود الدوينة جرت المجازر المسلمين وسلمت البلاد الإسلامية التي كانت تابعة للدولة العثمانية إلى الاستعمار والصهيونية بعد أن سلم الاتحاديون طرابلس الغرب .

(١) راجع كتابنا «العروبة والإسلام» تصحيح أضخم خطأ في التاريخ الإسلامي المعاصر .

(٢) راجع الدكتور محمد علي الزعبي : الماسونية في العراء .

لقد كان خلع عبد الحميد مقدمة لإلغاء الخلافة ، وكان إلغاء الخلافة هو الذي فتح الباب واسعاً خلال حكم الاتحاديين من ١٩٠٩ - ١٩١٦ لسيطرة على فلسطين ، وتحقيق هدف اليهود باستيلاء المسيحية بمثابة في بريطانيا على القدس ١٩١٧ كمقدمة لاستيلاء اليهود عليها بعد خمسين عاماً ١٩٦٧ . وكان ذلك من أخطر أهداف اليهودية والمسيحية : تزويق الدولة الإسلامية الكبرى ، وفصل العرب عن الترك ، وهدم الجامعة الإسلامية ، وإلغاء الخلافة .

وفي فلسطين قتلت المسيحية واليهودية المسلمين في صورة وحشية ( مرة أخرى ) تفوق كل ما يروى عن الطغاة . ولا ريب ان الخلافة الإسلامية خلال التحديات التي واجهت السلطان عبد الحميد قد كشفت عن قدرة ضخمة في مواجهة الأخطار دفعت هذا السلطان السياسي البارع الى رفع راية الجامعة الإسلامية لجمع المسلمين من مختلف أنحاء العالم تحت لواء الخلافة لمواجهة خطر الاستعمار الفرنسي المسيحي والغزو الصهيوني اليهودي وكان موقفه من عروض اليهودية العالمية شريفاً . قال في خطابه : « أنسح الدكتور هريل ألا يتخد خطوات أخرى في هذا الطريق فاني لا أستطيع ان أتنازل عن قدم مربعة واحدة من هذه الأرض (أرض فلسطين) لأنها ليست أرضي وإنما هي أرض شعبي ، شعبي الذي حارب في سبيل هذه الأرض ورواهما بيده ، دع اليهود يحتفظون بلايذنهم . فإذا تفككت امبراطوريتي ، فإن اليهود قد يحصلون على فلسطين بدون مقابل ، ولكنهم لن يصلوا اليها إلا على أجسام أجسامنا بعد تزويق أوصالها : انى لا أستطيع ان أوفق على اجراء التجارب الجراحية على أجسام أبناء شعبي الأحياء<sup>(١)</sup> .

(١) النص عن يوميات هريل .

ولا ريب ان سيطرة اليهودية الصهيونية على فلسطين قد جاء عن طريق المجلئ ، ثم أمريكا وها دولتان بروتستنقيتان باضتا المسؤولية العالمية فيها وأفرخت وأدخلت في عقول المسيحيين أسطورة الأرض الموعودة حق آمنوا بها ، وكان ذلك أيضاً هو المدخل إلى قرار الجمع المسكوفي الثالث عام ١٩٦٤ يتبرأ اليهود لما سمي تهمة قتل المسيح . وقد غاب عن المسيحيين خططات اليهود إزاء دينهم وما كتبواه في بروتوكولات صهيون من خطط للسيطرة عليهم وما صرخ به كثير من حاخامتهم من أمثال ما يقوله الحاخام بينما موريخ : اليهودي لا يقنع بهزيمة المسيحية ، بل يريد تهويد أتباعها انه يحطم العقيدة المسيحية ، انه يثير الخلاف ويفرض ارادته على العالم من وجهاً الاخلاق والحياة .

ويقول أحد الحاخamas : أمامنا الآن بعض سنوات قليلة لتحل اللحظة التي يتم فيها تحطيم الدين المسيحي تحطيمـاً كاماً ، فالمسيحية تتلوى وتعاني النزع الأخير . وقد أصاب الذبول صنم العالم المعبود الذي مضى إلى الفناء | والمسيحيون الخوارج الكفارة الذين يدعون أحقيـة الحق الأقدس قد وجهوا إلى الطريق الخاطـيء ، فانـا جاهـدـنا طـويـلاً لنـفهمـهم انـالمـسـيحـ لمـيـوجـدـ علىـ سـطـحـ الـارـضـ إـطـلاقـاًـ .

.. أين هذا من مفهوم الاسلام وسماحته وتكريمه للسيد المسيح واعترافه به نبياً مرسلاً .



ولا ريب ان هدـفـ اليـهـودـيةـ التـلـمـودـيـةـ الـجـدـيـدةـ المـمـثـلةـ فيـ الصـسـيـونـيـةـ هوـ ماـ أـشـارـواـ إـلـيـهـ مـرـاتـ وـخـاصـةـ فيـ الـبـرـوـتـوـكـوـلـاتـ [ـ يـتـعـيـنـ عـلـيـنـاـ انـ نـكـتـسـحـ جـيـعـ الـعـقـائـدـ وـالـأـديـانـ الـأـخـرـىـ .ـ وـاـذـاـ كـانـ ذـلـكـ سـيـؤـدـيـ إـلـىـ وـجـودـ مـلـحـدـينـ يـنـكـرـونـ الـخـالـقـ ]ـ .ـ

ومن موقف اليهودية الصارم ضد المسيحية فإن القاصد الرسولي الأب مار كولي يتحدث عن علاقة البابا بالصهيونية فيقول : لقد حدثت تغيرات شتى في الوقت الأخير من العلاقات بين اليهود والحكومة الإنجليزية ، وكان من شأن هذه التغيرات أن بعثت اهتمام الدول عامة بمسألة الشعب اليهودي من جديد . وبالتالي بدأ الفاتيكان يهتم بالمسألة .

والبابا ينظر بعين الرضا والارتياح إلى مشروعات الصهيونية في فلسطين وهو يراها مصدر برカاته للسلام العالمي .

ويعتقد البابا نيوس التاسع أنه يحق للصهاينة أن يحملوا كافة الكنائس الدينية على الاهتمام بأماناتهم ويقول «على أني أؤكد أن الكنيسة الكاثوليكية وهي أكبر كنيسة في العالم تؤيد الصهيونية وأمانها»؛ ولا ريب أن مثل هذه الوثيقة تكشف أمرين :

أولاً : مدى ما استطاعت اليهودية العالمية أن تصل إليه من احتواء المسيحية .

ثانياً : مدى ما وصلت إليه الكنيسة من الضعف والانحدار .



نعم ، لقد استطاعت اليهودية أن تستقطب عدداً ضخماً من المسيحيين ذوي المناصب الثقافية والسياسية وأن تجعلهم مسيحيين صهيونيين .

وهذا الفريد لينتال في كتابه « اسرائيل ذلك الدولار الزائف » يقول : غزا اليهود المجتمع المسيحي ، ولعب المسيحيون الصهيونيون دوراً حساساً في هذه الحركة المحمولة تماماً والحسنة التمويل ، ان مشاعر العطف على الصهيونية ليست مقصورة على اليهود فحسب فالصهيونية في الولايات المتحدة قد سبقها

المثال الذي ضربه حايم وايزمان حين استفاد من مزاج العناصر المسيحية والآخرى اليهودية في انتزاع وعد بلفور، فاعتمدت هي بدورها على المسيحيين الامريكيين كي يقدموا لها خدمات لا تمحى وقد استخدمت أحسن علم النفس للحصول على تأييد مزدوج ، عن طريق ضمير العالم المسيحي المضطرب الذي يتوق الى التكفير عن الدور الذي قام به من الاضطهاد المتواصل لليهود، ثم العاطفة الليبرالية المعتمدة على الضعف والشفقة الموجودة لدى الأغنياء والمشاعر الدينية عند المثقفين التوراتيين الذين نظروا الى ان انشاء اسرائيل هو في الحقيقة بشارة ضرورية لقدم المسيح . وقد قبل بعض المسيحيين الادعاء بأن التوراة تطالب بعودة يهود اليوم الموجودين في منفاه الى وطنهم القومي في فلسطين بدعوى ان دولة اسرائيل الحديثة هي دولة ورد ذكرها في الكتب المنزلة .

غير ان الكثيرون من المسيحيين اندفعوا أيضاً لأن الديانة الاسلامية تعتبر في نظرهم ديانة وثنية متطرفة فكان تأييدهم لاسرائيل وسيلة من وسائل مقاومة خلق وحدة عربية مسلمة وتعمود هذه المغابطة والتعرض المسلمين الى المصوّر السالفـة أيام حدث الصراع بين المسلمين والمسيحيين ، وانتشرت القصص الخيالية حول الحروب الصليبية .

ويعني هذا بأن اليهودية التلمودية استطاعت أن تخندق المسيحية الاوربية والامريكية ، ففي نفس الوقت الذي تعمل فيه على تدميرها ، وتكتب ذلك صراحة في كتبها ، فهي تستغلها عن طريق تحرير النصوص على ان تؤازرها في دعواها الباطلة ، بل انها هي التي تذهب في ذلك كل مذهب حين تزيف وقائع التاريخ وتكشف عن جانب واحد منه هو جانب التحرير على المسلمين باغادة اذاعة موقف المتعصبين من المسيحيين في الحروب الصليبية ، بل ان جريدة التيمس التي عرفت بمحاباتها لليهود واليهودية كانت تذكر اليهود دائمًا بالدور الذي يلعبونه دومًا في تبديد الخلاف بين المسلمين والنصارى والمعلوم ان اليهود قاموا بمؤامرات ضخمة في سبيل إيقاع المسيحيين في

الامبراطورية العثمانية في خلاف مع الدولة ، واستفادوا من ذلك الاستيلاء على الاراضي .

وقد أشار الفريد لينتال الى هذا المعنى كله بقوله : مقدرة الصهيونية في استغلال المسيحي العادي والمنظفات المسيحية ، والانفتاح الجديد على المسيحية ، يتزوج عدد كبير من اليهود من المسيحيين .

يقول لينتال : ان اليهودي عندما يتزوج من مسيحية يظل يتزعم قضية اسرائيل بقوة بينما الشريك المسيحي للزواج لا يستطيع الا أن يبدي تساحجاً كاملاً مع رفيقه .

( ٤ )

يقول عازار وايزمان : لا عطف ولا رثاء حتى ننتهي مما يسمى بالحضارة العربية التي تبني على أنقاضها حضارتنا .

وتكشف هذه النصوص الأهداف البعيدة في محاولة القضاء على العرب باعتبارهم أصحاب القيادة في الإسلام ، وحيث ان البلاد العربية هي نقطة البدء للإسلام وركيزة الحقيقة ، وتوضح هذه النصوص عمق الخلاف بين اليهودية التلمودية وبين العربية ، وهو الخلاف التاريخي بين أبناء إسرائيل وأبناء اسماعيل ، والذي كان موضع التحرير لنصوص التوراة ، وتحويل ملك إبراهيم إلى إسرائيل وحده دون أبناء إبراهيم وذراته جميعاً . وكيف تحطم الإسلام هذه الفرية ، وأزال الله ملك إسرائيل ، ونقل الأمانة إلى أبناء اسماعيل بعد أن فشل اليهود في إقامة الحق .

وكان هذا هو أخطر تحول في انتقال النبوة والحكم والرسالة إلى أجدر الأمم بها وانتزاعها نهائياً من الأمة التي فرطت في الأمانة .

ومن هنا فإن هذه المحاولة الخطيرة التي تقوم بها التلمودية اليوم إنما تستهدف تحطم القوة التي قامت منذ أربعة عشر قرناً باسم الإسلام : دين الله الحق وكلمته الحالصة . ومن هنا فهي تركز على الحضارة العربية أساساً باعتبارها

الجدار الضخم في قلب العالم الاسلامي كله ، والذي اذا انهار سقط بناء الأمة كلها .

ومن هنا فان اليهودية اثنا تركز على القضاء علىعروبة وتدمرها ، وفصلها عن الاسلام وإيجاد الصراع بين القوميات والدين ، وتحاول ان تطرح في الامة العربية مفهوم الغرب عن القوميات كما تعمل في الوقت نفسه على تفريغ الامة العربية من مفهوم الشريعة الاسلامية والاخلاق وفصل الدين عن المجتمع .

وتحرص أكثر ما تحرص على ان يجعل الصراع بينها وبين الامة العربية صراعاً محدوداً في دائرة قومية وتحول بينه وبين المفهوم الاسلامي الجامع بين العروبة والاسلام ، وتفصل بين الامة العربية والعالم الاسلامي .

ولا ريب ان اليهودية العالمية هي التي أثارت في العالم الاسلامي تزريق وحدة العروبة والاسلام للحيولة دون الوحدة وعملاً على تعميق التجزئة والاقليمية . ولما كانت وحدة المغرب والمسلمين لها جذورها الضخمة البعيدة المدى في الفكر الاسلامي وفي القرآن نفسه ، فقد طرحت عشرات المذاهب والقضايا والدعوات والأنظمة والتأذيج التي طرحت في أوربا لافساد المفهوم الاسلامي الجامع للعروبة والاسلام ، ولدوام تحرييك هذه القضية وإثارتها فترة بعد أخرى وإذاعتها وتحويلها الى عقائد مستحدثة وآفة عن طريق معاهد الدراسات والجماعات والصحف التي قام عليها خريجو هذه المعاهد .

ولذلك فان هدف اليهودية الأساسي هو تحطيم المعتقدات الاسلامية وسحق القيم المعنوية والانسانية وإثارة الشكوك حول المعتقدات وطرح فلسفات الشك والاخداد والإباحة في المجتمع الاسلامي ، وإشاعة روح الرذيلة في العالم ، والتي يعتبرها اليهود وسيلة مع المال لتحقيق أغراضهم ، وإنبعاث الفكر الوثني الهليني المهوسي البابلي القديم وتحويله الى نظريات ومناهج مستحدثة .

وأخطر ما استطاعت اليهودية تحقيقه في العالم الإسلامي هو إقامة الاقتصاد على أساس نظام الربا وقد دلت التجارب الاقتصادية والاجتماعية على أن البلاد التي ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والتراحم وحلت القسوة فيها محل الحنان والعدل ، وان الحضارة الغربية قد صنعت بألوانه النفسية اليهودية ففشت فيها الأطماع المادية حتى صاروا ولا هم لهم إلا جمع المال ، وهذا هو دور اليهودية في الحضارات ، فهم لم يكونوا منشأ حضارة ولكنهم كانوا دافعين لها إلى مجالات تفكيرك الأخلاق وتسهيل سبل الشهوات والبحث على الجرائم واختراع الرقص الخليع ومسابقات الجمال وعبادة المادة في كل شيء ونشر صحف المجون والفسق ونشر أشد الكتب المحظورة على أذهان الشبيبة ونشر الصحف الكاذبة القناع عن أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي ، ذلك لأن هذا الانحلال الاجتماعي هو أساس الربا ، ولا يمكن أن ينمو الربا في مجتمع متتحرر من الانحلال الاجتماعي .



ومن هنا جاء هذا التركيز على إثارة موجة الانحلال في العالم الإسلامي متماشياً مع خطط اليهود في إغراق الأمم والحضارات في الرذيلة .

وقد ثبت فعلاً<sup>(١)</sup> ان تصدر اليهود للفلسفات والمذاهب الاجتماعية والسياسة الفكرية أنها يهدف أساساً إلى هدم الأديان ، وان نشرهم الماركسية والوجودية والシリالية ومذاهب التطوير والهيبيّة أنها هو وسيلة لهم إلى نشر الإلحاد ونسف الإيمان في النفوس ، وقد استطاعوا أن يستقطبوا طائفة من التلاميذ ، للإيقاع بال المسلمين والمسيحيين في كل الأقطار العربية والإسلامية يروجون لأرائهم المدamaة بين الناس .

(١) رابع مقدمة بروتوكولات حكماء صهيون : خليفة التونسي .

وقد برع اليهود في إعطاء هذه المفاهيم التلمودية القديمة حسنة علمية لا يفطن إلى زيفها إلا أهل العقول الراجحة ، ويحتمل اليهود في تشكيك الناس في البيانات عن طريق التقدحر ، وعلم دراسة الأديان المقارنة ، والحط من كرامة رجال الدين .

وقد أفلحت اليهودية في طبع كثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها ، فتربى روح الولاء والتسليل لبني إسرائيل ومعتقداتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية ، وما ظهر مذهب فكان مؤدياً إلى مسمى بالأذى من قريب أو بعيد إلا قتلواه ، وما كان مؤدياً إلى خير لهم روجوه في كل أنحاء العالم كذلك يروجون لكل قلم ما دامت آثاره عن قصد أو غير قصد تساعده على إفساد الناس ، ورفع شأن اليهود ، كما فعلوا مع نيتشه الذي هاجم على المسيحية وأخلاقها . وقسم الأخلاق قسمين : أخلاق سادة كالعنف والاستخفاف بالمبادئ ، وأخلاق عبيد كالرحمة والبر ، مما يتافق والروح اليهودية وتأريخها ، ويهد لها في الأذهان ويجعلها سابقة على نيتشه . كذلك روجوا مذهب التطور ، وأولوه تأويلات ما خطرت لدارون ، واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والفنون باعتبار أن كل شيء بدأ في أول الأمر يثير السخرية والاحتقار ثم تطور . فلا قداسة إذن الدين ولا وطنية ولا قانون ولا فن ولا مقدس من المقدسات ، وهم يعيشون بعلم الاقتصاد والمجتمع ، وعلم مقارنة الأديان ويستخرونها لمصلحتهم ، وإفساد الأدب والنظم والثقافات والمعقول في كل أنحاء العالم ، ويدسون فيها نظريات مبهرجة لا يفطن إلى زيفها إلا المهووبون » .



## الفصل الرابع

### الماركسية في مواجهة الاسلام

لقد طرحت الماركسية نفسها في مواجهة المسيحية والفكر الغربي كله واستطاعت في أقل من خمسين عاماً ان تستقطب ما يزيد على ألف مليون مسيحي في العالم كله بين من اعتنقاً الماركسية وبين من خرجوها على المسيحية باسم الفكر الحر وغيره .

ويكفي القول ان الفكر الغربي قد وقع منذ نشوء الماسونية التي هدلت الثورة الفرنسية تحت سيطرة فكر جديد منوع موزع من شأنه ان لا يجمع الناس على شيء فضلاً عن الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية . وقد أخذت الماسونية جانب البروتستانتية وأيدتها وفتحت لها حافلتها ، ثم احتوتها من بعد ذلك ، وكان لها الأثر الخطير في خلق جبهة من التأييد للدعوى الصهيونية بما أطلق عليه العودة الى أرض الميعاد ، فان الصهيونية استطاعت أن تضرب الليبرالية والرأسمالية الغربية في الصميم بطرح نظرية جديدة لتمزيق العالم الى جبتيين وذلك باستقطاب العمال في مواجهة جشع أصحاب رؤوس

الأموال لإيجاد صراع عنيف بين الماركسية والرأسمالية . وقد أشارت بروتوكولات صهيون إلى هذا المخطط منذ صدورها ١٨٩٧ وقبل قيام أول دولة على أساس ذلك النظام ١٩١٧ . وقد احتدت التجربة الأولى في روسيا حيث كانت الكنيسة الأرثوذكسيّة تمثل أضخم تحالف في وجه الصهيونية العالمية ، ومن هنا حفظ اليهود للثورة الشيوعية الروسية وأمدوها بالمال وتواطؤوا مع أعداء الدولة الروسية حتى قاموا بشيوعية حمراء أذاقوا بها الشعب الروسي ، ولا سيما المسلمين الحسف والتقبيل .

ولقد أشار كثير من الكتاب إلى الرابطة العميقـة رابطة الأمومة والبنوة بين الصهيونية والماركسية كمنهج والشيوعية كنظام . وتنبه كثيرون إلى مدى امتداد الخطر إلى العالم الإسلامي ، وبعد أن تحققت ثلاث خطوات كبيرة للصهيونية في أوروبا ، وهي قيام الثورة الفرنسية على يدي الماسونية وسيطرة اليهودية العالمية على الجماعة الأمريكية الجديدة ، وقيام الدولة البلشفية في روسيا وكانت الخطوة الأولى في الشرق موازية تماماً لهـذه الخطوة الأخيرة بضرب الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية وإسقاطها .

وقد أشارت وثائق الصهيونية إلى هذا في صراحة تامة : « ان الأفـهى اليهودية في طريقها إلى أورشليم قد مرت على القدسـطنطـينـة فدمـرتـ الخـلافـةـ الـاسـلامـيـةـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ مـفـرـ لهاـ منـ تـدـمـيرـهاـ قـبـلـ الوـصـولـ إـلـىـ أـورـشـلـيمـ وـإـقـامـةـ دـوـلـةـ اـسـرـائـيلـ »ـ وـالـمـتـبـعـونـ لـأـحـوالـ تـرـكـيـاـ قـبـلـ سـقـوـطـ الخـلـافـةـ وـبـعـدـ قـيـامـ مـصـطـفـىـ كـالـ بـالـحـسـنـ التـرـكـيـ الـلـادـيـ وـالـخـيـازـ تـرـكـيـاـ إـلـىـ اـسـرـائـيلـ يـلـمـسـونـ الـيدـ الـيهـودـيـةـ فيـ تـوجـيهـ سـيـاسـةـ تـرـكـيـاـ ،ـ وـهـذـهـ نـبـوـةـ مـنـ نـبـوـاتـ الـاسـتـاذـ نـيـلوـسـ .

ويتصـلـ بـهـذـاـ ماـ أـذـاعـهـ السـرـ اـدـورـ سـبـيرـزـ (ـ جـريـدةـ التـيمـسـ ١٩ـ ١٩٤٨ـ )ـ حـيـثـ قـالـ :ـ لـقـدـ أـثـبـتـتـ الصـهـيـونـيـةـ أـنـهـ كـارـثـةـ تـهـدـدـ الـبـشـرـيـةـ ،ـ وـقـدـ فـتـحـتـ الـأـبـوـابـ لـتـغـلـلـ الشـيـوعـيـةـ فـيـ الشـرـقـ الـأـوـسـطـ هـمـاـ قـدـ يـلـتـجـعـ عـنـهـ حلـولـ

كارثة لا يعلم مدى نتائجها فيما يتعلق بمحضارة الغرب .



ومن آيات هذه الرابطة ان بروتوكولات صهيون التي نشرها في العالم لأول مرة سرجي نيلوس قبل خمسين عاماً باللغة الروسية كان يطلق عليها «الإنجيل البلشفي » .

ويقول ( فرانك بريتون ) في كتابه الصهيونية والشيوعية : تختلف الصهيونية عن الشيوعية ظاهراً في ثلاثة أمور :

أولاً - التسمية : ففي الصهيونية تخصيص وفي الشيوعية تعميم .

ثانياً - مركز النشاط : مركز نشاط الصهيونية فيها اصطلاح على تسميته بالغرب وتزعمه أمريكا ومركز نشاط الشيوعية في الشرق وتزعمه روسيا .

ثالثاً - الاسلوب في العمل : فالصهيونية تتاجر بالمال وتدعى عند اللزوم ، والشيوعية تتاجر بالدعاية يدعى بها المال عند الاقتضاء .

أما الحقيقة الراهنة فهي ان الصهيونية والشيوعية صنوان منبعهما واحد وغايتها واحدة وجوهرها واحد ، والفتنة التي تقوم عليها من وراء الستار واحدة ، وما اختلافها الظاهري سوى ترتيب موقف اقتضاه تأميم النجاح في السعي الى الغاية الواحدة . حق اذا تحققت الثقة بالنجاح الكامل سارتا معاً للسيطرة على العالم « ولا مجال للانكار ان العالم اليوم منقسم الى شطرين » وان أحدهما ويسمى الشرق تسيطر عليه الشيوعية ، ولكن حصافة الصهيونية حالت دون ان تظهر سيطرة الصهيونية رسميأً على ما يسمى الغرب ، وذلك لأنها لم تتمكن بعد منه كما تملكت الشيوعية من الشرق فاستعيرت عنها بالرأسمالية

لتسيطر على الشطر الآخر حيال الشيوعية ولا يخفى ان الصهيونية التي ظهرت تحت اسم (اسرائيل) لها سيطرة بعيدة المدى على دول الغرب جماء .

وكل من الرأسمالية والشيوعية يدعى اعتناف الديقراطية الحقة ، وكل واحدة تتهم الاخرى بالتشويش على السلام العالمي وكلتاها صادقتان ومتتفقتان على تشويش الأذهان .

على الشعوب أن تفهم أن الخطر دام ، وإنما إذا لم تتبه ولم تجتمع أمرها شملها الذل والهوان ، وحرمت حق من حرية التفكير ، لأن الفئة القائمة وراء كلتا الحركتين ، ليس بينها وبين غيرها من الشعوب ود مفقود . فقد جربت البشرية جهدها على مر العصور أن تهضمها فلم تفلح ، فقد هضمت البشرية الفيلقين والقوط والعاملة على أساس أن البشر أخوة لا يضيرهم أن يندمج بعضهم في بعض ، إلا هذه الفئة التي تشبه بعض الطير الذي يوزع بيضه في عشوش غيره من الطير ، فإذا فكست فراخه الغريبة في العش زاحت الفراخ الأصلية وأضطرتها إلى الخروج من العش أو الخضوع لها .

هناك قوتان تصرعان من أجل السيادة العالمية : المسيح . والمسيح الدجال ، إنها معركة حياة أو موت أزلية .

إن اليهودية والتلمودية هي نواة الشيوعية والصهيونية اللتين تناهضان المسيحية والملايين من اتباع المسيح قد أزعجوا وعدبوا ونفوا وقتلوا منذ تختلط الوحش الحمر على البسيطة عام ١٩٧١ .



ويشير فرنك لي بريتون الى نقطة البدء وهي : « يهود المزر » وكانت

الخزر امبراطورية قائمة في جنوب روسيا في القرن التاسع للميلاد ، وتسرب اليها عدد ضخم من يهود بيزنطة . وقد تحطمت امبراطورية الخزر في القرن العاشر ، واستوطن عدد كبير من اليهود الدول التي ظهرت من بعد وأهمها بولونيا ، وتوجه آخرون الى غرب أوروبا وأسبانيا ، وكان لليهود نفوذ ضخم في بولونيا حتى عام ١٢٠٠ . راح سُرْت روسيا بسبب تقسيم بولونيا الثالث أكبر نسبة من يهود العالم ، فاتصل تاريخها بالقضية اليهودية اتصالاً مستعصياً . وسبب للיהודים في النهاية انهايار الامبراطورية .

ويقول : ان اليهودي الحديث بشقافته اليهودية مختلف عن يهود التوراة ، فهو لا يؤمن بحقيقة للتوراة بل بالتلמוד ، وهو لا يتكلم العبرية بل اليهودية الدارجة ، وهو ليس من نسل اسرائيل ، بل من حشالة شرق البحر المتوسط .

وقد صور ذلك ه.ج. ولز<sup>(١)</sup> فقال : ان الفكرة اليهودية كانت وما تزال مزيجاً غريباً من التسامح الديني والعنصرية العنيفة فقد بحث اليهود عن مخلص خاص ، مسيح ليصلحبني البشر بإعادة أمجاد داود وسلمان الخرافية ، وجعل العالم في النهاية تحت نير اليهود .

ويشير فرانك لي بريتون الى ان الأحياء اليهودية الخاصة كانت تند من القرم الى بحر البلطيق ( القرم على البحر الأسود الى بحر البلطيق في الشمال ) وهو ما يعادل من الأرض نصف مساحة أوروبا الغربية . وقد بلغوا حتى عام ١٨٨١ من الازدهار والنجاح ما يفوق حد التصور . فقد حل اليهود على الاقتصاد الروسي مثل أ رجال الجراد التي تسقط على حقل ذرة حديث الدرس ،

---

(١) خلاصة التاريخ ص ٤٩٣ / ٤٩٣ ط ٢ .

وبلغ الدين أقاموا فيها عام ١٩١٧ سبعة ملايين يهودي يضمون زهاء نصف سكان العالم اليهودي .

في هذه المستعمرة ازدهرت الفلسفتان التوأمان : الشيوعية والصهيونية ، وكلتا الحركتين نمتا من كره اليهود للحضارة المسيحية مضطهدة الشعب المختار ، وكلتاها انتشرت حيث هاجر اليهود .

وحق عام ١٨٨٢ استطاع اليهود ان يرسخوا أقدامهم في الاقتصاد الروسي بحيث أشرفت الدولة على الانفلاس وعندما حاولت زحزحتهم من مكانهم في هذا الجو بدأت الحركتان التوأمان : الماركسيّة والصهيونية تتحكمان بيمامة اليهود الروس وتسيطران عليها وقد حكّتا ( الصهيونية والماركسيّة ) اول ما أعلنتا يهود الألمان الصهيونية هرتزل ، ودخلت روسيا ١٨٨٠ فكانت منافسة للماركسيّة ولهاها الاكبر : كارل ماركس حفيد أحد المخاخمين ، وكان لا بد في النهاية لكل يهودي روسي ان يتحقق بإحدى هاتين الحركتين .

وفي هذا الضوء تجد التحليل النفسي خدمة الهدف ، وتجد المادة التاريخية خدمة الهدف ، وتجد الفصل بين الكنيسة والدولة خدمة الهدف ، وجاءت الوجودية والهيبية خدمة الهدف أيضاً .

•

وتقول مجلة فرنسا القديمة : ان مدري رقي أعمال الامة اليهودية هم الذين أثروا الحرب الكبرى ودبواها بالدسائس بغية جمع المليارات وتقسيم المالك ، ثم حق ماليتها وقتل النبور في غيرهم وتعبيد الطريق الى شعب الله المختار للاستيلاء على الكون كله ، هؤلام الزعماء اليهود هم الذين دبروا للبلشفية الدسائس ومهدوا لها ببذل المال وأثاروها انتقاماً للشعب الروسي واستكمالاً

لأعمال الحرب الجهنمية ، وإفناه العناصر البشرية وتحطيم المبادئ الاقتصادية.

والشيوعية دسيسة يهودية صهيونية لقلب النظم السائدة ، ولقد أدركت الأمم الأخرى ما يرمي إليه العنصر اليهودي من تخريب وإتلاف وإفساد عقائد ، وقد نشرت مجلة الشرق عام ١٩٢١ نقلًا عن جريدة موزنيخ بوسٌ خلاصة كتاب طبع في نيويورك يُؤخذ منه أن الحركة ال Bolshevik في أيدي العنصر اليهودي .

( ٣ )

ما هي الماركسية : الماركسية نظرية كلية شاملة (Totalism) فهي طريقة لتفسير السياسة والاقتصاد والحياة والتزعمات البشرية ، وهي نظرية ودعوة لعمل ما ، وفلسفة تتناول جميع نواحي النشاط الانساني ومحاولة بجعل التاريخ بماضيه وحاضرها ومستقبله نظاماً منطقياً يحمل في طياته مصائر محتومة كالقدر وتؤمن الماركسية بأن المادية هي أصل كل شيء ، وترى ان الدين هو مظهر لعجز الانسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الاقطاعية .

وعقيدة الماركسية انه ليس في الكون خالق بل الكون مادة، وان الدين مصدر للعقل يجب التحرر منه وان الدعامة الأساسية هي الاخلاق وإنكار الله وإنكار البعث ونبذ الحقوق والالتزامات التي تقيمها الاسرة ، ولما كانت الاسرة هي دعامة النظام البرجوازي فيجب تحطيم هذه الدعامة والقضاء عليها وان الفرد وسيلة وليس غاية ، وان الفرد ذرة تفني في جسم الدولة ، وإلغاء حق ملكية الفرد وحق التوريث وحق ثمار الکسب . ومن هنا فان الشيوعية والدين ضدان لا يأتلفان ، ومن هنا كراهية المسيحية لأنها تخوض على الرحمة .

والشيوعية نظام مادي يستمد فكرته من نظرية ماركس التي تزعم ان كل ما يقع في التاريخ من حركات فاما مرجعه الى الاسباب الاقتصادية ، وما دامت الاسباب الاقتصادية دون غيرها هي التي تهي على التاريخ سرقتنه

وتسيره حيث تشاء فلا مجال للاعتراف بـإله خالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصائرهم . وليس الدين عندهم إلا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البائدة .

ولاريب أن الماركسية الشيوعية بهذا المفهوم هي دين جديد يحتقر الأديان القديمة ، دين مادي ينكر الله ورسالات السماء ، وهو محاولة لتسخير الطبقة العاملة لطبقة جديدة حاكمة بالقضاء المطلق على الحرية الشخصية وحرية الكتابة وفق حكم دكتاتوري استبدادي .

وعندما حاولت الشيوعية تطبيق مفهوم ماركس ، تبين مدى الهوة السحيقة بين النظرية في مفهومها الفكري وبين التطبيق في عناصره المادية المحسوسة ، وليس نظرية التفسير المادي للتاريخ من أفكار ماركس فات مبتدعها هو الفيلسوف الألماني هيجل : ولا تنفرد الشيوعية باعتمادها ، ولكن يشار كهم الماديون والدهريون . وليس التفسير المادي للتاريخ هو التفسير الأوحد ، ولكن هناك عدداً من التفسيرات التي قدمها مونتسكوي وبوكل . وقد تعددت التعليقات بالمناخ والطعام والارض ، وجاء التفسير بالمال والحالة الاقتصادية الذي قال به ماركس واحداً منها ، ولكن اعتبر في الماركسية أساساً أولياً .

وبالجملة فإن المادة في الماركسية هي التي تفسر كل شيء في الكون وفي المجتمع الإنساني ، وحيث يؤمن أصحاب الأديان بالروح والمادة لا تؤمن الماركسية إلا بالمادة وحدها ، وحيث يؤمن الإنسان بالنفس التي تخرج بالموت ، تومن الماركسية بأن الجسم آلة تعمل فيها مختلف الأجهزة ، وأن الموت هو توقف هذه الآلة عن العمل . وبينما يؤمن المسلمون بأن الدين عامل هام في

تحريك المجتمع ودفعه الى التطور تؤمن الماركسية بأن العوامل الاقتصادية من فقر وغنى هي التي تسبب حوادث التاريخ .

والخطأ الاساسي في نظرية ماركس انه أقامها في ضوء حالة عرضية لم تثبت ان تغيرت . وقد قامت قبل الماركسية نظم سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة تحدى العقيدة الدينية واتهتها بأنها عائق في وجه الاصلاح، ثم اندثرت تلك النظم او تطورت الى نظم أخرى وبقيت العقيدة الدينية قائمة كالطود الشامخ لا سبيل الى تجاوزها في النفس الانسانية ، او تجاهل آثارها في الحياة الاجتماعية .

ولقد طرحت الماركسية نفسها في العالم الاسلامي وفي الفكر العربي الاسلامي ، ووجدت عوناً من النفوذ الاستعماري الذي استهدف الاستعارة بها على تحطيم الشخصية وبلبلة الفكر وتزييق مفهوم الاسلام ودفع العرب وال المسلمين الى متأمات خطيرة . غير ان مفاهيم الاسلام ما لبثت ان واجهت هذه المخططات وعارضتها ووقفت ازاءها موقفاً الواضح ، اذ ما في الاسلام من دعوة الى المعدل الاجتماعي يكفي المسلمين ، ولا يحتاجون بعده الى مناهج وافية ، وهو يتحقق لهم المساواة والعزّة دون ان يسلب الفرد حريته او يضعنهم تحت الوصاية القاهرة . وان التجربة الماركسية الشيوعية نفسها لتكشف بوضوح عن عجزها في تحقيق الغايات التي فرضت انها أساسية في منهجها ، ولم تنجح الشيوعية في إلغاء نظام الطبقات ، بل محظ طبقات وأقامت بدليلا منها طبقات جديدة .

ولا ريب ان الماركسية لم تلق من الفشل قدر ما لقيت في العالم الاسلامي ، وان كانت تستهدف بدعويتها تحطيم النظم الاجتماعية التي دعا اليها الاسلام .

ولا ريب ان أبرز ما تدعيه الماركسية من القضاء على التفاوت الطبقي

وتحوير الانسان من استعباد الانسان هو أكبر أهداف الاسلام وأعظم معطياته، فليس المسلمين في حاجة الى التماسه في مناهج أخرى ولكن الاسلام يحقق هذا الهدف في إطاره بالإيمان بالله والتوحيد.

وتاريخ الانسانية كله (سياسياً واقتصادياً واجتماعياً) يقرر مدى الدور الهام الذي لعبه الدين في تشكيل الأحداث والواقع، ويكشف عن الحاجة الضرورية الماسة للبشرية كلها في التماسه، وما تزال المجتمعات الغربية التي سقطت في براثن المادية تتطلع الى منهج يحقق تكافلها الاجتماعي ويعطيها الإيمان وطمأنينة النفس وينذهب عنها القلق والتمزق، ولن تجد ذلك كله إلا في الاسلام.

ولقد اتجه الاسلام منذ اليوم الأول الى الفقراء والمستعبدين والمظلومين، فقرر حقهم وأنشا مجتمعاً يطبق ذلك وينفذه، ونشر دعوته تلك في العالم كله، ولن يستطيع أي منهج او أيديولوجية بشرية ان تصل الى ما وصل اليه الاسلام . وقد أقام الاسلام ذلك كله داخل نطاق التوحيد ، وفي إطار الأخلاق ، ووفق مناهج الكرامة الانسانية والعدل الاجتماعي ، فهو لم يجعل أنظمة الزكاة والميراث وغيرها صدقات ، وإنما جعلها أصولاً ثابتة واقعية ، وقد حقق ذلك كله دون أن يريق قطرة دم او يوقع العالم في صراع دموي ويبقى بعد ذلك ان الاسلام مستمر على التاريخ البشري كله ، بينما تظل النظرية الماركسية علامة على مرحلة من مراحل التاريخ البشري ، وان العالم كله الان يتتجاوز الماركسية كأي فكر بشري يصعد الى قمة من القمم ، ثم تأتي المتغيرات فتتجاوزه . ولقد حاولت الماركسية ان تصبح نفسها مرة بعد مرة ، وان تضيف وتحذف في محاولة للموامدة مع التطور والحياة ، وليس كذلك الدين ، وليس كذلك الاسلام الذي يضع الاطار الثابت العميق

المستمد من الفطرة والذي يتلacci مع كل العصور والبيشات .

ومن هنا نجد ان إسلامنا يعطي أكثر مما تعطي الماركسية و مختلف المذاهب والأيديولوجيات لأنه يقوم على التكامل والارتباط بين القيم ، وعلى أساس الفهم العميق للإنسان نفسه ، وعلى أساس كفالة التنفيذ عن طريق الطابع الأخلاقي والإيمان بالله ، والإيمان بالجزاء الآخروي الذي يثبت قواعد المسؤولية الفردية وضوابط الالتزام الأخلاقي .

ويرى أرنولد تويني ان الماركسية هي من نتاج الحضارة الغربية وهي ت-shell أزمة من أزماتها وأخراجها في طريقها ويصدق هذا القول اذن ان ماركس لم يكن في الحقيقة يحمل رسالة ولا يدعو لحضارة جديدة بل هو ابن بار للحضارة الغربية صنع نظريته من ( الفلسفة الالمانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي الانجليزي ) أي عصارة الحضارة الغربية في قمة نوتها .

« ماركس يؤمن بالحضارة الغربية بكل قيمها و تاريخها ويعتز بهذا التاريخ ويعتبره تقدماً للبشرية في طريقها نحو النصر الأكبر ويسمى جرائم هذه الحضارة حتمية تاريخية لا يرجعها إلى فلسفتها بقدر ما يرجعها إلى الضرورات الاقتصادية، وكل ما يتقدم به ماركس هو حل لإنقاذ هذه الحضارة وإخراجها من ورطتها » .

أما نحن فندعو لحضارتنا . يقول عمر : كنا نعد المعرض بخيلا ، والله لئن بقى ليأتين الراعي يحبيل صنماء حظه من هذا المال وهو في مكانه .

ان التصميم الرباني الذي ينظم به الاسلام المجتمع والاقتصاد لا يستطيع

أي منهج بشري أن يصل إليه ، لأنه من عند مبدع الإنسان و خالقه .

ان ثمة طريق آخر غير الرأسمالية والماركسيّة هو طريق الإسلام الذي يملك تشريئاً مفصلاً في أمور الحكم والاقتصاد والمجتمع يقوم على تكريم الإنسان وأخلاقية الحياة ، ولن تستطيع هذه المذاهب ان تعطي الإنسان ما يعطيه الإسلام لأنها لا تؤمن به مستخلفاً في الأرض ولكنها تؤمن به توسيع في آلة ، والعناية بالطبقات الكادحة لا تتم الا في إطار الإيمان بالله ووضع الإنسان في مكانه الطبيعي : له إرادته ومسؤوليته والتزامه الأخلاقي ، وله إيمانه بالله والتحرك في إطار الرسالة التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله ، ولن تستطيع أي منهج اجتماعي ان يعطي البشرية شيئاً خارج إطار الدين والأخلاق ، ولقد حل الإسلام مشكلة العيش ولم يجعلها الا واحدة من قضايا الإنسان والمجتمع ، الى جوار قضايا الاعتقاد والتشريع والأخلاق ولن يتuntas تحقيق العدالة الاجتماعية بإعلان الحرب على الدين او بمنطلق من المادية الحالصة . ولا بد ان ترتبط قضية العدل الاجتماعي بالاعتقاد القائم على توحيد الله في نطاق ميتافيزيقيا واضحة المعالم ، رسمها الإسلام في القرآن ، وشفى بها النفس البشرية من القلق والتطلع والبحث عن طريق العقل والفلسفات ، وهي التي تستطيع هداية الإنسان لأنها تبحث فيها لا يستطيع الخوض فيه .

والعقيدة الدينية الصحيحة لا تنتهي الا بعد تغيير المفاهيم الأساسية عن أسباب الغنى والفقير ، فالبشر هم المسؤولون عن الإخلال بالأوضاع الطبيعية التي يعيشون بها ، وهم الذي أقاموا هذا الظلم الواقع على المحرومين والكادحين . فلنرجع لهذا الإخلال من مستوى الحياة التي نحيها ، وعندئذ يسلم لنا الاعتقاد

في الله ، ذلك ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وليس المال وحده هو الرزق ، بل هو كل موهب الله وكل نعم الله على الانسان ( الصحة ، القوة ، الجاه ، الغنى ، المال ، الحيلة ، الذكاء ) .

نعم ، ليس الاسلام هو المسؤول عن تخلف المسلمين وضعفهم ، ولا عن فقرهم وإسرافهم ، وإنما هم المسؤولون لأنهم خالفوا شريعة الله التي وضعها للناس .

( ٣ )

لاريب ان كل الدراسات العلمية والواقع التاريخية تقرر الصلة الواضحة والأكيدة بين الماركسية والصهيونية ، فان زعيم الماركسية هو كارل ماركس اليهودي ومفاهيمه عصارة نفوس مليئة بالحقد على مختلف طوائف البشر راغبة في الانتقام منها . وقد اعترف الصهيونيون بأنهم أول من نادى بالشيوعية ، وقد كانت الثورة البلشفية من تصميمهم ، وقد اشترك أثرياؤهم في تمويلها .

ولا شك أيضاً ان النظام الرأسمالي الليبرالي هو أيضاً من منبع اليهود ويستهدف تعاون اليهود والشيوعية للوصول إلى السيطرة على العالم ، وتسخير المواد العالمية وفق أهوائهم .

وقد عرض أحد الباحثين الى وجوه المقارنة بين الصهيونية والشيوعية ، فأشار الى ما يأتي :

أولاً : نظرتها للحرية . وأكد ان الحرية عندهما لا تعني ما اصطلاح عليه الأحرار في كل مكان من مفاهيم الحرية ، وإنما تعني شيئاً واحداً هو السلطة ، والسلطة هي حق حرية الاستعباد والظلم ، والسلطة الحاكمة المستبدة تملك كل شيء بما في ذلك عقول الناس وضمائرهم .

ثانياً : تنادي الشيوعية والصهيونية بضرورة تحطيم نظام الاسرة والقضاء على الروابط العائلية وجعل الولاء مقصوراً على السلطة الحاكمة ذاتها والنظام الأمثل للاسرة في نظرها هو النظام المفكك الذي يجعل الاسرة أفراداً متطرفين يرتابون في بعضهم البعض .

ثالثاً : الصهيونية تطالب بالقضاء على كل الاديان غير اليهودية ، وتعمل على نشر الاخلاص في فترة معينة من فترات الكفاح من أجل السلطة ، وهو ما تطالب به الشيوعية ، ذلك ان الشيوعية تقضي على كل الاديان ، وتجعل من عقائدها ديناً جديداً ، فهي تخلع على هذه العقائد قداسة أشبه بقداسة الدين ، وتختفي وراء هذا الدين المادي كل مظاهر سلطتها وسلطتها واستبدادها . وهدف الصهيونية [اتاحة التفوق ل الدين واحد هو اليهودية مثلاً تماماً] لهدف الشيوعية من إتاحة التفوق لعقائد معينة ترفعها إلى مرتبة عقائد الدين .

رابعاً : مثاماً ينادي حكام صهيون بضرورة إشعال نيران ثورة عالمية بغية إخضاع العالم كله للسيطرة الصهيونية ينادي حكام الشيوعية بإشعال ثورة من هذا الطراز بغية إخضاع العالم كله للسيطرة الشيوعية . وفي سبيل إشعال نيران هذه الثورة لا يتورع حكام « الشيوعية والصهيونية » من المطالبة بالاتجاه إلى التآمر والخداع والتضليل والتجمس والتسلل في صفوف الجماعات المناهضة للمشيوعية والصهيونية .



وبالجملة فان الاسلام يواجه منهجه الاصل الشامل المتكامل هذه الاخطار التي تتطوی عليها الماركسية والصهيونية ، وما قط رحانه من نظريات حول

المواهمة والانصهار في دعوات القومية او الوطنية او تفسير الاسلام بأنه يقترب من الماركسية او غير ذلك من أوهام على أساس إيمان لا ريب فيه بأن الاسلام نظام متكامل قائم بنفسه ، غير مجزأ او مصوب في أي قولهب أخرى ، وهو نظام الثبات الذي لا يتغير ولا ينطوي بيتاً تنفسه المذاهب وتتعثر وتتلاصص وتموت .



## الفصل الخامس

### الاسلام والبشرية

واجه الاسلام تحديات المسيحية والصهيونية والماركسية والإلحاد والمذاهب المدamaة ، كما واجه محاولة تسييحة وتهويده وصد أمام كل التحديات ، ووقف موقف الاستجابة الحقيقة حيناً تساءلت البشرية : هل يستطيع الدين أن ينقذ البشرية أو ينقذ الحضارة ، واستطاع ان يحيي بالإيجاب بينما عجز كثير من الاديان ان يقدم شيئاً في هذا السبيل .

لقد وقفت اليهودية تحت سلطان الفكر البابلي القديم وشكلت منه تراثها كله ، ووقفت المسيحية تحت سلطان الفكر الإغريقي ( مثالية أفلاطون ومنطق أرسطو ) . واستطاع الاسلام ان ينجو من الجاهلية العربية واليونانية والمجوسية والهندية والفرعونية ، وتمكن من ان يقدم منهجه كاملاً للبشرية دون ان يصاب بالتحريف او التأويل .

ولقد انتشر الاسلام على مساحة واسعة من الارض أكبر من المساحة التي انتشرت عليها المسيحية او اليهودية ، وفي فترة أقل كثيراً .

ولقد أعلت اليهودية المنصر ، بني اسرائيل شعب الله المختار ، وغفلت المسيحية عن مكان الانسان في المجتمع واهتمت بإعلان الفرد ، ومنها قامت الفردية قاعدة الفكر الغربي .

وكان تفسيرات المسيحية للتشليث والزهد من التحديات التي صدمت العقل الحديث ، ولقد تصررت الأمم الاوربية في القرن الثالث وال السادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك في غفوتها عشرة قرون ( ألف عام ) ثم تيقظت نحو أربعة قرون فقط بينما نهض الاسلام بمعتنقه وأقام حضارته الباهرة منذ القرن الاول للمigration ، فلم يكن الاسلام سبب تأخر المسلمين ولم تكون المسيحية سبب تقدم اوروبا ، فقد كانت الأمم الاوربية قبل اعتناق المسيحية أرقى منها فيما بعد ذلك . يقول ليسننج في كتابه فلسفة التاريخ : لقد اعتبرت اليهودية الإله مصدر خوف وطمع ، وأزالت المسيحية الفوارق العميقه بين الألوهية والبنوة ، ونحن نقول ان الاسلام قرر ان الله هو الرحمن الرحيم ، وهو المنتقم الجبار ، وان رحمته سبقت غضبه ، وان الألوهية مستقلة عن النبوة وقضى باستحالة الالقاء بينها او تحول أحدهما الى الآخر . وفي الغرب لم يكن العلم خالصاً للعلم ولكنه محاولة لنفع الاستعمار ، ولم يكن المدخل خالصاً للبشرية ، ولكنه قاصر على الجنس الابيض . وتبدو روح الغرب واعرافه واضحة في القوانين والنظم والتشريعات الجافية للأخلاق والمنقطعة عن الاعيان بالجزاء الآخروي ، ومنها إباحة الربا وإباحة الزنا في فراش الزوجية .

( ٣ )

قدم الاسلام فتوحات جديدة في الدين والاخلاق تقدمه على ما سبقه من رسالات ، بعد ان اتفق مع هذه الرسالات في جوهر الدين وأصول التوحيد.

وقد أعلن الاسلام انه اغا جاء ليجعل للناس كل الطيبات ، ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وليس ذلك نقضاً للمتقدم ، وإنما وقوفاً بالحكمة عند وقتها المناسب وأجلها المقدر<sup>(١)</sup> وجاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .

كذلك قطع الاسلام الامتداد الفكري والاجتماعي والثقافي بين ما قبل الاسلام وما بعده عند العرب أولاً ، ثم في كل مكان حل فيه . وقد ذهب الاسلام الى كل مكان وأثر في جميع النحل والأقطار ، وكذلك قطع الاسلام امتداد الوثنية في العالم كله ، وقطع امتداد العبودية وإذلال الانسان في العالم أجمع .

وبالاسلام تجاوز العالم تاريخه القديم ونسى مصر وسوريا والمغرب طوابعها الفرعونية والإغريقية والرومانية واليسوعية ، وكذلك جاء الاسلام في صلاً قاطعاً بين عهد وعهد ، وفکر وفکر ، وحضارة وحضارة . وحرر المقائد

---

(١) من بحث للدكتور محمد عبد الله دراز .

من عبادة الابطال ، وحرر الشرائع من عبادة القوة ، وحرر الدين من الشرك والتعبد ، كا رفض الاسلام فكرة الرهبانية ، والهروب من الحياة والسلبية والانطوانية ، ورفض التفسيرات الدينية القديمة للرهبانية والمرأة والفريز ، وألفى فكرة الكظم العام والرغبة الجسدية ، وأباحها في إطارها ، وأقام الاسلام طابع الأخلاقية بالالتزام ، وجعله المظلة الواقعية التي جنبت القيم من التمزق والتجزئة .

وبني الاسلام منهجاً متكاملاً لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العلم ، ولا الاخلاق عن المجتمع ، ولا يعرف حكومة إلهية، ولا يرفع الانسان عن مستوى البشرى ، ويحمل الفرد المجتمع ، والمجتمع للفرد ، ولا يفرق بين الناس على أساس المنصر والعرق او الدين او اللون ، ويرفض الرهبانية والتزف مما ، ويجعل المال ملكية خاصة ووظيفة عامة ، ومنفعة للناس جميعاً .

( ٣ )

عارض الاسلام مفاهيم الفكر البشري والخرافات العقائد والتفسيرات الباطلة للاديان ، وذلك بعد ان حدث ذلك التلاقي العجيب بين الاديان المنزلة والفكر البشري الوثني حق جاء الاسلام قاطعاً فاصلاً مقرراً أصول الدين الحق .

وقد وضحت معارضة الاسلام لعبادة قوى الطبيعة وما يتصل باباعاده شأن الشمس او النور والظلم او آلهة الخير والشر ، او عبادة الناس او التناصح . كما عارض تحرير صيد الحيوان بدعوى قتل النفس او رحمة العصفور وعارض إباحة الاموال والنساء ، وأكده البغث والجذاء ، والجننة والنار التي عارضها اليهود والدهريون ، وأعلن وحدةخلق البشرى نفسها وجسداً ، وعارض تقسيم الانسان الى عنصرين ، او صراع العنصرين داخل الانسان ، وأكده الفوارق الاساسية ما بين الطبيعة الإلهية والطبيعة الانسانية ، وكشف ما بينها من تمايز واستحالة امتزاج او التحاد ، وهدم الاسلام سقوط التكليف والقول بأن من وصل الى معرفة الله سقطت عنه الفرائض ، وعارض نظريات الفيض والاشراق ووحدة الوجود والخلو واتحاد ، كما أعلن الآيات المكبات التي هي أم الكتاب ، وكشف عن استحالة التأويل فيها بما يخرج

النصوص عن مدلولاتها الأصلية إلى مقايم معرفة بالهوى على النحو الذي أحدثه بعض أئمة الأديان في تفسير الأديان الأخرى .

•

وأوضح الاسلام الغاية من خلق الله للناس ، وأعطى المسلمين سبيل هذه الغاية وأسلوبها والعمل لها على نحو شامل واضح بحيث لا يعرف المسلمين التساؤل الشاك القلق الذي يلف النفوس البشرية غير المؤمنة من السؤال عن سر الوجود والحياة في هذه الارض ، ولقد عجز غير المسلمين عن فهم هذه الغايات فاضطربت حيواتهم .

كذلك وجّه الاسلام المسلمين إلى الاستدلال بالخلق على الخالق ، فعرفوا ان وراء هذا العالم خالقاً عظيماً ورباً كريماً يحيط به ويصرفة ساعة بعد ساعة ، ويُمسك لحظة بعد لحظة .

ولقد أعلن الاسلام دينًا عالميًّا للإنسانية جماء ، فلم يستمد تسميته من جنس كاليهودية ولا من نبي كالمسيحية ، ولكن استمد اسمه من جوهر فكرته الأصيلة ألا وهي إسلام الوجه لله .

وقد شجب الاسلام نظام الرهبنة والواسطة بين الله وخلقه ، وأعلن حرية العقيدة « لا إكراه في الدين » ، وأقام قاعدة أساسية تحول دون الانحراف ، وتعطى القدرة على تنقية الاسلام من الشوائب التي تتجمع لنفسه جوهره .

وأعلن ان الدين من عند الله ، وأنه من أعماق أدرة الإنسانية ، فهو ليس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية او من نتاج الارض كما يقول الملاحدة ،

وليس هو أفيون كما يقول الماركسيون .

وقد حرص الاسلام على توجيه الانسان الى الجانب العملي الاجتماعي الذي يدور على نفع الناس والتأكيد على مطلاقيه المجتمع ، ورفع عن المسلمين اصر البحث عن الوجود والخلق والقيميات بعد ان فصلها لهم تفضيلا لا زيادة بعده لمستزيد .

( ٤ )

ان آفة الفكر الغربي ( وخاصة أصحاب مناهج مقارنة الأديان ) اتهم  
لا يضعون الاسلام موضع النظرية المجردة في منهج علمي خالص ، غير مبطن  
بالآهواه ، وغير متصل بالمطامع وغير مجرد من الأحقاد ، وذلك موقف الفكر  
الغربي مع الاسلام منذ القديم ، منذ لما .. الغرب بأن يتخلى الاسلام عن أرضه  
التي سيطر عليها ألف عام عائداً إلى الجزيرة العربية ، ومنذ أعلن الغرب انه  
لا يقبل مزاحمة الاسلام في أوروبا ، وعمل على تهميش المسلمين أو تنصيرهم ، وكانت  
صيحة غلادستون عن موقفه من القرآن أوضح من الوضوح ذاته .

ويصور هذا كثيرون ، ويكشف برناردشو موقف المسيحية الغربية من  
الاسلام فيقول : لقد حمد رجال الاكليرicos في العصور الوسطى الى تصوير  
الاسلام في أحلك الألوان والواقع انهم يسرفون في كراهية محمد وكراهية  
دينه ، ويعدوونه خصمًا للمسيح ، أما أنا فأرى واجبًا ان يدعى محمد منقد  
الإنسانية ، وأعتقد ان رجلاً مثله اذا تولى زمام العالم الحديث نجح في حل  
مشكلاته .

ومن هذا المنطلق كان هدف الفلسفات المادية كلها تقويض دعائم الاعتقاد

بوجود إله واحد ، بعض النظر عن البديل المقترن ، وكان البديل هو ألوهية المادة او ألوهية الإنسان او اتخاذ الغريرة محوراً لتفسير الوجود ، ولا ريب ان الهجوم على التوحيد انا هو موجه للإسلام أساساً ، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة الوحدانية من شوائب الشرك ، فإلاه في عرف اليهود إله قومي لهم وحدهم دون غيرهم من الأئمين ، وفي عرف النصارى هو واحد من ثلاثة .

ولقد جاءت الماركسية تدميرأ<sup>(١)</sup> لفكرة الألوهية وربطها للإنسان ومصيره بمصير المادة المحسدة وتفسيرها لحركة التاريخ بعوامل ليس فيها إرادة الله فضلاً عن عدمها الصريح الذي لم يتوجه في الحقيقة إلا إلى الإسلام باعتباره معقل الفكر الديني ، ورمزاً يجسد العلاقة بين الله الواحد ، وبين الخلق الموحد ، وهي تعد أصراحتها وجهها الفكر الحديث إلى معقل الوحدانية وان بدلت عاجزة عن تحقيق أهدافها بعد ان شاهت وبارت في نظر كثير من المفكرين .

ولقد جرت محاولات كثيرة لاعتبار الدين مسألة تاريخية وقضية مرحلة ؛ وكانت الفلسفة الوضعية هي التي ركزت على القول باعتبار الدين مرحلة تاريخية في تاريخ البشرية والتهوين من أثر الإسلام في حركة التاريخ . وقد تبين زيف القول بأن الإسلام كان ضرورة مرحلية حلقة من سلسلة تطور البشرية ، اذ أثبتت الواقعية التاريخية وما تزال تثبت إلى اليوم أن الإسلام دعامة أساسية للجغرافية والتاريخ والاستراتيجية وال الحرب والسلام ، وأنه

---

(١) من بحث للدكتور عبد الصبور شاهين .

الجدار القوي الذي يصد كل ما تطروحه الوثنية والمادية ، وما تأقر به الشيوعية والصهيونية والاستعمار الغربي ، بالرغم من ضعف الاقتدار المادي الذي تكلكه هذه القوى ، وان الاسلام ما زال صامداً أمام التحديات ، وما زال مؤثراً في تطور الأحداث ووقائع التاريخ يوماً بعد يوم ، وانه يكسب كل يوم أنصاراً جددأً ويحرر أهلاً ويدفع الفكر الانساني الى الطريق الحق .

وإذا كان الاسلام قد قضى على الشرائع الفاسدة التي كانت سائدة قبل ظهوره في الفرس والفراعنة واليونان والرومان والهنود بما تعلق من شأن الطبقة الواحدة ، وتقيم العبودية وتركز العنصرية ، فان الاسلام في هذا العصر لن يتأنسر عن دحر هذه الانظمة وادالتها حتى استعمل به أهله وفهموه ديننا متكاملأً جاماً وطبقوا شريعته ، وأقاموا أخلاقه وعقيدته . ولعل من أبرز الطواهر القائمة اليوم ذلك التحدي الواضح الذي يشرق في آفاق عالم الغرب بالقياس منهج جديد وذلك الصراع القائم بين الايديولوجيات والاديان ( الايديولوجية هي النظام الفكري الذي يحاول ان يكون منهجاً للحياة من صنع البشر ، وهو مختلف من مجتمع الى مجتمع ، ومن عصر الى عصر ، ويحتاج في العصر الواحد الى تعديلات مستمرة ، وفي المجتمع الواحد الى تغيرات متواتلة حيث لم تثبت ايديولوجية ما حق الان أكثر من عشر سنوات دون أن يجري عليها تعديل وتغيير ) .

أما الدين فهو المنتج القائم بالحق . ويقول تويني : ان الأديان السماوية تراجحت لتشغل خيراً فردياً في حياة القلة من أفراد المجتمع بحيث لا تدخل في مجال حياتهم وتعاملهم ، ومن الحق ان يقال في الرد على

ذلك : ان هذه الاديان نفسها قد تشكلت على انها اديان عبادة . وقد أشار توبيني الى ذلك حين قال ان الدين المسيحي أصبح يخصل الانسان فقط مقصولاً عما يخص المجتمع ، وليس كذلك الاسلام فهو الدين الوحيد الذي دعا الى إقامة منهج حياة ونظام مجتمع مستمد من الأصل الرباني : القرآن . ولكن السؤال : هل تستطيع هذه الايديولوجيات والمذاهب ، وهي جميعاً من نتاج الغرب وحضارته ان تنهي علاقة الاديان بالبشر ، او ان تحل مشاكل المجتمعات وتحديات البشرية ، ذلك ما تتقرر فيه الإجابة بالنفي القاطع .

ولقد قالت هذه المجتمعات التي حاولت أن تقيم ايديولوجيات من صنع العقل البشري ، وما زال تقاسى والمؤكد ان عودة البشرية الى الاديان (والدين الحق ) هو سبيل خلاصها من التحلل والانهيار والدمار الروحي والحادي .

وقد تبين للانسان ان ما وصل اليه علم لا يمثل إلا قدرأً قليلاً بالنسبة لتفسير الكون والحياة وان الكلمة الاخيرة في مصيره ليست في متناوله<sup>(١)</sup> .

ومن الحق أن يقال ان المجتمعات الغربية لتعطش اليوم الى الدين ، وترى فيه ترافقها في هذا العصر القلق المتفكك ، وتجربة الانسان في هذا الصدد فريدة فقد صهر المجتمعات التي اعتنقته في وحدة عاطفية واجتماعية وسياسية واقتصادية ، وان دراسة الاسلام وفهمه على أصوله سوف تكون في المستقبل القريب عاملأً هاماً في هداية البشرية ، بعد ان كشف العلم الحديث آفاق العالم

---

(١) الاستاذ يحيى الماشي في تعليقه عن كتاب العادة والتغيير لتوبيني .

وقدم للناس زيادة عما مضى دلائل جديدة على عظمة الخالق في كونه الواسع العجيب ، وكان لتحطيم الكرة أثراًها في تحطيم مفهوم الفلسفة المادية القائمة على إنسكار عالم الغيب . فقد بدأ هذا العالم واضحاً من خلال العلم .

●

وليطبق المسلمون الاسلام أولاً : ولن يكونوا مسلمين حق يضعوا التجربة امام البشرية ، وليدافع المسلمون عن روح الاسلام في مجتمعاتهم ، فهم لن يستطيعوا ان يقوموا برسالتهم في هداية البشرية المتطلعة الى ضياء جديد لن يأتي لها الا من قبل الاسلام ، الا اذا أقاموا أنفسهم على الاسلام عقيدة ومنهج حياة .

وليس في المدينة الغربية شيء يحتاجه المسلمون الا هذا العلم الطبيعي التجريبي الذي هو ملك للعقل البشري عامه ، والذي ساهم المسلمون في بناء لبنياته الأولى ، حين أقاموا المنهج العلمي التجريبي . أما اجتماعيات الغرب ، فليس المسلمين في حاجة اليها و نسدهم منهمجم الاصيل . أما ميتافيزيقيا الغرب فهي من نتاج العقل البشري القاصر ، وقد أعطى المسلمين منهجاً ميتافيزيقياً كاملاً ليسوا بعده في حاجة الى منهاج في هذا الباب .

ومن الحق ان يقال ان الاسلام لم يبن أهراماً ولا هيكلات ولا تماثلاً ، ولكتبه بني النفوس والعقول فقد أقامت هذه الأهيكلات امم كانت خاضعة للعبودية والظلم ، ولكن جاء الاسلام ليقيم دولة الفكر ويحمل الامر كله لله .

ونحن اذا بحثنا في الثورات الكبرى التي قامت في مختلف أنحاء العالم ، والتي هدمت المعابد واعتقلت رجال الدين لم نجد أصولها ولا بواطنها الا الثورة على تلك القيود التي فرضها الاكليروس والكهنة بغير الحق .

ان الاسلام هو الذي حرر الروح الاوربية الغربية بعد ألف سنة من الاستعباد والإذلال اللذين كبلتها بها قوى باسم الدين ، وكان الاسلام في الاندلس هو منطلق النور والضوء الى اوربا . يقول جيمس بريستيد : ان العصر الاسلامي في اسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في اوربا ، وان اعتزال المسلمين في اسبانيا كان بمثابة انهزام المدينة أمام المموجية .

ومن الحق ان يقال ان الاسلام هو الذي أقام عقيدة التوحيد في مواجهة الوثنية والتعدد ، وأقام فكرة إباحة زينة الحياة في مواجهة الرهبان ، وأقام الصلة المباشرة مع الله في مواجهة وصاية رجال الدين وأقام منهج التكامل في مواجهة الانشطارية ، وأقام مسؤولية المجتمع ازاء فقرائه وضعفائه في مواجهة قتل الفقراء والضعفاء ، وأقام الاخاء الانساني في مواجهة العنصرية ، وجعل الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد في مواجهة الفردية المتعصبة والجماعة الظالمه ، وأحل الله البيبع في مواجهة الربا ، وأعلن ان الله رب العالمين في مواجهة الإله الخاص ، وأكَدَ اليوم الآخر والجزاء في مواجهة الدهرية ، وأعلن منهج الثبات والحركة معاً في مواجهة نظرية التطور المطلق ، وأعلن ثبات الاخلاق في مواجهة نسبية الأخلاق الباطلة ، وقدم دينًا لا يصدم العقل في مواجهة الأسرار والأساطير والخوارق ، وألغى عبودية الانسان ، وحرره من عبودية الحضارات ، وأعلن حقوق المرأة إزاء ظلمها الفادح ، وألغى العصبية القبلية وأحل بديلاً منها أخوة العقيدة، وأعلن التكامل والترابط بين عالمي الإنسان الداخلي والخارجي وبين عالم الغيب والشهادة .

وأوحى الى معتقديه شعور العزة وخلصهم من كل تكلف او اصطناع ، ودعا الى الفطرة وأنكر التقليد ، ودعا الى المعرفة الى الحق مقا استبيان وجه

الصواب ، ودعا الى ثبات الهدف وتعدد الوسائل ، وأعلن ثبات الجوهر وتغير الصورة .

ومن أبرز معالم قوته قدرته على إعادة صياغة نفسه ، وكشف الأغشية التي تحاول إخفاء جوهره ، ورد المذاهب والنظريات التي تتعارض مع منهجه .

والاسلام يشق طريقه في العجز منذ أكثر من مائة عام ، فهو ليس متطلعاً بالقدرة التي تدفعه إليه حواجزه وقواه ، وإن القوى الخارجية تحول دون انطلاقه إلى غايته واحتلال ارادته لتحقيق قيام مجتمعه . وقد طبع الاسلام حياة المسلمين وسيظل يطبعها ، وهو لن يسقط أمام التبشير الادبي ، لأنه متتجدد النظرة ، ثابت الدعائم ، وما يزال القرآن قائماً بالحق .

وإنه ليعطي البشرية اليوم ، ولسوف يعطيها في الغد ، وكل الدلائل تكشف عن انه ينطلق الى غايته لتحقيق رسالته بأقرب مما يظن المراقبون .

وفي المقارنة التي عقدتها موسوعة تاريخ البشرية عن دراسة الاديان في القرن العشرين تقول الموسوعة عن الاسلام : كان الاسلام في القرن العشرين متشابهاً [تشابهاً] لا فكاك فيه مع التطورات الاجتماعية والسياسية لهذا العصر ، ولما كان الاسلام دينناً يشمل عند اتباعه القانون وأسلوب الحياة ، فقد كان عليه ان يكون عنصراً من عناصر حركات تحرر الشعوب الاسلامية من حكم غير المسلمين ، ونشر التغييرات الكبرى في القرن العشرين في المجال السياسي ، فالإحياء الاسلامي جزء لا يتجزأ من الثورة السياسية

والاقتصادية بين الشعوب الاسلامية ، وقدم الاسلام مصدراً روحياً للقومية  
ثقافياً وسياسياً ، ففتح الجihad ضد السيطرة الغربية بعض خصائص الحرب  
المقدسة ، وفي الاسلام من حيث هو مرشد للسلوك السياسي نجد ان  
اصراره التام على المساواة بين المؤمنين تتشابه مع الاتجاهات الديقراطية  
المحدثة .

(٥)

ان الاسلام منذ صيغته قد شكل نفسه تشكيلًا مستقلًا واضحًا ،  
وسرعان ما بُرِزَ لونه المميز على خريطة العالم : عالم مستقل له طابعه المفرد  
ومنهجه المتكامل المتجدد بالتوحيد والإيمان والأخلاق .

ومنذ ذلك اليوم أصبح المسلمين قبلتهم الواحدة التي لم يحيدوا عنها أبدًا ،  
تهوي إليها قلوبهم وعقولهم بالإيمان والفكر ، ولم يكن لهم بعدها وإلى اليوم  
إلى الأبد قبلة أخرى ، وما تزال الكعبة وستظل مركز الدائرة في  
أرض الاسلام .

وقد ألهب تطبيق الاسلام مشاعر الناس حق من كان لهم منهج مخالف .  
يقول أوجست كونست : لا يسعني عندما أنظر الى فريق من المسلمين وهم  
يؤدون مناسكهم وفروض صلاتهم بشكل جماعة متکاففة والسكون والإيمان  
العدب يخيمان فوق رؤوسهم إلا ان أكبر عظمة هذا الدين الذي عرف كيف  
يصلق الأذهان ويهدب النقوص ويشرق القلوب ويقوم الاخلاق ويقضى على  
تمدد الروح ويجعله الى خشوع عميق وتواضع ملؤه الحضور .

ولا ريب ان هذا المعنى يتصل بالدور الضخم الذي قام به محمد صلى الله عليه وسلم في بناء هذه الأمة على القرآن . فهو ما زال وسيظل القدوة المثلى والأسوة الحسنة التي افتقرت من أكثر الناس تعصباً تقديرأً واعترافاً .

يقول فيليب حتى : لم يسجل التاريخ ان رجلاً واحداً سوى النبي محمد كان صاحب رسالة وبني أمة ومؤسس دولة - هذه الثلاثة التي قام بها محمد كانت في نشأتها وحدة متلاحمة ، لا يمكن ان تنفصل الواحدة منها عن الأخرى ، وكانت الى حد ما متوافقة يشد بعضها ازره بعض ، وكان الدين من بينها على مدى التاريخ القوة الموحدة ، وكان أبقاها زمناً حتى اذا ذهبت تعدد الناس في العالم اليوم وجدت ان السابع او الثامن منهم يدعوا نفسه مسلماً<sup>(١)</sup> .

وهكذا يصدق القول بأن محمدآً صلى الله عليه وسلم هو في تقدير المنصفين القائد الاول للتفكير الانساني الذي وقف ينادي بان الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وانها لا تخسفان لأحد .

وقد سيطر الاسلام على الانسانية أكثر مما سيطر الفكر الفلسفي العقلي ، سيطر على الفكر والعقل والروح ، وقدم المهدية للبشرية كلها ، وأقام دعائيم حضارة الغد .

---

(١) الواقع ان في هذا التقدير افتراض كبير ذلك ان تعداد المسلمين الي يوم بلغ أكثر من سبعمائة مليون مسلم ، وهو ما يوازي ان كل خمسة من الناس بينهم مسلم .

وقد عجز الباحثون عن تعليل سر ذلك الانتشار العظيم الساحق للإسلام في مطالعه ، وسرّ هذا الثبات المظيم للإسلام أينما حل ، وسر هذه الوحدة التي أقامها معتقدوه والتي ما تزال القوى الفاضبة تصرّبها بشدة منذ قرن من الزمان دون ان تفل وحدتها .

وصدق عريتون اذا يقول : ان التفسير المادي يفشل فشلا ذريعاً في اثبات وحدة العرب وغلبهم على غيرهم واستقامة حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فيروا إنها تقع في هذا الشيء الجديـد : ألا وهو الإسلام .

رأوا ان الإسلام قوة هائلة فيه حيوية دافعة إلى العمـران وسبيل الحضارة وهو الطريق إلى جمع الكلمة ، ونشر الإسلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب .

ومن هنا تعرف أيضاً ما هي القوة التي كانت ولا تزال تحول دون اخراج عقيدة الإسلام ، والسقوط في هوّة التقليد او التأويل او التبعـة او الخروج عن المنابع الأولى .

وقد صدق عمر بن الخطاب حين دعاـنا إلى النظر في التاريخ القديم السابق للإسلام لنعرف الفوارق والخلافات حين قال : « إنما تنقضى عـرى الإسلام عـرة عـرة اذا نـشـأ في الإسلام من لم يـعـرف الجـاهـلـيـة » .

نعم : ان مفتاح ذلك كله هو ان الإسلام لا يزال يعد مهمة الوحي قائمة بما قدمـت من كتاب ودين ، وما تزال أسوة الرسول قائمة أمام المسلمين

تطبيقاً لهذا الدين ، ولا يقر الاسلام مطلقاً ان العقل البشري أصبح قادرآً  
وحده على فهم الحياة او ان الانسانية قد أصبحت قادرة على ان تتجاوز رسالة  
السماء المنزلة بالحق في أصولها الاصيلة .

أنور الجندي

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية  
القاهرة



## المراجع

- محمد عبد الله دراز : الدين : بحوث محمد عبده لدراسة تاريخ الاديان .
- أحمد شلي : مقارنة الاديان .
- أبو الحسن الندوبي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .
- محمد عبده : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .
- محمد المبارك : الفكر الاسلامي الحديث .
- عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة .
- محمد ابو زهرة : محاضرات في النصرانية .
- علي سامي النشار : نشأة الدين والنظريات التطورية والمؤلهة .

وذلك بالإضافة الى المراجع الواردة في هوامش الكتاب .









## هذا الكتاب

علم مقارنة الأديان علم قديم : كان المسلمون أول من تناولوه في انصاف ووضعوا قواعده في أمانة ، وكشفوا به حقائق الأمور في ساحة باللغة . فقد تناول أبو الريحان البيروني . وابن حزم . والشهرستاني وغيرهم مقارنات الأديان وفق منهج علمي قائم على العدل والانصاف ، وعرض أقوال الخالفين بكل حرية ، وعرضوا للنihil عل نحو متميز من الواضح والسماحة ، دون تجاوز الحق . وان أي مراجعة لكتاب الأطباء لابن ابي أصيبيعة - وطبقات الحكماء لابن القسطي . وطبقات الأدباء لياقوت - والوافي بالوفيات للصفدي - وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي . تجد نماذج لهذا التسامح . فقد ترجم المؤلفون المسلمين للنصارى . واليهود والمجوس . و كانوا بناء ملة واحدة - وكتب البيروني عن أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة . فلم يمس عاطفة أحد من أهلها .